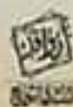


فريد عبد العظيم
خوفاً من العادي

رواية



فريد عبد العظيم

خوفاً من العادي

روافد للنشر والتوزيع

فريد عبد العظيم

خوفاً من العادي

رواية

عبد العظيم، فريد

خوفًا من العادي / فريد عبد العظيم

روافد للنشر والتوزيع. 2018 طبعة أولى، القاهرة

258 ص ؛ 22 سم

1-رواية 2-العنوان أ - المؤلف

رقم التصنيف: 813 .008

رقم الإيداع: 2018/ 15485

الترقيم الدولي 3 -432 -751 -977-978 I.S.B.N.:

جميع الحقوق محفوظة للناشر



روافد للنشر والتوزيع

تليفون +2 01222235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: رائد مجدي

(1)

لست من مواليد العاصمة.

حضرت إليها لأول مرة لتقديم أوراقى للجامعة، أصبحت من سُكَّانها. في البدء كانت المدينة الجامعية، وبعد التخرج في شقة العُزَّاب. لم أفكر في سكن خاص إلا قرب الزواج.

اعتدت الغربية، فهي فرض عين على أغلب سكان الأقاليم. كان من الممكن أن أؤخر غربتي بضع سنوات على الأكثر وأدرس في جامعة المحافظة، لكنها حيلة لا أكثر للمماطلة برهة، ومن ثم الذهاب إلى القاهرة.

القرار كان خاطئًا. فتلك المرحلة العمرية مرهقة.. طفل بملامح رجل، صوت خشن ولحية آخذة في الظهور. تغيَّر جسدي يتشكَّل ليتضح للعيان، وعقل لم ينضج بعد ليتخذ قرارًا بمفرده.

- تجارة خارجية كلية مستقبلها حلو قوي.. أخويا فيها وأول ما يتخرج هيشتغل في وزاره الخارجية.

جملة قالها أخرق لطائش، عجَّلت بغربتي. في البداية رفض والدي الفكرة، ولكنه أمام اندفاع الشباب وحججه القوية رضخ في الأخير. فكيف لموظف بمصلحة الري أن يقف عائقًا أمام التحاق ابنه بوزارة الخارجية.

وافق مُرغمًا على تعجيل تغريبة ابنه التي يوقن أنها لن تنتهي.

- هتسيب ديك البرابر يفارق ويسيبك يا محفوظ يا شهيد؟!
قالها أحد أصدقائه في نهاية قعدة غيط، بلهجة اختلط بها
الإشفاق بالهزر.

- مش هقف قدام مستقبله.

رد أبي وانصرف.

"الشهيد" لقب أطلقه أحد سكان القرية على نفسه. ربما منذ
قرن أو أكثر، وتحوّل دون أن يدري إلى لقب لكل رجل من قريتنا لم
يعترب مُرغمًا.

أبي محفوظ استحق لقب شهيد عن جدارة، فرغم فُرس العمل
التي سنحت له خارج قريتنا لم يغادر. أخوه المريض وأبوه الشيخ لم
يُلمّحًا. بالعكس، إلحًا عليه بأن يرحل ويشوف حاله. لكنه رفض
واستقر في القرية. بمجرد حصوله على دبلوم الزراعة زوّجه أبوه
ليكافته. بنتان في بطن واحدة تبعهما الولد، وبيت بناه، وشيب
ظهر في رأسه كرسّ البقاء. وأخ مات وترك زوجة وطفلة، أنهى أي
أمل في الرحيل.

وظيفة حكومية في المركز، ينتهي دوامها بمجرد أن يؤدّن لصلاة
الظهر، وزوجة انهدّ حيلها بعد أن أعطته الولد الذي انتظره، وبيت
مكهرب على الدوام من خلافات ما تلبث أن تنتهي لتبدأ من
جديد، بين أمي وسلفتها أم ليلي.. هي كل عالمه.

لم يفكر أبي ولو للحظات أن يتزوَّج بزوجة أخيه بعد أن ترمّلت، رغم إلحاح الأقارب والأصدقاء.

- مرآة أخوك صغيرة ومسيرها للجواز، ومتراضاش على بنت أخوك يريها راجل غريب.

- مراتك توافق ورجليها فوق رقبتها؛ ده لحم أخوك ولازم تصونه.

أصر على رفضه، وساعده على ذلك أنها هي الأخرى رضت بالمقسوم.

لم يكن العائق زوجته أو صورة أخيه الراحل التي قد تكون حاجزًا يمنعه. الحقيقة أنه كان يرهبها. صوتها العالي، مناقشاتهما وتدخُّلها في كل ما يخص أخاه ويخصه، حتى في مشكلاته الخاصة مع زوجته، آراؤها في كل كبيرة وصغيرة في البيت وقت أن بنوه، لدرجة أنه في مرة انفعل على أخيه عندما أصرّت أن تُعدّل تصاميم البيت. أرغمت المفاول أن يحضر الرسم كما قالت، وأمسكت بالقلم وأخذت ترسم وتشرح.

- الصالة لازم تبقى هناك على البحري، والمحلين تحتها على الشارع، وشبايبك الأوض على الزراعة عشان منبقاش مجروحين، وأوضة الخزين والفرن عالية شوية عن الشارع

عشان كل فترة بيعلوه، مش هنبقى تحت الأرض زي
الفيران يعني.

لا يدري كيف تحمّلها أخوه طوال تلك المدة، رغم تأخر حملها
ثماني سنوات! ولماذا لم يفكر في أخرى بعدما جابت البنت وبطنها
قفلت!

حياة رتيبة استكان لها. المذاكرة للأولاد تنهي ساعات الظهيرة
المملة، ومن المغرب ينطلق إلى المسجد ليصلي ويعتكف حتى
العشاء، تحببًا في سيدنا النبي وسنته، وبعدها تبدأ السهرة في غيط
أحد أصدقائه.

لم تكن النقود قط بمشكلة، فدخله يكفي ويفيض. المحلان
اللدان كان رافضًا بناءها أسفل المنزل، ووافق فقط إكرامًا لأخيه،
ليس لإلحاح أم ليلي وصوتها العالي وحججها التي أخذت في عدّها
عن مشروع المستقبل، إيجارها يغطي مصاريف البيتين ويزيد،
بالإضافة إلى مرتبه الذي يدّخره بالكامل.

جَهَّز البنّتين بأفضل شوار عرائس بشهادة أهل عريسيهما.
عزومة يوم الخميس الأسبوعية يحلف بها زوجها بنتيه. أجولة الأرز
والدقيق والمكرونه وصفيحة السمن في كل موسم يوصلها بنفسه
لمنزلي بنتيه.

- خيرك مغرقنا وعلى طول مشرفنا قدام أجوازنا.

دائمًا ما تقولها البنتان.

ما يترك غصة في حلقه أنه لم يجرب ويغامر مثل الآخرين. التغيرية مُغرية رغم كل ما يُقال. هناك من ذهب وعاد، وآخر لم يعد واستقر هناك. البعض يرجع بالمال فيبني البيت ويشترى الطين، والبعض الآخر يعود بالخزي. ولكن الكل يحمل الحكايات التي لا تنتهي عن العاصمة اللعوب ذات الألف وجه.

أمي بدأت في الذبول بعد ولادتي، وكأن مهمتها في الدنيا انتهت بجلب الولد. التقمُّتُ ثديها فضم، حَبوْتُ فأنحى ظهرها، انتصبتُ وبدأتُ بالمشي فرقدتُ في السرير وأطالت. وكأنني أعيش على روحها وأستهلكها. بمجرد أن بلغت واخضرَّ شاربي رحلت.

لا أعرف أيهما ظهر أولاً، القرية أم مقابرها. العادة أن يستقر البشر في مكان وعندما يموت أحدهم تظهر الحاجة إلى مقبرة. على أطراف قرينتهم ينشئونها، وبمرور الوقت وتوافد الموتى تبعاً إليها تكبر، تتسع. من الممكن أن يزحف العمران فيصل إلى حدودها. أحياناً تتلاشى الحواجز بين الحياة والموت، فيلتحم العمران بالمقابر ويسكنها الأحياء ليأنسوا بالأموات.

في قرينتنا الوضع مختلف، وكان مقابرنا أنشئت أولاً ثم طوّقها العمران. تقع في منتصف قرينتنا كأنها حجر أساس أو مركز للطواف. شيدت أولاً وأتى الناس أفواجاً ليحجوا إليها. استأنسوا

أرواح أهلها المدفونين تحت التراب فقرروا البقاء. بنو قريتهم حولها
من كل جانب ليحمونها من تلصص الغرباء.

لا أحب زيارة المقابر. أكره ظلمتها والأساطير المنسوجة حولها.
كنت صغيراً عندما أيقظوني من النوم وسحبوني إلى هناك للمرة
الأولى. عمي ملفوف بقماش أبيض ومحمول على نعش فوق
أكتاف الرجال. الأيادي تتحسس جسده لُتخرجه من النعش، وهو
بلا حراك، حملوه وفي حفرة تحت الأرض ألقوه. استسلامه
أدهشني. لماذا لم يقاومهم؟ لم لم يلعن ويسب كعادته؟ نثروا فوق
جثمانه التراب ثم رحلنا.

عندما أوصلوا أُمي إلى هناك وددت لو رجعنا بها إلى البيت.
قلت لأبي: نرجع بيها البيت ونسيبها في أوضتها، مش
هيحصل حاجة. ليه نرميها في حفرة ونسيبها لوحدها ونمشي؟!
لم يرد. حملها هو وخالي وسط صراخ أختي وألقيامها.

ظللت أبكي وأنا أقف لأخذ العزاء مثلما أصر أبي. حشروني
وسط صف من رجال العائلة. تحتضن أيدينا عشرات الأيادي
الخشنة. يربتون على كتفي وبعضهم يعانقني. ينطقون بكلمات
بمجرد أن تُخرج من أفواههم تتبخر فلا أفهمها. أتمم وكأنني أرد
عليهم.

يومها رفضت الرحيل وقررت أن أقيم هناك إلى الأبد. قلت لأبي: هقعء جنبها هنا طول العمر. زجرني فأصريت على قراري. في النهاية رحلوا وتركونا. يوم بليلة وأنا جالس بجانبها أبكي. ألمح أبي من بعيد، كلما حركت عنقي باتجاهه توارى خلف شاهد قبر. في النهاية انهرت وغشيت. عندما صحت وءدت نفسي بالمنزل. البيت بلا أم مكان موحش. أبي مكسور لا يعرف ماذا يفعل مع بنتين بدأت أنوثتهما تتشكل وولد صعب المراس. لا أعرف ما إذا كان حزيناً لفراق أمي أم مستاء لرحيلها وتركه وحده يرعانا. وكني أبي أن أحل محل أمي في التواصل مع أم ليلي. في المساء أصعد لتلميبي الطلبات، وفي الصباح يحضرها أبي ويتركها أمام مدخل البيت لأسلمها لها.

أم ليلي تسلمت مقاليد البيت بعد أن قررت أن تتولى مهام أمي الراحلة، دون أن يطالبها أحد بذلك. بمجرد خروج أبي للعمل تهبط إلى شقتنا. تطبخ، تغسل، تحبز، تكنس. توزع بعض المهام المنزلية على أختي. تتابع دروسنا بالرغم من عدم إجادتها للقراءة والكتابة، كلمتها سيف على رقابنا لا يستطيع أحد منا كسره أو التملص منه. بمرور الوقت تقربت أختاي منها، أما أنا فكنت أرهبها مثل أبي.

أبي محفوظ لم يمانع تدخُّل أم ليلي في شؤون بيتنا، أو بالأحرى لم يستطع الرفض. فهي كالمخلص الذي أنقذه هو وبيته من

الضياع. مع ذلك ظل يرهبها ويتحاشى لقاءها، فبالرغم من وجودها شبه الدائم هي وابنتها في بيتنا لا أتذكر مشهدًا يجمعهما معًا.

تحضر بعد خروجه إلى العمل وتغادر قبل رجوعه، ثم تعود ثانية بعدما يؤذن للمغرب ويخرج أبي إلى المسجد. وضعُ غريب، منزل دوره العلوي تقيم به أرملة وابنتها، وفي الأسفل أرمل وعياله. عاد الأهل يلمحون بحتمية الزواج مرة أخرى، وأبي ودن من طين وودن من عجين، وهي الأخرى مثله.

- ربنا يباركك يا مرأة الغالي، جميلك فوق راسي أنا وعيالي ليوم الدين.

قالها أبي لأم ليلي.

لن أنسى ذلك اليوم مطلقًا، فللمرة الأولى أرى أبي فرحًا وابتسامته تكسو وجهه. يعانق كل من يقابله. يمشي وكأنه يقفز، حتى أنه أصر أن تتعشى أم ليلي معنا. حدث ذلك في اليوم اللاحق لعُرس أختي فُتنة ومنى.

بمجرد أن أنهيتا المدرسة الثانوية بدأ العرسان في الظهور. أم ليلي أنقذت أبي كعادتها وتولت المهمة. تحرت عن العريس المنتظر، ربّبت لقاءات التعارف في منزلها. يحضر العريس وأمه. تتركه مع أختي لدقائق وتجلس هي وأمه في الصالة مراقبةً لباب الغرفة المفتوح،

بعدها يغادر العريس تجلس أم ليلي مع أختي لتعرف رأيها. منى
خُطِبَتْ سريعًا من أول عريس طرق بابها، أما فُتنة فأرهقت زوجة
عمي كثيرًا أمام رفضها لأكثر من عريس، إلى أن أتى حامد
الأونطجي فخطف قلبها.

أبي مسؤول عن الأموال فقط، وأم ليلي مسؤولة عن كل شيء
عدا ذلك. الاتفاقات وتحديد المؤخر والشبكة وشراء العفش
وملابس العروس، وتجهيز المنزل والهدايا لأهل العريس.

أصر والدي أن يكون العرس مشتركًا. ما دامت خرجتا من
البطن ذاته في نفس التوقيت، فلتبدءا حياتهما الجديدة في لحظة
واحدة أيضًا. أيام مرهقة في الإعداد للعرس. مشاور لا تنتهي،
ظهري كاد أن ينكسر من كثرة الشيل والحط ونقل العفش إلى
شقتي العروسين. ما عوّض ذلك هو ضحكة والدي أثناء العشاء
مع أم ليلي وابنتها. عندما أتذكرها لا أعرف أهي ضحكة من
اطمأن على بنتيه أم من تخلص من مسؤولية أثقلت كاهله.

المنزل أصبح مهجورًا بعدما تزوجت البنتان ورحلتا. أبي أطل في
الغياب وأنا أيضًا، حتى أم ليلي لم تعد تحضر إلى منزلنا إلا نادرًا.
البنتان بمجرد حضورهما تصعدان إلى شقة عمي. نظام المنزل تغير
بعد رحيلهما. قبل أن أخرج إلى المدرسة أصعد لأعلى لتعطيني أم
ليلي إفطاري وصينية لأبي، بعدما أعود أقضي أغلب يومي في
شقتها، وبعد أن أتعشى أهبط بالصينية لأبي.

مدرسة في الصباح ومجموعات تقوية في الظهر، وساعات
طويلة في منزل عمي، وليل أفضيه وحدي في منزل فارغ نُزِعَت منه
الحياة. مللتُ ففكرت تعجيل غربتي.
ودَّعْتهم واستقلَّيت القطار ورحلت إلى العاصمة.

(2)

- حبسوا الحية مع المنوفي في كيس.. طلعت الحية من المنوفي تستغيث.

قالها فاشتبكنا. لم يخلصه من يدي إلا رفقاًؤنا في السكن.

غرفة واسعة أشبه بعنابر السجناء، أرضيتها مكسوّة بالبلاط الموزايكو، بها ستة أسرة، كل منها بدورين ويقابلها اثنتا عشرة منضدة وكرسيًا، ودولاب ذو اثنتا عشرة ضلفة يغطي الحائط بأكمله. اثني عشر طالبًا من سبع محافظات مختلفة، أغلبهم يزور العاصمة للمرة الأولى. لكل منهم لكنته وطريقة نطقه الخاصة ورأيه المسبق عن السكن المشترك.

ما يجمعنا هو رهبة الخروج الأول من قُرانا إلى العاصمة، ورغبة التأقلم والاندماج.

الرهبة والرغبة أنهما مشادتنا قبل أن تتحول إلى عراقك. قال أحدهم بعد أن فرّق بيننا: يا عم متزعّش نفسك كده، قوله "ميه مالحة ووشوش كالحة".

فرد عليه الإسكندراني ضاحكًا: ما أزفت من زفتي إلا ميت غمر.

رغبتي في تعجيل الغربة دائمًا ما اصطدمت بحاجز السكن. أين سأعيش في العاصمة فترة دراستي؟ تكاليف الإقامة غالية كما

سمعت من بلدياتي المغتربين: صحاب الشقق دول كفرة، بيأجروها بالسريير، دينهم الفلوس ولاد الكلب.

كثيراً ما كرروا ذلك على مسامعي فتوجست.

عندما أتذكر تلك الأيام أتعجب من قلقي غير المبرر. فأبي لم يكن فقيراً أو بخيلاً. كان سيدفع إيجار سريري عن طيب خاطر. فقبل أن أرحل، وبعد أن أوصاني بالذاكرة والحفاظ على ديني والالتزام بسنة الحبيب المصطفى، سألتني عن مصاريف الجامعة والكتب وأسعار ما أحججه من ملابس جديدة. قلت له لا أعرف بالضبط، المبلغ تقريباً كذا، فأعطاني ضعفه.

رغبنا في التأقلم تغلبت على اختلاف طباعنا. تحملنا زكريا الذي لا يخلو له المذاكرة إلا بعد منتصف الليل منيراً أضواء العنبر. مرة نطفئ الأنوار ونحاول النوم ثانية، ومرة نطرده ليكمل مذاكرته مرفصاً بجانب عمود نور في المسطح الأخضر المواجه للمبنى.

تحملنا أمين الصعيدي ذا الرأس الصلب وطريقته العجيبة في المذاكرة، مريباً رجله كطالب كتاتيب يرفع الكتاب أمام عينيه ورأسه يتأرجح إلى الأمام والخلف بلا هوادة، ولسانه لا يتعب من ترديد ما يقرأه فيفسد قيلولتنا. "اقرأ في شرك يا أبو عمو"، يقوفا ثروت بلدياته بعدما يشعر أن صبرنا قد نفذ، فيخفض أمين صوته لدقائق ثم ترجع ربما لعادتها ثانية.

ما فشل فيه أي نجاح في تحقيقه سكان العنبر. التزمتُ بصلاة
الفجر.

صوت كركبة شاكر والشيخ أحمد استعدادًا للنزول إلى المسجد
فجرًا كان يوقظني. بعد أن يغادرا العنبر أحاول معاودة النوم، مرة
أنجح في محايلته فيأتي، ومرات يعاندني فأقوم بعدما أملّ من
المحاولات مُتَعَكِّرًا. في إحدى الليالي نهضت ولم أحاول.

ربما قلبي المنقبض في بواكير الغربة قد حنَّ إلى ذكريات الطفولة،
أيام كان أبي يصطحبني معه لأصلي الفجر. دلفت إلى حمام الدور
لأتوضأ، فدهشت من نظافته التي لا أعتادها. فأنا معتاد على
قذارته ورائحته النتنة، التي تجعلني أفكر مائة مرة قبل أن أغامر
وأدخله لأقضي حاجتي. عرفت أن العمال ينظفونه مرة واحدة في
اليوم قبل صلاة الفجر، بعدها ينصرفون ليبدووا في مسح ممرات
الأدوار، ثم يتركون المبنى في السابعة صباحًا لجمع القمامة وكس
شوارع المدينة الجامعية. منذ ذلك اليوم ولأربع سنوات قادمة سألتزم
بصلاة الفجر.

بعد أسابيع من التحاقني بالجامعة أصبحت قادرًا على تحديد
موطن كل طالب أقابله، حتى ولو كان لقاءنا عابرًا بلا كلمات.
التصنيفات محددة، قِلَّة أتوا من الصعيد، وضعف عددهم من
الريفين، وأغلبية من مناطق القاهرة الشعبية وضواحيها، ومجموعات

صغيرة متناثرة من الطبقة الراقية. الجغرافيا واضحة، أو كما يقول زميلي الإسكندراني اللقيم: الدم يبحن.

الفلاحون إما في الصفوف الأولى بقاعة المحاضرات أو على سلالم المدرج منتظرين دخول السيكشن، ووقت راحتهم يقضونه في المسجد. والصعايدة تلمحهم بالكاد، يحضرون المحاضرات المهمة فقط ثم ينصرفون على عجل للحاق بأعمالهم في العاصمة، أما أولاد الذوات فتعرفهم من زجاجات المياه المعدنية التي لا تفارق أياديهم، تجدهم مبعثرين في مجموعات صغيرة، بعضها يجلس في الكافيتريات المواجهة لكلية تجارة إنجليزي والبعض الآخر يتجول في محيط كليه الألسن. وإخواننا المسيحيون من مختلف الفُرى القبلية والبحرية قد اندمجوا مع سكان العاصمة من أبناء ملتهم، وآخر انسجام تحت المظلة الواسعة أمام مدرج 9.

سكان الضواحي ومناطق القاهرة الشعبية هم المسيطرون الفعليون على الحرم الجامعي، لأنهم أغلبية. كغُزاة منتصرين تراهم يذرعون شوارع الجامعة طولاً وعرضاً. يمشون في جماعات كبيرة مختلطة، ودودون مع الجميع وغير متكلفين. لا تراهم مطلقاً داخل القاعات إلا في المحاضرات النهائية قُبيل الامتحانات.

لكل قاعدة استثناء. فلم أجلس في الصفوف الأولى محشوراً بين بلدياتي؛ ربنا عرفوه بالعقل، فمجموعي المتوسط في الثانوية العامة ومملي السريع من المذاكرة لا يؤهلاني لأصبح من أوائل الطلاب؛

اكتفيت بحضور المحاضرات العملية، والملازم تعني عن حضور محاضرات النظري، قررت أن أعمل أثناء فترة دراستي. رحلة البحث عن عمل لم تطل، فقط بضع مكالمات مع بلدياتي المستقرين وبدأت العمل.

الأخرق هو أول من عملت معه. فبمجرد أن وطأت قدماي الجامعة بحثت عنه، فبسبب نصيحة أخيه الطائش عجلت غربتي. لم أعر عليه في الجامعة أو في مدينة الطلبة التي أخبرني أخوه بأنه يسكنها. اتصلت به في الأخير وعندما تقابلنا أصر أن يأخذني في جولة سريعة في القاهرة ويعزمني على الغداء.

أوتوبيس فميكروباص ثم توكتوك حشرنا فيه ورشاح عبرناه حتى وصلنا. حوَارٍ ضيقة مليئة بالبرك الموحلة بالرغم من أننا في الصيف، يسميها الأخرق شوارع، عمارات عالية على الطوب الأحمر أغلبها، وبعضها ممحَّر غير مطلي، الروائح النتنة تفوح فلا تعرف أهى رائحة أكوام القمامة أم الطرنشات التي لا تكسح على الأغلب.

يسميها الأخرق مدينة وأنا أراها منطقة بين بين. فلا تقابل في حواريتها صفوف المواشي العائدة من الغيطان إلى الزرائب أو تكسو الخضرة بعض أراضيها فتصنّفها كقرية، ولم يمسه شذرة من تصميم عمراي تشذبها قليلاً فتصبح مدينة. ألقى الأخرق محاضرتي على القروي الساذج النادم على غداء المدينة الجامعية الذي تركه وراءه ليرى الخراء:

- بص يا كمال.. العاصمة دواير، على أطراف كل دايرة
متمدنة تظهر أخرى عشوائية تحاوطها من كل جانب. زي
كده الزمالك وبولاق، المهندسين وميت عقبة، مدينة نصر
وعزبة الهجانة، جسر السويس والعرب.
- مصطفى.

نداء عالٍ خرج من مدخل عمارة بالجوار، قطع محاضرة الأخرق
لي عن جغرافيا القاهرة، تركني وذهب للمنادي، فارتحت. غاب فترة
ثم ناداني: خش يا كمال. دخلت فرأيت الحوش ممتلئًا عن آخره
بالأثاث.

- عزال ابن عم الحاج، باركله يا كمال ومد إيدك معايا.
قالها الأخرق فوددت أن ألكمه وأرحل. ساعتان من الصعود
والهبوط بظهر منثنٍ محمل بعزال ابن عم الحاج، إلى أن انتهينا. بارك
الأخرق للحاج مرة أخرى، وأنا أود أن أضربه هو وحاجه والعريس
والعروس.

- 75 جنيه في ساعتين زمن. أي خدمة يا عم كمال.
قالها فور ما خرجنا إلى الشارع، ودسّ المبلغ في جيب قميصي.
غضبي المكتوم الذي كان ينتظر خروجنا من حوش البيت لينفجر
تحوّل إلى نوبة ضحك، كدت أن أسقط من شدتها على الأرض.
- شكرًا يا معالي السفير المنتظر.

قلتها للأخرق مستهزئًا، فضحك.

وليمة الفراح المشوية والكفتة والسلطات التي ملأت ورقة
الجرنال المفروشة على الأرض، أنستني الوخز والوجع اللذين يطرقان
كتفّي وعنقي. بعدما افترسنا الأكل بدأ زملاؤه بالسكن في العودة
من أعمالهم.

الأخرق اسمه مصطفى، حضر إلى القاهرة قبلي بسنتين. رسوبه
في سنته الجامعية الأولى كلفه الخروج من المدينة الجامعية، فهذه
قوانينها. طبعًا لم يخبر أهله بالرسوب أو بطرده من المدينة.

- المدينة مكانتش وحشة بصراحة؛ سكن وأكل ببلاش، بس
النصيب. قدّر الله وما شاء. أنجح بس السنة دي وأرجع
المدينة تاني.

حلّفتني بألا أبوح بالسر لأخيه الطائش أو لأي مخلوق في قريتنا.
طالب حقوق ونقاش ونجّار وكهربائي ومحاسب، هم شركاء الأخرق
في السكن، أو "شقة العُزاب" مثلما يسمونها. جميعهم من محافظتنا
ولكن من قرى مختلفة. توالى أدوار الشاي والدردشة إلى أن حلّ
الليل، فانصرفت، وأصر صديقي الجديد أن يوصلني حتى باب
المدينة الجامعية.

- تفتيش.

صاح بها طالب وهو يطرق على باب عنبرنا، ورحل ليكمل مهمته.

كنا على وشك النوم. نهضنا من الأسيرة. دُرنا حولها وكأننا نبحث عن شيء خفي لُنخبئه. خوف بلا معنى انتهى عندما حضر مشرف الدور ومعه اثنان من الموظفين. فَحَصُّوا الكارنيهات وطابقوا الصور بالوجوه. صادروا السخان الكهربائي الخاص بزكريا ورحلوا.

- السخانات ممنوعة في الغرف، مفيش عمايل أكل هنا، الأكل في المطعم، ممنوع حد غريب ييات معاكو في الأوضة.

فرحنا بمصادرة السخان، فزكريا يصنع عليه قهوته كل ليلة ويؤرقنا معه بسهره للفجر، وأضواء العنبر التي يصر على تشغيلها ليذاكر.

- فذاك السخان يا عم، نجيبك غيره عشان تقرفنا، بس لو مطلعتش من الأوائل بعد السهر ده كله هنعلقك من رجليك ونعبطك.

قالها زميلي الإسكندراني كدعابة، بعدما لاحظ الحزن المرتسم على وجه زكريا. أغلبنا كان مُصِرًّا أن يعبط زكريا بالفعل. لكننا لم نفعلها، فقد صار الأول على الدفعة لأربع سنوات متتالية.

عملت مع سكان شقة العُزاب مساعداً على الدوام، فلم أملك خبرة سابقة في أي عمل من قبل. ساعدت في تركيب الأبواب والشبائيك، مسكت الفارة وقطعت بالمنشار، دهنت الأسقف وخلطت الألوان، كسرت الحوائط ومددت الخراطيم وسحبت فيها الأسلاك. لم أصبح محترفاً في أي مهنة، ولكني رأيت العاصمة عن قُرب.

شاهدتُ القاهرة التي سمعت عنها ورأيتها في الأفلام. عاصمة متحصّرة لا تمت لها منطقةٌ ما بعد الرشاح بصيلة، شوارعها عريضة، مُرَبَّنة بالأشجار والورود، عملت في مدن صغيرة داخل العاصمة، محاطة بالأسوار العالية، الدخول إليها أشبه بعبور الحدود. بوابات تُصَفِّر ورجال أمن وتفتيش وأسئلة طويلة وبطاقة شخصية تُفحص، وفي النهاية قد لا تمر إلى الداخل.

كسب الأموال لم يكن دافعي للعمل، فلا أحتاجها، فما أعطاه لي أبي قبل بداية الدراسة لم أمسه. الوجبات الثلاث في المدينة الجامعية تكفي، والشاي أصنعه على سخان زكريا في العنبر.

ربما لم أنسجم في الجامعة، فانسحبت إلى بلدياتي في شقة العزاب. قد يكون عملي معهم مجرد حجة لأبقى وسطهم وأشعر بالأمان.

لم أكن من هواة كَنز الأموال، ولكن بعدما لاحظ الأخرق انتفاخ جيوبي نصحني بأن أفتح حساب توفير في البريد.

قال: ماشي بفلوسك كلها في جيوبك يا أهبل! روح اعمل
دفتر في البوستة، حطهم فيه بدل ما يلطشهم من جييك حرامي ولا
حد يقلّبك في المدينة الجامعية.

(3)

في آخر قرينتنا قطار يمر ولا يتوقف.

حكوا لنا أن القرية كانت قديماً محطة يقصدها سكان المحافظة ليستقلوه. مبنى مُهْدَمٌ موازٍ لشريط القطار تبقي ذكرى. مكان مهجور يصلح بظلمته وهدوئه مسرحاً لجرائم القتل. لا أحد قُتِلَ هناك على الأرجح. أعتقد أن أغلب أهل قرينتنا يمتلك ذكرى تجمعهم بالمكان. فالمحطة المهجورة هي معقل التجارب الأولى والذكريات.

عُدت إلى البلدة بعد مكالمة أبي. قال لي بفرح: فتنة أختك خَلِّفت. أقاموا السبوع ونحروا نعجة. ورَّعنا الفيشار والسوداني على أطفال الجيران، وأعددت امرأة عمي أم ليلي أرغفة اللحم وعلب الأرز باللبن، وأرسلتني لأوزعها على المصلين في مسجد سيدي أمير الجيوش.

ألحوا عليّ بالبقاء. قال أبي: فاضلك أسبوعين على الامتحانات؛ اقعد ذاكر هنا بدال دوشة مدينة الطلبة.

أصبحتُ أتحرَّج المكوث في منزل عمي، فليلي كبرت وإن لم ألاحظ، أول ما فتحت الباب ورأيتي جرت إلى غرفتها، ولم تظهر إلا بعد أن غطت شعرها بطرحة. بمجرد أن أتناول الغداء معهما أتعلل بأبي حجة وأرحل. الملل دفعني لأتصل بزملاء المدرسة الثانوية وألقاهم.

أصدقائي ينتظرون الحكايات وأنا لا أمتلكها للأسف. حاولت أن أرتجل. اختلقت المغامرات مع بنات مصر لأرضيهم. ريفي حدوده مدينة طلبة كلها ذكور، وجامعة لا يقربها إلا نادراً، وشقة قرويين تطل على رشاح، يحكي لمراهقين عن مغامراته في مصر فينبهرون.

كان اللقاء مُدبِّراً، صديقي الطائش سيقابل حبيبته عند شريط القطار، يريدني أن أذهب معه، فالبتت معها ابنة خالتها، ووجودي ضروري. تقابلنا ومشينا حتى آخر القرية، الطائش أخذ حبيبته وبعدا وتركاني مع البنت. أنا وهي وشريط قطار ومحطة هُجرت منذ زمن. أحكي فتضحك منبهرة بقصصي عن العاصمة، التي أحسنت تأليفها. تجرأت وحضنت يدها بأصابعي، أطلت فلم تمنع. تشجعت وطوّقتها، وقبل أن أهبط بفمي على شفيتها هبطت يدها على خدي كالمطرقة، صفعيني وجرت.

حكى الطائش كل شيء كعادته، فتحولت حادثة شريط القطار إلى نادرة تلوكها ألسنة شباب القرية.

- كمال عايز بيوس البت من أول مرة، ده فالتينو بذات نفسه معملهاش!

خفت أن تصل الحكاية إلى أبي وأختي. ارتعبت من أن تعرف أم ليلي فتخلع حذاءها وتضربني كأيام زمان. انقطع في بيتنا أسبوعين، شغلت نفسي فيهما بالذاكرة إلى أن غادرت.

أغلقتُ المدينة الجامعية أبوابها بعد نهاية الامتحانات، فانتقلت إلى شقة العُزاب. لم أُرِد أن أعود إلى قريتنا، تحججت لأبي بأني ملتزم بعمل مع جماعة بلدياتي، فتفهم الأمر ولم يُلح عليّ بالعودة. في تلك الفترة كان أغلب عملنا منحصراً في المناطق العشوائية بالضواحي. قاع القاهرة الذي يقبض القلب، بشوارعه الضيقة التي سُفلت بالوحل وُرِيَّت جوانبها بالقمامة. عندما أخبرت الأخرق بضيقِي من المكان، رد بضيق:

- كُله شغل، اشتغلت في فيلا، اشتغلت في زريبة، المصنعية واحدة. ده حتى الناس هنا كُرمنا ويغدُونَا.

لا أعرف سبباً لانقباض قلبي في تلك الأيام، ربما حادثة شريط القطار هي السبب، أو أن فترة الراحة التي طالت أثرت على جسدي، فأصبح رخوًا لا يحتمل العمل الشاق. في نهاية اليوم أيقنت أنني أنْهكت تمامًا ولم أعد أحتمل، فالوخز يضرب في شتى أنحاء جسدي وكأنه يمزقها. تركت العمل مع بلدياتي، ولكن علاقتي بشقة العزاب لم تنقطع.

- مُخْبِر.

قالها مفتش الدور عندما سألناه عن مصير السرير الفارغ.

التسكين في المدينة الجامعية له قواعده الراسخة، ولكن ببعض الخدمات البسيطة والعلاقات الطيبة مع الموظفين ومشرقي الدور، وبعض من الفطير المشلتت والعسل وأدكرة البط، من الممكن تجاوزها، وهذا ما حدث.

في بداية سنتي الجامعية الثانية انتقلت إلى الغرفة الجديدة، أو عنبر المنايفة كما يسميه زملائي. عنبر صغير بأربعة أسرة بدورين وسبعة طلبة من نفس المحافظة، وسرير فارغ ينتظر ثامننا، الذي أتى بعد شهر من بدء الدراسة.

ابن قرية مثلنا، ظلمه من رسم الخرائط، فوضع قريته داخل حدود العاصمة. قوانين المدينة الجامعية رفضت قبوله، فأنصفه أمن الجامعة. أمروا بتسكينه تماشياً مع روح القانون.

بعد أن أمضى سنته الأولى في العمل معهم وأثبت جدارته كافؤوه بسرير وثلاث وجبات يومية بالبحان. أول ما استوطن عنبرنا بتجنّبنا، كنا حذرين في الحديث أمامه. ما بيننا سلام وكل منا في حاله. بعد فترة أحضر المخبر الفطير والعسل وأصر أن نشاركه الطعام، لا أدري لماذا فعل ذلك، ربما ارتاح لنا، قد يكون ملّ وحدته، فهو في النهاية ابن قرية مثلنا يهرب العاصمة.

بعد أن تناولنا الطعام معاً انطلق المخبر في الحديث، قال بصوت هامس: دي تقارير فارغة بكتبها عن النشاط الطلابي في

الحرم الجامعي. والعيش والملح اللي ما بيننا، مش بكتب تقارير في زمائلي في السكن. أنا هنا باكل وأنام وبس.

حكى لنا عن سنته الأولى في الجامعة، والمشوار الذي هدَّ حيله وبدَّد نقوده القليلة.

- كل يوم 7 جنيه مواصلات، و3 ساعات رايح وزيهم وأنا مروح. بوصل البلد بعد العشا.

حدَّثنا عن موظف الأمن الذي أوقفه وذهب به إلى ضابط الحرس الجامعي. أخبرنا عن سرواله الذي ابتلَّ وهو جالس في مواجهة الضابط. بمجرد أن قدَّم الضابط عرضه قِبَل، فلا مفر. أصبح يكتب التقارير، ويسلمها إلى المختص في اجتماعهم الأسبوعي في لاطوغلي.

بعد أشهر أخبره المختص بالمكافأة وهو يسلمه مبلغ الإعانة الشهرية.

- من السنة الجديدة هتقعد في المدينة الجامعية بدال مرمطة المواصلات.

الأخرق الذي عاد إلى مدينة الطلاب بعد نجاحه كان أكثرنا نفورًا من المخبر، فبمجرد أن يحضر الأخير يصبح الأخرق كالأخرس، في إحدى المرات لم ينتبه لقدم المخبر، وأكمل حكايته المثيرة عن سهرة الكازينو وما فعله مع إحدى العاملات هناك. بعد

أن أنهى حديثه اكتشف وجود المخبر؛ تجهم وجهه وصمت، بعد ساعة تحدث فجأة موجهاً حديثه إلى المخبر:

- اوعى تكتبها في التقرير يا بلدنا أحسن أروح ورا الشمس.
ضحكنا وضحك المخبر، ولكن الأخرق بقي متعكراً.

بعدما تركت العمل عاودت الانتظام في الحضور إلى الجامعة.
كان تقديري خاطئاً، هذا ما عرفته لاحقاً بعدما انحسرت
وسط بلدياتي في المدرج. اكتشفت أنهم ليسوا بالملمين سُذج أتوا إلى
الجامعة ليطاردوا أحلاماً مستحيلة التحقق. المتفوقون فقط جالسون
للتعلم، وعلى الأرجح سيتحقق حلمهم، وسيأتي اليوم الذي يقفون
فيه في مواجهة الطلاب كمحاضرين جدد. فأغلب أساتذة الجامعة
أبناء قرى مثلنا.

أما بقية بلدياتي المحشورين في الصفوف الأولى، فهذا عملهم لا
أكثر. عرفت ذلك أثناء بحثي عن عمل جديد. انحسرت وسطهم
وعملت معهم في كتابة المحاضرات وبيعها للمكتبات. عمل بسيط
كل ما يحتاجه السرعة في التدوين.

- لو الدكتور عطس أكتب الدكتور عطس.

قالها صاحب المكتبة في لقائنا الأول، والتزمتُ بما قاله.
أصبحت أقضي أغلب النهار متنقلاً بين المدرجات والسكاشن

لأدوّن المحاضرات. وفي أوقات الراحة أتسكّع في طرقات الجامعة. العمل الجديد لم يرهقني مثل العمل مع سكان شقة العُزّاب، وأجري منه يفوق ما كنت أتقاضاه في السابق.

تحوّلت لفترة مع العشوائيين ودخّنا السجائر، جلست معهم على الأرصفة وسالمت المدرجات، شاركتهم النكات والضحكات الصاخبة، ارتديت مثلهم البنطلونات الجينز الضيقة والتيشيرتات الرياضية المقلّدة.

أحياناً كنت أشتري زجاجة مياه معدنية وأتمشّي في طرقات كلية الألسن، أو أجلس لأتناول الكابتشينو في كافيتريا تجارة إنجليزي. في النهاية لم أنسجم، وأيقنت أن الجامعة بالنسبة لي مكان للعمل ليس أكثر.

في التيرم الثاني من هذا العام تركت الصفوف الأولى بلا رجعة بعدما فشلت في التأقلم. ودّعت الجامعة بمدرجاتها الواسعة الكئيبة، بفلاحيها ذوي الابتسامة البلهاء، وصعايدها المشغولين على الدوام، بعشوائيين ذوي النكات البذيئة وأولاد ذواتها المتأففين من الجميع.

عمل جديد خارج أسوار الجامعة. كنت أول المستخدمين في المكتبة الجديدة التي فتحت أبوابها مع بداية الفصل الدراسي الثاني. ساعدت صاحبها في التأسيس. أحضرت له بلدياتي محترفي تدوين المحاضرات وبعضاً من حديثي التخرج الموهوبين. الطلبة مسؤولون

عن كتابة المحاضرات والسكاشن، والخريجون الجدد مهمتهم إعداد ملازم الشرح والمراجعات النهائية.

تركت كتابة المحاضرات واشتغلت بالبيع والتصوير. كنت أعمل بالوردية الصباحية، أفتح أبواب المكتبة في الثامنة صباحًا، وأبدأ في استلام محاضرات اليوم السابق من بلدياتي. أصورها وأستعد لقدم الطلبة لأبدأ في البيع. في الخامسة ينتهي دوامي، أسلم العمل لزميلي الذي يتولَّى الوردية المسائية وأغادر إلى مدينة الطلبة.

في المكتبة تعاملت مع أبناء العاصمة بكل صنوفهم عن قُرب، ربما للمرة الأولى. أقدم النصائح للطلبة الجدد، يسألني الجميع وإجاباتي دائمًا جاهزة. أصبح لي معارف من أبناء القاهرة. معارف سطحية أو كما يقولون طيَّاري، ولكنني سعدت بها على أي حال.

في المكتبة تجاذبت أطراف الحديث مع أولاد الذوات أصحاب زجاجات المياه المعدنية. اكتشفت أنهم يُطلقون النكات البذيئة فيما بينهم كالعشوائيين تمامًا. أغلبهم ودودون على عكس ما كنت أتصور. بمجرد أن يقابلني أحدهم مرة أو مرتين على الأكثر يعاملني كصديق وسلامه يصبح عناقًا. يتبادل معي الجميع أرقام التليفونات، وهم أيضًا من يبادرون بالاتصال ليسألوني عن ملزمة مراجعة أو لأرشح لهم معيِّدًا جيدًا يعطي الدروس الخصوصية في الخفاء.

قابلت الصعايدة في المكتبة أكثر ما قابلتهم في الجامعة. وجوههم المتجهمة على الدوام تخفي خلفها خفة دم، عندما

يبدوون في الهذر والمزاح فيما بينهم لا أتمالك نفسي، أظل أضحك وأقهقه إلى أن يحمر وجهي ويتمسكني السعال. أحببتهم وصرنا أصدقاء.

المشكلات التي يفتعلها الأخرق أرهقت كل من في العنبر، وللأسف فشلنا جميعاً في حلها. هو متأكد بأن المخبر يكتب فيه التقارير سرّاً و"يهوديه ورا الشمس". نقنعه بأن أمن الدولة لا تهتم بأخرق مثله، لا يفعل شيئاً سوى اختلاس النظر إلى أرداف بنات القاهرة، فلا يقننع ويختلق المشكلات من جديد.

- المخبر بيراقبني يا جدعان، كل ما أروح حته ألاقيه ورايا، في العنبر ورايا، في المطعم ورايا، في الجامع ورايا، حتى في الحمام بلاقيه ورايا.

نقول له: يا ابني كلنا بناكل وبنصلي وبنام وبنشخ في نفس الوقت.

مرة تعارك معه بحجة أنه وضع الكتب على منضدته بالخطأ، ومرة أخرى لاختفاء كوبه الزجاجي، ومرة يقول: المخبر فُتّش في هدومي وأنا برة. استمر الأخرق في افعال المشكلات، حتى وقعت حادثة الستارة، فتغيّر الوضع تماماً.

الأخرق أيقظنا جميعاً في منتصف الليل، وهو يهمس في آذاننا بالتزام الصمت، أشار إلى سرير المخبر فلم نفهم.

- بيّعت التقارير دلوقتي وإحنا نايمين، ابن الكلب عامل ستارة على سريره عشان يداري بيها نفسه، بس على مين! قالها الأخرق، فدققنا النظر، وجدنا أن المخبر وضع أطراف البطانية على السرير العلوي وأسدها إلى الأسفل لتخفي سريره تمامًا. لمنا ضوءًا أبيض يتراقص خلف الستارة، الحاجز الذي صنعه يهتز بين الحين والآخر، مما يؤكد أنه مستيقظ ويعدل وضعيته الستارة كي لا يراه أحد. كلّفنا أحدنا بإضاءة أنوار العنبر، وفي اللحظة ذاتها أزلنا الستارة.

المخبر في وضع لا يُجسّد عليه، ونحن أيضًا. عيناه تبحلقان في صورة عارية بسطها على صدره. جسمه يرتعش ووسطه آخذ في الصعود والهبوط بشكل ميكانيكي متوازيًا مع حركة يده القابضة على عضوه المنتصب، يده الأخرى مضمومة على كشاف ينير به محرابه. كان في لحظته الأخيرة قبل أن ينتهي، ونحن من أفسدها. فكّ يده القابضة وسكن، لكن قبل أن يخفي المنتصب بين فخذه قذف ماءه.

تراجعنا إلى أسرتنا وهو يلف جسده بالبطانية كعروس فُصّت بكارتها للتو. أطفأ الأخرق الأنوار وعمّ السكون. صمتٌ لم يقطعه إلا قول الأخرق: إحنا آسفين يا صلاح. أعقبها بضحكة لم يتفاعل معها أحد منا.

في اليوم التالي كان لا بد من عقد قعدة عرب، كما قال زملائي. في البدء تأسّفنا للمخبر عما حدث بالأمس، وأخبرناه بالحكاية. الخجل تلاشى مع الوقت، وخصوصاً بعدما قال له أحدنا: يا عم طب خش الحمام، محبكتش في العنبر. فرد المخبر: بخاف أخش الحمام بالليل؛ الدور بيبقى ضلّمة كحل.

ضحكنا وزاد ضحكنا بعدما تحدّث الأخرق، ليحاول أن يصلح ما أفسده: يا بلدنا ولا يهملك، هي طلبت معاك بالليل هتعمل إيه يعني! بعدها وجّه حديثه إلينا: يا رجاله فيه ناس كتير زي أخونا مبيعرفوش يجيبوهم في الحمام أبداً ولو عملوا إيه، وهما واقفين مستحيل، لازم يبقوا فاردين جسمهم عشان يخلصوا.

كالعادة لم يُعقّب أحد على ما قاله الأخرق، وانتهت القعدة بسلام.

ما استفدناه من حادثة الستارة هو انتهاء العراك بينهما بلا رجعة، بعدما توقف الأخرق عن افتعال المشكلات مع المخبر.

- أنا خلاص مسكت عليه زلة، لو كتب فيّ تقرير هفضحه.

قالها بلهجه الواثق، فكتمنا ضحكنا.

أعرف أن ما قام به المخبر يفعله جميع من في العنبر. أما أنا فطوال إقامتي في مدينة الطلبة لم أفعل ذلك قط في سريري. ربما لم

أمتلك الجراءة مثلهم لأداعب نفسي وسط سبعة رجال آخرين. ربما أكره أن يشاركني أحد في لحظاتي الخاصة، فقد يفسد تلصصهم ذروتي. في النهاية أعتقد أنني لا أستطيع فعلها وأنا مُراقب.

جميعنا يشعر بما يحدث في أسرة العنبر ليلاً ولا يُعلّق. كم من زفرة انفلتت فكشفت صاحبها! أنفاس تعلق فجأة وصرير سرير يتبعه سكون، وصوت اصطدام قدم متشنجة بعمود سرير! لكن لا أحد منا يريد أن ينكشف السر الصغير فيزعج صاحبه.

بالأساس فكرة عمل البطانية كستارة ليست من اختراع المخبر، ولكنها تقليد توارثته الأجيال في مدينة الطلبة للحفاظ على خصوصية تلك اللحظات السرية. قد يكون أحد الطلبة في الماضي قد ملّ من قلبه في سريره لساعات دون جدوى، ففكر في إسدال البطانية طمعاً في لحظة ذروة تنهي أرقه لينام.

لا أعرف أهو تفرغ لطاقة الشباب الفائرة أم ماذا. ربما لحظات المتعة تقلل من توتر من ترك أهله ونزح إلى العاصمة وحيداً، ربما تنهي رهبة من فشل في التأقلم وانسحب إلى داخله مكتفياً بأحلام يقظته. قد يكون الاختلاط الذي لم نألفه بعد هو السبب، فمدارس قُرانا كانت خالية من الإناث، وعندما أتينا إلى الجامعة وجاورناهن في المدرجات انبعثت في أدمغتنا الخيالات، فتحركت مكامن الرغبة في أجسادنا.

حتى أنا طاردتني صورهن في الأحلام. فأول أنثى قابلتها في الجامعة حلمت بها لأيام. كان ذلك في المحاضرة، جلست بجانبني وبدأت بالكلام. سألتني وكالعادة تلعثمتُ، أجبته بصعوبة وتبادلنا الحديث. وجدتُ نفسي بعد دقائق أتججج لها بجحجج فارغة وأغادر المحاضرة. قضيت يومي كالمسحور إلى أن جاء الليل ونمت.

في الحلم كنت أكثر جرأة وهي أقل تحرراً، هي خجولة وأنا فحل. لم أمهلها حتى أن تخلع ملابسها، مزقتها ولم أرحم. كانت تصرخ وأنا أعوى. عندما استيقظت كنت غارقاً في عرقي، تحسست بنطالي فوجدته مُبتلاً.

ربما المخبر وبقية زملائي كانوا أكثر جرأة مني، فلم ينتظروا حلماً قد لا يأتي. بادروا بصنع مشهدهم مثلما أرادوا، اختاروا من بين بنات الجامعة من تروقهم، حددوا المكان والزمان، ألّفوا الحوار ورسوموا الأوضاع ونفّذوها إلى أن نُهكوا. أيشعرون بالتقزز بعد أن ينهوا فعلتهم أم لا يباليوا؟ لا أعرف، فلم أجرؤ على سؤالهم. أنتقم من بنات العاصمة؟ أنعاقبهن على عدم التفاتهن لنا، أم لفشلنا في التقارب معهن؟

الأيام تمر وأنا على حالي لا أتغير، العمل في المكتبة صباحاً ثم المكوث في المدينة الجامعية حتى النوم. أحياناً أصحب الأخرق والمخبر ونتجول في الأروقة المجاورة. يدفعني الحنين بين الحين والآخر إلى شقة العُزاب فأقضي سهرتي معهم. زيارتي إلى قريتنا قليلة، لا

تحدث في الغالب إلا بعد اتصال أبي أكثر من مرة وإلحاحه بأن
أحضر.

لا أعرف لماذا تركت قريتي واستعجلت الغربة!

لا أفهم كيف لم أتأقلم بعد كل تلك الفترة!

الرغبة من المدينة الواسعة تملكتني منذ اليوم الأول، وإلى الآن لم
تنته. أهرب منها وأختبئ وسط بلدياتي في مدينة الطلبة وشقة
العُزاب، ولكن بلا جدوى. أعتقد بأنني لم أقع في غرام العاصمة،
وهي الأخرى تريد لفظي.

(4)

بعد حادثة شريط القطار قاطعتُ شِلة الطائش نهائياً،
وأصبحت أمضي معظم وقتي في القرية مع الأخرق ورفقائه. شلة
أغلبها من العاملين في العاصمة، يأتون إلى القرية في الإجازات.
أنا والأخرق أصبحنا لا نفترق منذ مقابلتنا الأولى. معاً في
مدينة الطلبة وفي شقة العُزاب وعندما نعود إلى قريتنا لا أجد غيره
لأقضي معه سهراي.

أبي على حاله لم يتغير، هادئ وقليل الكلام، نادراً ما أراه في
المنزل في غير أوقات النوم. يومه مقسم بين العمل والصلاة في
مسجد أمير الجيوش وسهرات الغيط مع أصدقائه. ولكن عندما
تحضر أختاي وأطفالهما يتغير كل شيء. المأتم يتحول إلى عرس،
فيمكث أبي ولا يبرح مكانه مهما طال وقت زيارتهم. تنبعث في
البيت حياة لم ألفها من قبل. أختاي وأم ليلى في المطبخ تجهزن
الطعام. وليلى الصغيرة تلاحق الأطفال الذين يتحركون من حولنا،
منهم من يحبو وهناك من يستند على الكراسي ليتعلم المشي. صراخ
وبكاء وضحكات، أمهات منشغلات بالطبخ وبطلبات أطفالهن
التي لا تنتهي. نكات يطلقها حامد زوج أختي فُتنة فيتفاعل معها
أبي ويضحك على غير عادته. وحكايات محمود زوج أختي منى عن
الصحابة والصالحين التي أنصت لها على غير طبيعتي.

- عروسة كمال.

أتذكر أنني سمعتها للمرة الأولى في عزومة الخميس الأسبوعية، بالتحديد الخميس الأخير قبل مغادرتي القرية لألتحق بالجامعة. قالتها أختي فُتنة لليلى ابنة عمي دون مناسبة. لم أندهِش من ضحكة ليلى الطفولية أو من صمت أبي الذي تعودته. ما استغربته هو الابتسامة التي ارتسمت على وجه أم ليلى، وإن لم تعلق.

كلما تلعثمت وفشلت في الحديث مع إحدى بنات الجامعة أتذكر "عروسة كمال" وكأنني أعاقب نفسي وأقول: فلاح لا يجيد الكلام مع بنات مصر، فقط يحمر وجهه ويتذرع الحجج ليرحل، بالتأكيد ستكون نهايته الزواج من عود القصب التي تنتظره في قرينته.

اكتشفت فيما بعد أن جميع من في العنبر مثلي، له عروسه المنتظرة. طفلة في الإعدادي حددها الأهل ستكون يوماً أمًّا لأولاده.

كلما رأني ليلى وجريت لتغطي شعرها أكتم ضحكتي. أقول في سري: يا عود القصب تعالي إلى هنا، فما زلتِ طفلة، ما فيك من فتنة لتغطيها.

لقاءاتي بليلى نادرة الحدوث. فأغلب الوقت أقضيه بالعاصمة، وعندما أعود إلى القرية لا أفارق الأخرق وشلته. وعزومات يوم

الخميس ليلي لا تحضر أغلبها بسبب الدروس الخصوصية التي تصر أمها أن تتلقاها.

ابتسامة أم ليلي لم تتغير، كلما قالت فتنة جملتها الماثورة، ولكن ما تغير هو ضحكة ليلي. طفلة في الإعدادي تضحك، وفي بدايات الثانوي تخجل ويحمر وجهها، ومتمنرة على أبواب الجامعة تستشيط غضبًا وتشخط في فتنة كي لا تكرر جملتها ثانية: مبحش الهزار في الحاجات دي يا فتنة.

كبرت ليلي، وهي الأخرى ستذهب إلى الجامعة. عود القصب النفّ وأصبحت آنسة، أو كما قالت أختي فتنة لتدفعني إلى إتمام الخطبة سريعًا: خرطها الخراط وامتد مات. لم أفهم كيف خرطها ولماذا مات بعد ذلك! لا أدري لماذا الاستعجال، فأنا لم أنهِ دراستي بعد.

أعرف أنها عروسي لا مفر، وأنا غير قانط أو حزين، لكن الوقت لم يجن بعد لذلك. أعتقد أن أم ليلي كانت هي الأخرى تميل لتأجيل الخطبة إلى ما بعد تحُرُجي، وإن لم تُصرِّح. لكن ذلك لم يمنعها من البدء في العمل على تقريبي من ابنتها. كلما رجعت إلى القرية اختلقت لي المشاوير.

"وَدِّي ليلي الدرّس.. روح جييها من الدرّس عشان الوقت متأخر.. نازلين نجيب لبس لبنت عمك لازم تيجي معانا مش هننزل شبين لوحدنا من غير راجل".

حتى أبي الصامت تحدّث، وبدا مُهتَمًا هو الآخر.
"طلّع لبيت عمك قفص الفاكهة ده عشان ليلي بتحبه..
شوف مرأة عمك محتاجة حاجة.. خد الفلوس دي اديها عيدية
لبيت عمك".

حتى أنه كلف أختي فتنة بشراء عباءة وأصر أن أصعد بها إلى
بيت عمي وأهديها إلى أم ليلي بمناسبة عيد الأم. وصمم أيضًا أن
أزورها في ذكرى المولد النبوي وفي يدي علبة الحلوة وعروسة المولد.
في تلك الفترة عرفتُ ليلي عن قُرب. ابنة العم كبرت، تشبه أمها
كثيرًا، نفس العينين العسليتين والشعر البني الذي يظهر كلما انزلقت
الطرحة عنه. ربما شعرها الناعم هو ما يجعلها تنزلق دومًا إلى نصف
رأسها، أو أنها لا تربط حجابها بإحكام لتريني جمال شعرها.
ليلى أشبه بنات العاصمة، ولكن أكثر تحشُّمًا بقليل. ملبسها
على أحدث موضة، تسافر هي وأمها لعاصمة المحافظة خصوصًا
لشرائها.

تحتاج أن تطيل النظر إلى وجه ليلي لتلاحظ أنها تضع
المساحيق. فهي تستخدمها بحذر ودقة فنان، عكس بنات العاصمة
اللاتي أقابلهن في المكتبة. أشعر بأن وجوههن وُضِعَت في علبة طلاء
متعدد الألوان، ومع الحر والعرق ذابت الألوان واختلطت، فجعلت
وجوههن مضحكة كالمهرجين.

ليلى لا تنتظر الحكايات عن القاهرة. عرفتُ ذلك بعد أن أرهقت نفسي في تأليفها. لعن الله الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي؛ جعلتها تعرف كل شيء وكأنها ولدت هناك! بعد أن تحدثت معها اكتشفت أنني لا أعرف القاهرة على الإطلاق. مجرد ريفي ذهب إلى هناك ليدرس ويعمل وفي الأخير ينام في عنبر المنايفة.

أربع سنوات فقط لا تكفي لأعرف العاصمة، كان هذا هو عذري. ولكن ما العذر في أنني لم أعرف قريتنا حتى الآن؟! الأخرق الذي أصبح مرشدي أراني الوجه الآخر لقريتنا.

عرفت أن جرجس يبيع البيرة. طالما اشتريت الحلاوة والزيتون من دكانه ولم أكن أتخيل أن بيته الملاصق للدكان مخزن للخمور ومحل البقالة مجرد واجهة.

اندهشت من أن عم سعيد ممرض الوحدة الصحية يؤجر شرائط الفيديو والأسطوانات الجنسية.

دفعني الأخرق لأطرق الباب، وعندما ظهرت زوجة الممرض فرعت. سألتها عن عم سعيد فقالت إنه لم يعد بعد. تنفستُ الصعداء ولكن الأخرق تدخَّل.

- هيبجي امتي؟ إحنا عايزينه في مصلحة.

- عاوزين شرايط؟

ردت المرأة، فأعطيتهما ظهري وفكرت في الهروب.

- لا عاوزين أسطوانة.

قالها الأخرق فبهتُ.

- عربي ولا أجنبي؟

سألتنا زوجة الممرض، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أركض على
سلام البيت هاربًا.

- إنت عيل ياض.

قالها الأخرق ثم جلس بجاني على الرصيف المقابل للبيت،
وأخرج الأسطوانة من جيب بنطاله. لم أرد، فما زلت أتخج.

- هتدفع العشرين جنيهه تمن السي دي عشان حركة العيال
اللي إنت عملتها.

قالها فأومأت برأسي مستسلمًا لحكمه. عرفت أن مصطفى ابن
محمدي التري لم يشترِ التوكتوك ليقف به في أول البلدة انتظارًا لزبون
يأتي. توكتوك مصطفى بيت دعارة متنقل. لم أصدق الأخرق إلا
بعد أن اتصل به ليحدد موعدًا. تحرك بنا مصطفى وعند أطراف
البلدة توقف، إلى أن أتت البنت.

قصيرة، سمينة، شحومها تكاد أن تمزق عباؤها الضيقة لتتحرر.
جلست بيني وبين الأخرق فانكمشتُ وتمسكتُ بمقعد السائق كي
لا أقع. غاص بنا مصطفى في غيظ مظلم ثم أوقف المحرك.

- عشر دقائق بس، عشان محدش يشوفنا.

قالها وابتعد عنا أمتارًا قليلة لينتظر. بدأ الأخرق في تلثيم السمينة في أي موقع تطاله شفتاه، ويداه تتجولان تحت عباءتها السوداء تلمسان وتعتصران كل ما يقابلهما. انسحبت من التوكتوك ووقفت بجانب مصطفى الذي أعطاني سيجارة، وبمجرد أن دخناها صاح: خلصوا.

كلمته كانت إشارة إلى البنت، فبمجرد أن نطقها بدأت على الفور بالعمل. تركت الأخرق يلثم ويعصر سارحًا في واديه، وقبضت بيدها على المنتصب، وفي ثوانٍ أنهت عليه.

"خلصنا" .. صاحت فعدنا إلى التوكتوك، وأدار مصطفى المحرك. حتى سهرات الغيط كانت مختلفة مع الأخرق ورفقائه. وأنا طفل كان أبي يصحبي معه إلى هناك. نخرج من البيت قبل غروب الشمس بقليل. نقطع الطريق من بيتنا إلى مسجد أمير الجيوش في ساعة. كلما مررنا أمام منزل ألقوا علينا السلام. يرد أبي ويضغط على يدي لأردد وراءه: وعليكم السلام ورحمة الله.

يقابلنا أصدقاؤه ونحن في الطريق فينضمون إلينا، ندخل المسجد في مسيرة، أشبه بمسيرات شيوخ الطرق التي تأتي إلى قريتنا في مولد أمير الجيوش وفي الرجبية.

نُصلي المغرب، وبعد أن ننتهي يستند أبي إلى أحد الأعمدة ويفتح مصحفه. يقرأ فأردد وراءه، بعد فترة أبدأ في التمتمة وكأنني أردد، ثم أنسحب بهدوء من جانبه وأتجول في أروقة المسجد. أشاهد حلقات الذكر والداعين عند المقام والطائفين حوله بغير هُدى. أمر بين النائمين في بيت الله والشحاذين الملتجئين حول من يوزع طعام النذور. أتأرجح بين القارئ والذاكر والنائم والطائف، إلى أن يؤذن للعشاء فتستوي الصفوف. بعد الصلاة يصحبني أبي إلى هناك.

سهرات الغيط هي مكافأتي على الدوام، أطلبها فيليبها أبي ويصطحبني معه في الأعياد والمناسبات. أجلس بجانبه هو وأصحابه، تحوطنا الخضرة الممتدة، متجمعين حول ركية النار وأدوار الشاي لا تنتهي طيلة الجلسة، كلما تصاعد البخار صبوا وأعادوا ملء البراد ثانية بالمياه.

حكايات أصدقاء أبي لا تنضب أبداً. مرة يحكون عن سيدي أمير الجيوش وكيف قاتل مئة من الروم وحده، ومرة أخرى عن سيفه الذي يطير الرقاب بضربة واحدة لا تُخطئ أبداً. وفي سهرة ثانية يروون واقعة استشهاده وكيف خانه أقرب قواده نظير دراهم معدودة. يحكون عن دمائه التي ما زالت تسيل، فتفوح رائحتها الزكية لتعطر ضريحه. في قعدة غيط طويلة تكلموا عن حادثة نقل رفات أمير الجيوش من مقامه إلى مقابر الصدقة.

كانوا يبنون أن يهدموا المقام ويشيدوا مستشفى مركزي فوق حطامه. يُقسِمُ أبائهم بأن جسد سيدي أمير الجيوش المفلوف بالقماش الأبيض، كان دافئاً كأجساد الأحياء، ودماءه القانية تقطر فتخترق الكفن والنعش لتسيل على أرض قريتنا، وكأنه يترك لنا ذكرى. يخبروني عن النيران التي التهمت الأخضر واليابس وكأنها حزينة على فراق سيدنا لمقامه. تحدثوا عن الناس المتجمهرة والمحافظة التي قُلبت رأساً على عقب ولم تهدأ إلا بعد أن عاد أمير الجيوش إلى مقامه وبُني مسجده.

كنت أنبهر بحكاويهم المدهشة، سعيد بشري لشاي الركية كالرجال، فرح برفقة أبي وبأكواز الذرة التي يُلقى بها إلى الركية لئشوى لأجلي. كل ذلك كان قبل وفاة أُمي، فبعد أن تركتنا بُعد أبي وأنا الآخر بعدت.

سهرات الغيط مع شلة الأخرق مختلفة، لا محل لأمر الجيوش فيها، لا تتقابل أمام مسجده، بل أمام مخزن جرجس. يشترون البيرة ويكفونها بورق الجرائد والشنط السوداء ثم نطلق إلى الغيط. قد يجري أحدهم اتصالاً فيتغير المسار، ننحرف يمينا ويساراً إلى أن يقابلنا شاب يبيع الممنوعات. الأخرق وأصدقائه يدخنون الحشيش. اكتشفت أنه يُباع في قريتنا، والعجيب أن من يبيعه كان زميل دكة في المدرسة الابتدائية.

قعدة الغيط لم تتغير رغم السنون التي مرت. خضرة ممتدة ونجوم تنير السماء وركية وبراد وأدوار من الشاي. صحيح بدأت من دكان جرجس وانتهت بشراء المخدرات لكنها كالسابق مليئة بالحواديت. حكايات جنسية ونكات بذئبة وألسنة تحررت بعد أن فك الحشيش قيدها.

ما يميز شلة الأخرق عن غيرها أن جميعهم قد سكن العاصمة لفترة، إما لدراسة وإما لعمل، لذا لم أحتج إلى تأليف الحكايات كي أجهزم. أجلس وسطهم وأنا صامت فلا يبالون. هم يتحدثون على الدوام وأنا أتصنّع الإنصات.

يقول الأخرق متعجبًا: حاجة عجيبة، يعني الدكاترة في الجامعة فلاحين، واللى بينوا البيوت صعايدة، والسباكين والنجارين وكل الصناعات جايين من الأرياف، حتى الرئيس والوزرا منايقة. أومال أهل مصر بيشتغلوا إيه؟

ينتهي من حديثه فتتعالى ضحكاتنا ولا نُجِب على سؤاله.

أصدقاء أبي بالتأكيد أفضل من رفقاء الأخرق. حكاويهم عن سيدي أمير الجيوش مُسلية رغم أنني لم أعد أصدقها. رائحة شواء الذرة لذيدة عكس دخان الحشيش الذي يخنقني. المكوث مع فلاحين لعب الحشيش بعقولهم أمر لم يُرَق لي على الإطلاق، ولكن لا بد من رفقة أبدد بها الوقت حتى يحين موعد عودتي للعاصمة.

تركت ليلي بطرحتها المنزلة على الدوام، وفتنة بجملها الماثورة وإلحاحها المستمر لإتمام الخطبة، وشلة الأخرق بمحافاتها. غادرت قريتي بعد أن رأيت وجهها الآخر وعدت إلى العاصمة.

عبر المنايفة تحول إلى خلية نحل، فامتحانات السنة النهائية على الأبواب. بلدياتي يذاكرون بلا هواده، وأنا الآخر مثلهم، فجميعنا يريد أن يجتاز تلك المرحلة؛ بدأت بالانتظام في الجامعة وحضور المحاضرات بعد أن تركت عملي بالمكتبة. أصبحنا نشرب القهوة مثل زكريا ونسهر ونضيء الأنوار إلى ما بعد منتصف الليل. "معسكر مغلق ينتهي بنهاية المباراة النهائية" قالها الأخرق ليُصبر نفسه، فالمثلل يقتلنا. من الجامعة إلى العنبر وعلى الفور نبدأ بالمذاكرة. لا خروج مطلقاً ولا سهرات في شقة العُزاب.

لا أعرف لماذا لم أتمرد على ذلك الوضع وأغادر حتى لأتمشى بالجوار. فالיום طويل ومن المستحيل أن يقضيه أحد بالكامل في المذاكرة. ربما لم أجد أحداً من بلدياتي قد تذرّ من المكوث فأتشجع ونخرج معاً. ربما محادثتنا في أوقات الراحة تروقني وتدفعني للبقاء. فكل منهم يحكي قصصاً طازجة من الصعب أن تسمعها من أبناء العاصمة. حكايات عن المستقبل لا عن الماضي. الكل يحكيها بثقة كما لو أنها تحققت بالفعل.

زكريا سيصبح مُعيداً بالجامعة ولكنه لن يستقر في القاهرة.

- المعيدين بيشتغلوا 3 أيام بس في الأسبوع، هتقعد في البلد
وآجى بالقطر، المعيدين ليهم اشتراك مُحَقَّض في السكة
الحديد.

وزميلنا الآخر سيعمل موظفًا في شركة المقاولون العرب.

- عمي هيشغلني هناك محاسب موقع، هنقعد في كل موقع
لحد ما المشروع يخلص وبعدين نروح لغيره، مرة محطة مياه
ومرة مدينة سكنية تحت الإنشاء، وساعات مشاريع مد
طرق وبنى كباري. الميزة إن فيه سكن للمغتربين ونظام
الشغل أسبوعين في الموقع وأسبوع راحة أفضيه في البلد.

حتى الأخرق كانت له خططه هو الآخر.

- أبويا مظبَّط مع عضو مجلس الشعب، هيدفعله كام باكو
ويشغلني في شركة الكهرباء، الشركة الأم اللي في القاهرة،
وهسكن مع بلدياتنا في شقة العُزاب.

لكل منا ليلي تنتظره. الجميع يحكي عن ليلاه التي سيتزوجها
بمجرد تخرجه. قد تكون ابنة عم أو خال، جارة، قريبة من بعيد،
وبالتأكيد اختارها الأهل. العجيب أن جميعهم مثلي مستسلمون
للاختيار وكأنه أمر واقع لا محالة.

كانت تسليتي الوحيدة خلاف سماع القصص هي التفكير في
ليلى. تمنيت أن أحدثها بالساعات مثلما يفعل العُشاق، أجلس

على سريري وأسدل الستارة كما يفعل المخبر وأقضي الليل في مكالمات الحب والغرام كما أبطال الأفلام. ولكنني لا أملك رقم هاتفها؛ خجلت أن أطلبه فترفض، وحتى لو معي فمن المستحيل أن أفعلها وأتصل. أخاف أن تُخبر أمها. لست متأكدًا بأنها تبادلني مشاعر الحب. مشاعري مختلطة وغير مفهومة.

في الصباح عندما أكون بالجامعة أقول لنفسي "عروسة والسلام وأهي شبه بنات مصر"، ولكن في الليل وبعد أن تُطفأ أنوار العنبر ويعم السكون يصبح الأمر مختلفًا.

أجد نفسي متوترًا بغير سبب، فأنسحب إلى داخلي. أجلس على سريري وأسدل ستارتي لأصنع حاجزًا يفصلني عن الجميع. أستلقي في العتمة وقلبي يخفق كمراهق ينتظر حبيبته، إلى أن تأتي ليلى. جميلة، ساحرة، أشبه بنجمات السينما. تجلس بجانبني فتقلب العتمة نهارًا ويتحول الضيق إلى براح.

أنطلق في الحديث على غير عادتي. لا تلثم ولا حمرة تكسو وجهي. ينطلق لساني بكل كلمات الحب المخزونة في دماغي منذ زمن. ترد ليلى بهمسات لا أسمعها بأذني، وإنما تصل مباشرة إلى قلبي فتسكنه. قبل بزوغ الشمس ترحل بعد أن توصيني بالذاكرة.

- خلّص الجامعة بقي عشان أبقى مراتك.

ليلي ليست كأي امرأة بالنسبة لي، ليست عروسة والسلام.
عرفت ذلك في أحد أحلام يقظتي. كنت مستلقياً على سريري
منتظراً خيالها أن يحضر، ولكنه تأخر.

ربما الملل هو السبب، أو أن توتر ما قبل الامتحانات جعلني في
حاجة إلى لحظة شبق تُريح جسدي. خيالي بدأ في العمل. رسم
مشهداً أنا بطله وبطلته إحدى بنات الجامعة.

ستارتي مُسدلة والبنات أمامي بغنجها وقميصها الشفاف
وأنفاسها الساخنة. تحررت من قميصها واستلقت بجاني
فتصاعدت أنفاسي. أقترب منها فتدلل لتزيد هياجي، أحتضنها
وقبل أن أهم بالفعل تظهر ليلي.

خيالها يحضر فيصنع حاجزاً على الفور. تحتفي البنات بقميصها
الشفاف ويتوقف لهاثي. تشعر ليلي بما أنا فيه فتسامحي على فعلي
المشينة. ترى جسدي المتشنج وحببات العرق التي تكسوه، فتمد
يدها وتحتضن يدي فيبرأ جسدي. قبل أن ترحل تكافئي بقبلة على
خدي فأطمئن وأنام.

أذاكر لأطرد الملل الذي يسكنني، أريد أن أقطع الأمتار الباقية
عدواً لأصل لخط النهاية. لا أنتظر التتويج، بل اجتياز الخط هو
كل ما أطمح إليه. أحلام المراهق القروي في أن يصير سفيراً
تبخرت منذ يومي الأول في العاصمة. الأخرق كان كاذباً، فالكلية
لا علاقة لها على الإطلاق بوزارة الخارجية. من سبقونا في التخرج

يملؤون المقاهي وأقصى آمالهم وظيفة مريحة في مصلحة حكومية.
أكذوبة اختلقها أخرج ليرحل إلى العاصمة، فصدقها طائش.

أكانت الامتحانات في ذلك العام سهلة، أم أن انقطاعي في
العنبر للمذاكرة قد أتى بثماره؟ فبمجرد أن يلقي المراقب بورقة
الامتحان إلى طاولتي، ينسكب حبر قلمي على الورق بلا توقف،
حتى أنهى عليه. للمرة الأولى أنهى الامتحانات وأنا مطمئن ومتيقن
من النجاح.

حزمتُ أغراضي، وودّعت بلدياتي في مدينة الطلاب وفي شقة
العُزاب. رحلت وبصحبتي أخرج يصير على أن نودع الجامعة قبل أن
نغادر العاصمة. "نبص عليها بصة أخيرة قبل ما نمشي".

إلحاحه أرغمني على الموافقة رغم عدم اقتناعي، الوقت متأخر
والحقائب التي نحملها تثني ظهورنا. وأنا في الأساس لا أرغب في أن
أودع جامعة لم أقع يوماً في غرامها.

قبل أن نصل إلى هناك أخبرني بغرضه من الزيارة "هنطرط على
أبوها قبل ما نمشي، دي جامعة نجسة بنت كلب".

كنت قد سمعت عن ذلك التقليد ولم ألتفت إليه، ولكن
الأخرق ملتزم بتطبيق القواعد. أخبرته بأنني سأتوقف عند ناصية
الشارع المقابل للجامعة وأنتظره خمس دقائق، وإن تأخر سأرحل.

- لو عسكري مسكك وخدوك على القسم مليش دعوة.
همشي وأرجع البلد.

قلتها فأشار إلى الشارع أماننا وضحك.

عشرات الطلبة متوجهون إلى الجامعة، خليط من الريفيين
والعشوائيين حضر، فالتقاليد الراسخة يجب أن تُتَّبع. سحني
الأخرق ومشينا وسطهم حتى وصلنا. في مواجهة السور وقفت، فلا
مفر. فعلوها فشاركتهم، وانهمرت المياه.

(5)

أيام طويلة قضيتها في قرينتنا مُنتظرًا، لا أعلم أكنت أنتظر إتمام خطبتي من ليلي أم نتيجة الامتحانات.

- ليلي جالها عريس.

قالتها أم ليلي في نهاية إحدى عزومات يوم الخميس، ألقته بلا مقدمات ورحلت، ففهمنا الإشارة، عرفنا أن الوقت قد حان لإتمام الخطبة.

عريس بلا عمل أو حتى شهادة جامعية، سيتقدم لخطبة عروس لم تُسأل في الأساس عن رأيها.

فُتنة رتبت كل شيء مع أم ليلي، حددتا ميعاد الخطبة وأخبرتانا أنا وأبي به.

- هنقرا الفاتحة مع مين؟

قالها أبي، فتأجلت الخطبة لأشهر، المشكلة بسيطة في ظاهرها ولكنها عصية الحل، ممن سنطلب يد ليلي للزواج؟

اكتشفت بأنه لا أقارب لأم ليلي مُطلقًا، "ست وحدانية" همست بها فُتنة في أذني وكأنها تُصرِّح بسرٍ خطير.

حكى أبي باقتضاب بأن أم ليلي ليست من قرينتنا، وإنما من قرية أخرى تقع في أقصى حدود المحافظة.

- بلد أرياف بيوتهم لسة بالطوب الني.

سافر أبي إلى هناك منذ زمن، "أمها وأبوها ميتين من زمان، وكانت عايشة مع أخوالها، روحت مع عمك وجدك وكتبنا الكتاب هناك، وجت معنا بشنطة هدومها".

منذ أن استقرت أم ليلي في قريتنا لم يأت أحد لزيارتها، وهي الأخرى لم تعد إلى قريتها منذ أن تركتها، مداولات شارك فيها الجميع لحل الأزمة، حتى الأخرق أدلى بدلوه:

- يا عم كمال الحل بسيط، اطلع إنت وأبوك عند أم ليلي، وبعدين حط إيدك في إيد أبوك واقروا الفاتحة وزغروطين من إخوانك البنات وألف مبروك.

بعد تفكير طويل وصلنا إلى حل، همست فتنة لأبي: الفاتحة اتقرت من زمان بينك وبين عمي، مفيش داعي لتكرارها. فhez رأسه بالموافقة وتمت الخطبة.

شراء قميص جديد هو كل ما فعلته لأستعد. فتنة وأم ليلي قامتا بكل ما يلزم للإعداد للعرس. أبي تكفل بالمصاريف، وهن كالعادة تصرفن.

كاسيت موصلّ بسماعة ضخمة تبعث منها أغنية "يا دبلة الخطوبة"، وطبق به قطعنا جاتوه وبعض من البقسماط الرفيع وضعوه أمامي، وعلبة قطيفة حمراء حملتها يد فتنة.

أبي الصامت جالس أمامي وأختاي بجانب أم ليلي تتضحكن،
ليلى قريبة للمرة الأولى، تجلس بجانبني وكنفها تلامس كتفي، لا أدري
أهي خجلى أم أن الحمرة التي تكسو وجهها بفعل المساحيق.

كل ما أتذكره هو خاتم ذهبي ظهر، ويد بضّة احتضنتها يدي
لثوانٍ ثم انسحبت، وزغاريد انطلقت لتؤذن بانتهاء دوري في العرس،
بعدها صحبني أبي إلى الخارج وكأنني غريب، ليبدأ احتفالهن.

وحيداً في غرفتي بعد أن تركني أبي ورحل كعادته، ألعن أختي
وخجل البنات الزائف، أسب أم ليلي في سري وأتوعد ابتها، أسمع
صوت الأغاني المنطلق من منزل ليلي فأستشيط غضباً. الأقدام تطرق
بعنف سقف غرفتي، أعرف أنهن يرقصن، أحاول النوم فأفشل.

تأتي ليلي متأخرة كعادتها وتجلس بجانبني، أعاتبها على يدها التي
سحبها وهربت، على طردي وتركني وحيداً، على رقصها الخليع
أمام أختي.

- حتى لو بنات مترقصيش قدامهم، أنا بس اللي أشوف
رقصك.

أقولها فتخجل، تعتذر عن كل ما فعلته، تحتضن يدي وتطيل،
تقبّلني قبّلتنا الأولى، يحمر وجهها وتريد أن تغادر، تحاول بدلال أن
تسحب يدها، لكن يدي تأبى أن تنفك وتركها، تحاول ثانية

فأجذبها وأطوّقها بذراعي. في النهاية تستسلم وتستلقي بجاني على السرير.

أفيق على صوت المؤذن لصلاة الجمعة. أنهض من السرير وأنا غارق في عرقي ومائي. أستحم وأرافق أبي إلى المسجد.

بمجرد أن زِنَ خاتمي إصبع ليلى ظهرت النتيجة ونجحت، وكان القدر يأبى أن نقرب، فالحطوات القادمة مُحَدَّدة سلفًا، وضعها من سبقونا ووجب علينا تنفيذها، خطوبة فنجاح ثم غربة، يتخللها زيارات قصيرة للعروس وبعدها يتم الزواج.

لم أضع خططًا مستقبلية كزملاء العنبر، قلت لأبي: سأرحل إلى القاهرة وأبدأ رحلة البحث عن عمل، أقيم في شقة العُزَّاب وقد أعمل معهم كالسابق، إن لم أعثر على عمل.

- لا لازم تشتغل بشهادتك، مش هتشتغل صنايعي وإنْت معاك بكالوريوس.

رد أبي بغضب وكان قواعد الأسلاف أصبحت دستورًا ينبغي الالتزام به. خريجو الجامعة يجب أن يعملوا موظفين.

اكتشفت أن أهل قريتنا مقسمون إلى فئات: غير المتعلم يعمل بالفلاحة، والمتسرب من مراحل التعليم الأولى سيصبح صاحب حرفة، أما من أكمل تعليمه فغالبيتهم موظفون، قلة تعمل في المصالح الحكومية في المحافظة، والأكثرية نزحوا إلى العاصمة للعمل هناك.

فور ظهور النتيجة بدأ أبي بالعمل على توظيفي، محادثات مع زملائه في العمل ورفقائه بالمسجد، لأول مرة أراه جالسًا على المقهى، ارتاده لمقابلة معارفه العاملين بالعاصمة، في ظرف أسبوع أنهى مهمته بنجاح، خيرني بين وظيفتين، الأولى في مصلحة الري بشبين الكوم، والثانية بالعاصمة، رفضت الأولى وحزمت حقائبي للعودة ثانية إلى العاصمة.

لا أدري لماذا اخترت العودة إلى القاهرة مرة أخرى، ربما لم أرد أن أثقل كاهل أبي، فالعمل في مصلحة الري سيكلفه الكثير، عشرون ألف جنيه لسيادة النائب، وخمسة آلاف أخرى سيتقاضاها الوسيط، كل هذا المبلغ مقابل وظيفة بعقد عمل مؤقت، مرتبها بالكاد يكفي مصاريف المواصلات من قريتنا إلى شبين. واحد من شلة الأخرق يعمل هناك محاسبًا، كلما لعب الحشيش بعقله في سهرات الغيط ندب حظه.

- شغلانة خرا، فلوسها مبتكفيش ثمن الدخان وأجرة الميكروباص.

ربما لا أرغب بالاستقرار في قريتنا إلى الأبد وأصبح شهيدًا مثل أبي، لذا اخترت الوظيفة الثانية ورحلت؛ أحتاج إلى فرصة ثانية في العاصمة، وقد أنت، فلم أضيعها؟! تلك المرة ستكون مختلفة، سنة أو سنتان على الأكثر سأقضيها بمفردي، ثم تأتي ليلي إلى جوارى وتؤنسي. قد نتأقلم على العيش هناك فنستقر إلى الأبد.

على أطراف العاصمة يقع مقر عملي، في مدينة جديدة كانت منذ سنوات قليلة مجرد كتبان من الرمال على تخوم العاصمة، بناها حاكم إحدى الدول الخليجية، ملك أو أمير لا أعرف. حكى زملائي في العمل أنه أحب مصر فقرر أن يبني في صحرائها مدينة للفقراء تحمل اسمه، أرسل ملايين الدولارات إلى حكومتنا وكلّفها بالتنفيذ. ردّوا الجميل بأن شيّدوا له تماثلاً ووضعوه عند مدخل المدينة.

"المهندس نبيل نائب رئيس جهاز المدينة لشؤون المرافق".

دوّنت الاسم والوظيفة على قصاصة ووضعتها في جيبى كي لا أنسى.

ابن قريتنا تكفّل بتوفير العمل، صديق لأبي، تحديداً معرفة مسجد، فهو مقيم في العاصمة بحكم منصبه، ويأتي إلى القرية في المناسبات والأعياد، عندما يحضر يقابله أبي في مسجد سيدي أمير الجيوش، فهو من مريديه.

حدّثه أبي في إحدى المرات عني فرد الرجل: "ابعتهولي مصر.. الشغل كثير".

رجل طيب يوظّف أبناء قريته دون مقابل، حتى الهدايا يأبى قبولها، لكن الشغل درجات كما يقولون، أبناء الإخوة يوظفهم

بمجرد التخرج في جهاز المدينة، وأبناء الأعمام والأخوال يعينهم في إحدى شركات التشغيل والصيانة، أما أبناء عموم قريتنا فعملهم يكون على الأغلب مع أحد مقاولي الباطن.

أول ما وصلت المدينة دهشت، فشاباب قريتنا في كل مكان، حارس الأمن الذي استقبلني أمام بوابة الجهاز يسكن في آخر شارعنا. من أرشدني إلى مكتب المهندس نبيل كان زميلي في المدرسة. حتى السكرتير من قريتنا.

بمجرد أن دلفت إلى مكتب ابن قريتنا البار وعرفته بنفسه حصلت على وظيفة. أجرى مكالمة هاتفية فحضر بعدها إلى المكتب سكرتيه.

- خد بلدياتك ووصله لمجمع الخدمات وخلي المقاول يكلمني.

المسافة بين جهاز المدينة ومجمع الخدمات هي مساحة المدينة بأكملها، الجهاز على مشارفها والمجمع عند خط النهاية. كلما توغلت بنا العربة داخل المدينة قل العمران وحلت الرمال محل المسطحات الخضراء، إلى أن أصبحنا في صحراء تنتهي حدودها بوابات الخروج من العاصمة، هنا يقع مجمع الخدمات، قبل نهاية حدود العاصمة بكيло متر واحد.

بوابة ضخمة كبوابات السجون عبرنا منها إلى داخل المجمع، منطقة تحت الإنشاء، كان هذا انطباعي الأول عن المكان، مبانٍ صغيرة من دور واحد متناثرة في الأرجاء، شوارع شبه ممهدة ومسطحات رملية تنتظر التشجير، خزانات مياه ضخمة وأسطول من العربات المتنوعة أشكالها، أغلبها أراه للمرة الأولى ولا أعرف فيم يُستخدم.

السكرتير سحبني خلفه كالطفل، هو يبحث عن المقاول لينهي مهمته، وأنا أتأمل عالمي الجديد، عناصر ضخمة ينبعث من داخلها أزيزٌ مزعج، وهناجر عالية مُكَدَّسة بالمعدات، كلابرات وأوناش تدرع الطريق طولاً وعرضاً وجو معبأ برائحة الكلور، نتنقل من غرفة إلى عنبر ومن ورشة إلى مخزن، إلى أن عثرنا عليه. السكرتير لم يُضِعِ الوقت في الحديث، فبمجرد أن قابلنا المقاول اتصل بالمهندس نبيل وأعطى التليفون للمقاول.

- على العين والراس يا سعادة الباشا.. طلبات سيادتكم أوامر.

لم يغادر السكرتير إلا بعد أن اطمأن على تسلمي للعمل، أعطاني رقم هاتفه ثم انصرف.

الجهاز هو المسؤول عن مرافق المدينة كافة، مياه وكهرباء، نظافة وتشجير، إنارة ورصف طرق... إلخ، لكنه للأسف لا يملك العمالة المدربة، لذا تعاقد مع شركة حكومية كبرى متخصصة، وتلك

الشركة بدورها لا تمتلك العمالة الكافية لصيانة وتشغيل مرافق المدينة، فأوكلت المهمة إلى عدة شركات خاصة، وحددت لكل منها مسؤوليتها. شركة مسؤولة عن إنتاج المياه، وأخرى للصرف الصحي، شركة للتشجير والري، وأخرى للنظافة والقمامة، شركات لرصف الطرق والإنارة والأمن.

للأسف أغلب تلك الشركات لا تمتلك الخبرة الكافية في النشاط الموكل إليها، لذلك تعاقدت كل منها من الباطن مع مقاول محترف في مجاله لتنفيذ الأعمال، حكى لي ذلك أحد زملائي، فلم أفهم.

انتقلت من عنبر المنايفة في مدينة الطلبة، إلى شقة المنايفة في مجمع الخدمات، فبلدياتي لا يفارقوني أينما حللت.

عمارتان ملحقتان بالمجمع يسكن بهما المغتربون، الأولى احتلها المنايفة منذ أن وطأت أقدامهم المجمع ولم يدخلها غريب، والثانية يسكنها خليط من الشراقة والصعايدة. عندما سألت أحد شركائي في السكن عن فحوى ذلك التقسيم رد: الشراقة والصعايدة ولاد عم، عشان كده بيرتاحوا في السكن مع بعض.

هزرت رأسي، وكأنني اقتنعت بأننا من جنس آخر، وجب عليه الانعزال عن الجميع والعيش وحده.

تعوّدت على السكن المشترك، لذا لم أتذمّر رغم طباعنا المختلفة. في العمل صباحًا، وليلًا أمام التلفزيون حتى أنام. لم أفكر حتى في استكشاف المدينة، فتجربتي الأولى في العاصمة كانت مريرة، ولا أريد أن أكرر خيبتني ثانية.

عملي كان سهلاً، مهمتي هي التدوين ليس إلا. أخرج يوميًا من المجمع إلى شوارع المدينة، برفقة مشرف الجهاز ومقاول المشروع أسير، هما يشرفان على الأعمال وأنا أكتب ملاحظتهما الشفوية على الورق.

يوم في حصر أعمده الإنارة التالفة، وآخر في استلام شبكة خطوط الري، وأيام في تدوين الملاحظات بشأن المسطحات الخضراء، وأخرى في حصر أعداد الأشجار في المدينة وأنواعها. عندما تنتهي أعود إلى المجمع، أجلس إلى جهاز الكمبيوتر وأكتب الملاحظات، ثم أرسلها بالفاكس لشركة التشغيل والصيانة.

الشركات المسؤولة عن مرافق المدينة تتغير باستمرار؛ مقاولو الباطن تنتهي عقودهم فيأتي غيرهم، الجميع يرحل إلا نحن باقون، المنايفة والشراقة منذ أن أتوا إلى هنا لم ينقصوا واحدًا إلا بالموت، وكأنهم استوطنوا المجمع فأصبحوا من مقتنياته التي يستحيل الاستغناء عنها. المهندس نبيل حصن أمان بلدياتي، والشراقة يستندون على كبيرهم نائب رئيس الجهاز لشؤون الإسكان.

ربما لم نرحل بفضل بلدياتنا المسؤولين ودعمهم، وقد يكون السبب أن أبناء العاصمة يرفضون العمل في أطرافها البعيدة عن العمران، ربما المرتبات الضئيلة وساعات العمل الطويلة هي السبب في امتناعهم عن الحضور إلى هنا، ولهذا بقينا.

ذات مرة ونحن نحصر سلات القمامة، قال لي المقاول: "سبع ساعات في نقرة الشمس بنعد صناديق الزباله ومش راضية تخلص، ده لو واحد من بتوع مصر كان مكاننا، كان جاتله ضربة شمس، وقالهم عايز أجازه مرضي".

تركت أم ليلي في قريتنا وجئت إلى هنا لأجد أمامي مائة أم ليلي.

تُصر أن أناديها بعمتي وهي ليست بعمة، والآخرين هنا يُصرون بأنهم أعمامي، أنا الوافد الجديد، صغير السن الذي ينصحه الجميع، ينبغي قبل أن ينطق لساني باسم أحدهم أن أسبقه بكلمة "يا عم".

عمارة كاملة تعج بالأعمام.

تبدأ بعم الشيخ أحمد ساكن شقة الدور الأرضي، الذي كلما قابلني يبدأ نصائحه "الصلاة جماعة يا كمال"، نصيحة بصيغة الأمر، فهي من عم، يمسك بيدي ويسحبني خلفه كتلميذ خائب حتى نصل إلى مسجد السكن، ولا يرحل إلا بعد أن يتأكد أنني أدت الفرض والنافلة.

وتنتهي بعم بيشوي حامي جمى الأخلاق والفضيلة، ومُنقذ الشباب الطائش من الوقوع في الرذيلة. عندما أخبره زملاء السكن بأنني رُكبت عدسة جديدة للدش لمتابعة الدوريات الأوربية انتفض، قطع الأسلاك وهدد بسحب الريسيفر من الشقة إذا كررت هذا الفعل ثانية. بعدها ألقى عليّ خطبة عصماء وكأنه إمام جامع سيدي أمير الجيوش.

- يا كمال يا ابني حرام عليك، أنا خايف عليك من غضب رينا، الأوربي ده قمر نجس وكله وساخة.

ممدوح البطل كبير شقتنا هو صورة من أم ليلي، عندما أراه أشعر بأن عمتي قد نبت شاربها، وقصّت شعرها وجاءت هنا لتُكدّرني.

- الصحيان هنا بميعاد والنوم بميعاد يا كمال، ما هي مش عربخانة كل واحد فيها على راحته!

يوقظنا في السادسة صباحًا ولا يقبل بأي حجج أو أعذار، يوزع المهام ويحدد المسؤوليات المنزلية لكل منا.

- كمال يجهز الفطار وعلي يغسل المواعين وأنا هكنس الشقة.

أتذكر أنه قد أرجعني أكثر من مرة لأرتب سريري، أكون قد خرجت من مدخل العمارة، ينادي عليّ من بلكونة السكن: "اطلع يا كمال"، فأصعد وأنا مغتاض، أرتب السرير وأرحل.

دائمًا ما يقول: أنا لو سببتكم على راحتكم هتخلوا الشقة زريبة. فلا نُعِيب.

"الورشة العمومية مُلحَق بها زاوية للصلاة"، قالها زميلي في العمل بعدما لاحظ عدم التزامي بصلاة الظهر، صحبني إلى الزاوية، وبعد أن أنهينا صلاتنا تركني ونام مع النائمين هناك.

ورشة كبيرة لم أرَ مثلها من قبل، مساحتها قيراطان أو أكثر، محارط ضخمة وأوناش ومعدات لحام، فناطيس مياه يجري إصلاحها وظلمبات يتم صيانتها. على جانبي الورشة عُرف للعمال وحمامات وبوفيه، وفي المنتصف غرفة واسعة ذات واجهة زجاجية، عرفت أنها مخصصة للمهندسين ليتمكنوا من مراقبة العمل دون أن يغادروا مكاتبهم.

"يا عالم يا حرامية" صحت بها فلكمني على الفور.

شكله المضحك هو ما دفعني لمراقبته، طويل وضخم، يرتدي نظارة غريبة، يده الكبيرة قابضة على مسدس اللحام، يوجهه إلى ماسورة مكسورة، فترتد شرارات النار لتحيط به من كل اتجاه، دَكرني بصديق اللمي في فيلم الناظر، فانفلتت من فمي ضحكة، فلاحظ.

- فيه حاجة يا بلدينا؟!

- البوفيه مقفول ومستني يفتح عشان أشتري حاجة.

قلت ذلك لأبرر مكوثي الطويل في الورشة، وليتني ما قلته!
فالضخم هو المسؤول عن البوفيه، عرفت ذلك عندما خلع نظارته
وترك ماسورته المكسورة وصحبتني إلى هناك.

اشترت أول ما وقع عليه نظري، دفعت ثمنه ورحلت. "كده
ناقص جنيه" قالها الضخم فأكملت المسير ف"الحساب مطبوظ".
ثلاث من خطواته الواسعة كانت كافية ليصل قربي. مد يده
وقبض على كتفي.

"إنت عامل من بنها؟!!" قالها فاستدرت وأزحت يده بعنف.

- الفلوس اللي دفعتها لك مطبوظة، إنتو عالم حرامية.

قلتها بصوت جهوري علَّ أحدًا من بلدياتي يسمع فيأتي
لنجدتي. لم يرد الضخم على صياحي بصياح، وإنما بلكمة أدمت
وجهي، ويومها عرفت كائنين الغلابة.

- أصله ميعرفش إن ده كائنين يتامى.

كلمة قالها ممدوح البطل للضخم، فأنهدت الشجار، بعدها لثم
الضخم على رأسي وتصالحنا.

لم أفهم معنى لقب "كبير الشقة" إلا يوم استلامي للمرتب،
اتصل زميلي لِيُشَرِّني "الفلوس وصلت"، فأخيت مهام التدوين
والحصر بسرعة وعدت إلى المجمع. في الطابور الطويل وقفت،
وعندما حان دوري ناولني الصرَّاف ورقة.

"دي قسيمة القبض، احتفظ بيها" قالها الصراف فظنت أنه يمازحني.

"ريفني ساذج في شهره الأول بالعمل، فلا ضرر من الهدر معه"، همست بها لنفسي، ثم قلت له ضاحكًا لأجاربه:

طب دي الورقة، فين النقدية بقى!؟

فاجأني بسؤاله: إنت في عمارة الشراقة ولا المنايفة؟

- المنايفة.

- ساكن في شقة كام؟

قالها فتيفقت بأن نهاية ذلك المزاح مشاجرة. كتمت غضبي وأجبته: في شقة رقم 7.

رد: الفلوس مع عمك ممدوح البطل.

كبير كل شقة هو المنوط باستلام المرتبات. عُرف تحوّل مع مرور الوقت إلى قانون. الأمر بدأ بزميل استدان من الجميع ورحل بغير عودة، لم تُحلّ الأزمة إلا بعد أن تدخّل كبراء الشقق. سافروا إلى قرينته وحصلوا الدين من عائلته. من يومها وكبير كل شقة يستقطع من المنبع. يوزع المرتبات بعد أن يسدد الديون ويخصم الاستحقاقات.

أقف في مواجهة ممدوح البطل وأنا أكاد أنفجر من الغيظ، أشعر بأنني طفل صغير ينتظر هبة من محسن، يناولني هو الآخر

ورقة، ولكن تلك المرة بداخلها نقود، قصاصة ملفوفة بإحكام بداخلها ثلث راتي، هو كل ما أعطاني. قبل أن أنطق مُعَبِّبًا بادر هو بالحديث.

- معلش يا كمال، الخصم كثير عشان ده أول شهر ليك هنا، بعد كده بنخصم التلت بس وهتاخذ التلتين.

القصاصة مدوّن بها أرقام وبنود، تبدأ بالرقم الكبير ثم تتوالى عمليات الطرح لتنتهي بالمبلغ المستحق. خزين وصندوق عمارة وصندوق يتامى وبطاقة رقم قومي، آل لتلك البنود ثلثا راتي.

- الخزين بنجيبه أول الموسم جملة، والأكل حسابه بالشهر وبندفعه مقدم، بس إحنا استثنيناك أول شهر لحد ما نقبض.

قالها كبير شقتنا بكل فخر.

بلدياتي يعيشون في العاصمة ويفكرون بعقلية القرية، المطبخ مُكَدَّس بشكائر الأرز والمكرونّة وأجولة البطاطس والبصل، وكأنهم يستعدون لمجاعة قادمة.

- مخزون إستراتيجي.

قلتها فلم يضحك أحد.

استغربت من بندّي الصناديق، فسألت ممدوح البطل: إنت بتخصم مننا تأمينات ومعاشات ولا إيه؟

أخبرني بأن لكل صندوق وظيفة محددة، صندوق للابتسامات والآخر للدموع.

الأول صندوق العمارة، أنشأه بلدياتي فور استلامهم العمل بالمجمع، عشرة جنيهاً تخصص من كل واحد منهم شهرياً، أعضاؤه هم المنايفة فقط، ويتولّى إدارته أكبرهم سناً، الصندوق مخصص لحالات الزواج والإنجاب والمرضى، مبالغ محددة سلفاً لكل حالة، تُصرف لترسيم الابتسامة على الوجوه وتشجيع روح الود والتكافل بين أبناء المحافظة الواحدة.

أما الثاني فهو صندوق اليتامى، جاءت فكرته عندما حدثت حالة الوفاة الأولى بالمجمع. مات أحد الزملاء فسالت الدموع حزناً على فراقه. ساهم كل واحد من بلدياتي بمبلغ وأرسلوه إلى زوجة الفقيد، بعدها بشهور حضرت الزوجة إلى المجمع تطلب العون.

- الحال صعب والعيال مصاريفهم كثير.

أعطوها ما فيه النصيب ورحلت، ذرفوا الدموع وبعدها أنشؤوا الصندوق، أعضاء الصندوق هم كل العاملين بالمجمع، فالاشتراك إجباري والخصم يتم من المنبع. يوم صرف المرتبات يجلس المسؤول عن الصندوق بجوار الصراف ويقتطع من كل كبير حصة شقته.

صندوق الدموع مخصص للموت فقط، ولا يُصرف منه قرش لأي حالة خلاف ذلك. ألف جنيهاً تُصرف بعد الوفاة مباشرة،

ومائة جنيه تُصَرَّف شهرياً لكل يتيم، ومائة جنيه أخرى في الأعياد. النقود يستلمها في أول كل شهر زميل يسكن في نفس قرية المتوفى ويسلمها باليد لزوجته.

سنين مرت وزميل تلو الآخر انتقل إلى جوار ربه، وأيتام زاد عددهم، وصندوق قارب أن ينضب، تفاقمت المشكلة وأوشك الصندوق أن ينهار، إلى أن أتت الفكرة وأنشئ كائنين اليتامى.

كانت فكرة الضخم، اقترحها فلاقت استحسان الجميع. استلم ما تبقى من رأس مال الصندوق واشترى البضاعة، بعدها حوّل إحدى غرف العمال بالورشة العمومية إلى كائنين. بضع موافقات شفوية من المسؤولين، تمت بعد مباركة المهندس نبيل للمشروع الخيري، وبدأ العمل، ثلاثة دوايب قديمة حوّلها الخراطون واللحّامون في ساعات قليلة إلى استاندات لعرض البضائع، كانت كافية ليتم الافتتاح.

الضخم نجح بامتياز، فبعد أربعة أشهر فقط أرجع لإدارة الصندوق أصل المبلغ بالكامل، وفي نهاية كل شهر يُسَلِّمهم الأرباح. قواعده في إدارة الكائنين أتت بثمارها، رغم الاعتراضات التي لاحقته في البداية.

- الشكك ممنوع. آخذ الفلوس في أيدي قبل ما تمد إيدك وتأخذ حاجة. آه كل صنف أغلى نص جنيه، ما هو مش

الجمعية التعاونية اللي في بلدكم، ده صندوق يتامى، احمدوا
ربنا إنكم بتلاقوا أكل وشاي في وسط الصحرا.

جسده المفتول العضلات وصوته العالي وطريقته الخشنة في
الحديث، ولكماته القوية التي يستخدمها إذا ما تأزم الوضع،
جعلت الجميع يلتزم بالقواعد. بفضل سياسات الضخم انتعشت
موارد الصندوق فتغيرت لائحته، تضاعفت المبالغ التي تُصرف في
حالات الوفاة، وأضيفت منحتان جديدتان تُصرفان للأيتام قبل
دخول المدارس وفي بداية شهر رمضان.

(6)

شقة المنايفة تحتوي على ثلاث غرف وستة أسرة وخمسة من السكان، كل اثنين منا في غرفة، وممدوح البطل يحتل الثالثة بمفرده، ربما حصل على غرفة مستقلة بحكم كونه أكبر سكان الشقة سنًا وأقدمهم في العمل بالجمع، وربما لا أحد يريد رفقته فبقي وحيدًا مضطرًا.

ممدوح من قرية ملاصقة لقريتي، بمجرد أن حصل على دبلوم الصنایع ترك قريته وسافر إلى أعمامه بالخليج، عشر سنوات قضاهها هناك، نجار باب وشباك ممتاز، هكذا يقول الجميع، عاد من الغربية فشيّد بيتًا وأسس محلاً للنجارة ولوازمها. استقر في قريته ولم يكن ينتوي الغربية ثانية، إلى أن عرض عليه أحد أقربائه أن يوظفه بالقاهرة، الوظيفة الحكومية أغرته فشد الرحال إلى العاصمة.

- عشان المعاش للعيال، لو الواحد حصله حاجة، الشغل الحر مش مضمون.

وصل إلى هنا فتبددت أحلامه، اكتشف أن العمل بالجمع ليس حكوميًا وإنما مع مقال، محاولة تلو الأخرى وأقارب يتصلون ومعارف يترجون، حتى لان المهندس نبيل ونقله للعمل بوظيفة أخرى، طبعًا لم يوظفه في جهاز المدينة، فالقواعد راسخة، ولكن كثرة إلحاح ممدوح جعلتها مرنة بعض الشيء. عيَّنه في إحدى

شركات التشغيل الخاصة، عمل ليس حكوميًا ولكنه يشتمل على تأمين صحي واجتماعي.

مع مرور الوقت حصل البطل على بعض الامتيازات: غرفة بمفرده في السكن، استقلال الأوتوبيس المخصص لموظفي الجهاز من أبناء محافظتنا "خط القاهرة - المنوفية"، ويوم إجازة إضافية خلاف الجمعة والسبت نظير عمله نوبتجيات مسائية في المجمع.

مدوح البطل فني ميكانيكا في المجمع بحكم الدبلوم، وفي قريته نجار، يغادر المجمع يوم الأربعاء بعد انتهاء الدوام، وبمجرد أن يصل إلى قريته يتوجّه للورشة، يراجع الحسابات مع أخيه ويبدأ في العمل.

- الشغل في المحل بالنص، أنا 3 أيام وأخويا 3 أيام، والمكسب أنا الثلثين وهو التلت، ده حق ربنا، ما أنا صاحب المحل والعدة.

مدمن عمل، صباحًا في المجمع ومساءً في شقق المدينة، وأيام إجازته يقضيها بالمحل.

- لو الواحد ارتاح وبطل شقى هيموت.
يقولها فينقبض قلبي ولا أرد.

مدينة رائعة تشبه المدن الأوروبية التي أراها في الأفلام، ينقصها ثلوج تتساقط من السماء وبعض من أصحاب الشعر الأشقر

لتصبح مثلها بالضبط، تلك كانت ملاحظتي الأولى بعد أن سَرت في شوارعها لساعات طويلة أدوّن وأحصُر.

فيلات ضخمة وشوارع عريضة مُزينة جوانبها بالأشجار ذات الورود، مسطحات وأحزمة خضراء تُروى بأحدث طرق الري وتُشدّب بإتقان، فتشعر من فرط استوائها أنها اصطناعية، سيارات فارهة تتهادى في الطرقات وممرات خاصة لسائقي الدراجات، ومربيات آسيويات يصطحبن الأطفال للتنزّه. مدينة بُيّت للفقراء فسكنها الأغنياء.

- هما كام بلوك بنوهم للغلاية وعملوا عليهم قُرعة، واللي رسيت عليهم الشقق باعوها واستفادوا بالملكسب.

قالها ممدوح البطل، وبعدها هرولنا خلف الأوتوبيس لنلحقه. لم أخرج من المجمع إلا للعمل، لم أحضر إلى هنا للتنزّه؛ لا أريد أن أستكشف أو أتأقلم أو أنسجم، جئت إلى هنا من أجل العمل ليس إلا.

في ذلك اليوم اتصل بي ممدوح وطلب مني أن ألقيه عند موقف الأوتوبيس. "رايحين مشوار". تحججت بالعمل كي أتهرّب من الخروج، فأخبرني بأن حضوري مهم وأنه استأذن المفاوض لأنصرف. عمي البطل يضع الخطط وينبغي أن أنفذها.

خرجنا من المدينة وتوجهنا إلى منطقة إمبابة، أخبرني ونحن في الطريق بأن أخاه يستقر هناك منذ زمن ويمتلك محلاً للأثاث والموبيليا. بعدما وصلنا وشربنا الشاي صحبنا أخوه إلى قسم الشرطة.

بادر البطل بالحديث: زميلنا بطاقته ضاعت وعازين نعمل محضر.

نظر إليّ أمين الشرطة، وقبل أن يبدأ بالأسئلة ألقى البطل بورقة من فئة خمسين جنيهاً في درج مكتبه المفتوح، دقائق وخرجنا من القسم ويدي محضر مُذَيَّل بخاتم شعار الجمهورية، وفي جيبي بطاقتي، بعدها صحبني إلى مكتب سمسار عقارات في الجوار، أعتقد أنه صديق للبطل، فبمجرد أن دلفنا إلى المكتب تعانقا، سلّمه البطل النقود واستلم منه عقد الإيجار وإيصال الكهرباء، تأكد من الأوراق ثم انصرفنا.

أصرّ أخوه على دعوتنا إلى الغداء بمنزله.

- معلى الجايات أكثر من الراجحات؛ الطريق طويل ولسة قدامنا مشوار تاني.

تركنا أخوه لدقائق وبعدها عاد حاملاً شنطة مليئة بالسندوتشات، تركها لنا وانصرف، قبل الساعة الثانية ظهرًا بعشر دقائق كنت أقف أمام موظف السجل المدني. فحص الموظف

الأوراق بدقة وتأكد من وجود خاتم شعار الجمهورية على محضر
الفقد، طابق العنوان المدوّن بعقد الإيجار بإيصال الكهرباء، وفي
الأخير استلم الأوراق وأعطاني إيصالاً مهوراً بتوقيعه، محدداً به
موعد استلام البطاقة الجديدة.

- ألفت مبروك يا عم كمال، بقيت من سكان القاهرة الكبرى
رسمي.

قالها البطل ونحن في طريق عودتنا إلى المجمع.

جميع بلدياتي في المجمع يمتلكون بطاقتي تحقيق شخصية بمحلين
مختلفين للإقامة، الأولى بالعنوان الحقيقي والثانية بمحل إقامة آخر
في العاصمة. السبب في ذلك أن أغلب الشركات التي تتولى أعمال
المرافق في المدينة تشترط بأن يكون العاملون من سكان القاهرة
الكبرى، شرطاً من شروط التعيين.

- وكمان عشان التقديم في الشقق.

قالها ممدوح البطل بلهجة العارف ببواطن الأمور.

أحلامي تبخّرت، فليلي بعيدة رغم القرب، اللقاءات أصبحت
رسمية والمكالمات التليفونية لا تتجاوز السلام والسؤال عن الأحوال،
حوارات افتراضية أولفها في خيالي، أغيّر وأبدّل فيها حتى أستقر، ثم
أجلس بالساعات لأحفظها، وبعدها أتصل. بمجرد أن ترد ليلي
"آلو.. إزيك يا كمال؟"، تطير الكلمات من عقلي وأصير أبكم،

أجاهد وأحايل لساني لينطق، فيخرج كلامي متقطعًا، جُمْل تتكرر
فتفقد معانيها.

- إزيك؟ عاملة إيه؟ إيه أخبار المذاكرة؟

ترد ليلي باقتضاب، فأياس وأهي المكالمة.

أعود إلى قريتنا لأطارد أحلامي المؤجلة، أصعد إلى ليلي لعلني
أقترب، لكن الباب المفتوح ونظرات عمتي المصوّبة دائمًا باتجاهي
تجهض تمنياتي في مهدها. كل شيء أصبح رسميًا منذ أن تمت
الخطبة، أصعد مُحملاً بأكياس الفاكهة فتقابلني أم ليلي بالترحاب.
لست متعودًا على ذلك، الابتسامة المرتسمة على شفتي عمتي
وصوتها الخفيض وضحكتها التي تنطلق بعد كل جملة أقولها، تشعرني
بأنني غريب، ضيف أتى فوجب على الجميع أن يتصنّع الاهتمام.

حتى ليلي لم تعد كما كانت في السابق، "أتوحشك يا عود
القصب"، أفتقد نظرة عينيها عندما تراني على باب شقتهم وهروبها
من أمامي، أشتاق إلى خجلها بعدما تعود والطرحة تطوق رأسها،
حتى تنمّرها وغضبها كلما قالت لها فتنة "عروسة كمال" أفتقده.

منذ أن حُطبتنا وكل شيء تغير، أجلس في غرفة الصالون
كالأغراب، تلاحقني أم ليلي بأكواب العصير وأطباق الحلوى،
وكأنني خروف تُسمّنه استعدادًا لنحره في العيد. وقت يمر وكلمات
تكررها على مسامعي عشرات المرات.

- إزيك يا كمال؟ كيف أحوالك؟ الشغل تمام؟ وحشتنا والله.
لا أفهم أتكورها للتوكيد أم لتمرير الوقت حتى تحضر الغائبة.
أراها قادمة فأشك أهي حقيقة أم سراب العطشى إلى الماء.
تقترب من باب الغرفة فأتيقن أنها حقيقة، تشرق ليلى فتتير المكان،
كل ما عاداها يتلاشى وكأنه لم يكن، الصالون الذهبي، المنضدة،
الأكواب والأطباق، حتى عمي تختفي.
تُحيني فيعجز لساني عن الرد وأومئ لها برأسي، تجلس في
مواجهتي وتبتسم، أحاول أن أستفيق من سكرتي، أجمع الكلمات
المبعثرة في دماغي، لكن قبل أن ينطق بها لساني يخرق أذني صوت
أم ليلى.

- تشرب إيه يا حبيبي؟

لا أعرف يقيناً السبب في ارتباكي، أهو الباب المفتوح وأم ليلى
التي بالخارج تراقبني، أم خطيبي التي أصبحت رسمية. جلباب البيت
لم تعد ترتديه في حضوري مُطلقاً، طرحتها لم تعد تنزلق كالسابق،
ومساحيق وجهها زادت وأصبحت واضحة. ربما مظهرها الذي
أصبح مطابقاً لبنات الجامعة هو ما جعلني أتلعثم.

عشاء يوضع وخروف تعلفه أم ليلى ليسمن، وبعدها أحمل
خبيتي وأودعهما، أهبط إلى شقتنا وأستلقي على سريري علّ ليلى
تأتي في أحلامي ونقترب.

أحلامي مؤجلة إلى حين.

- هتأخذوا على بعض بعد الجواز، وهتزهقوا من كتر الكلام.
تقولها فتنة لتواسيني فيزيد غضبي، فأم ليلي حكّت لها كل
شيء.

- الواد واكل سد الحنك، بفضل الأغي فيه وأفتح مواضيع
ومفيس فايده. الاتنين قاعدين مع بعض زي الخرس.
الزواج مؤجل حتى تنهي ليلي دراستها. قرار أم ليلي لا يقبل
النقاش، حاولت فتنة كثيراً أن تثنيها ولكن بلا جدوى.
أختي تشعر بما أنا فيه فتصرف كعادتها.

- كمال عايز يشتري جزمة وشنطة ليلي ويعزمها على الغدا
في شبين.

وافقت أم ليلي بصعوبة، وبعدها وضعت الشرط: هتروحي
معاهم يا فتنة.

خرجنا نحن الثلاثة، وعند موقف الميكروباص ودّعنا فتنة،
أخبرتنا بأنها ستعود لمنزها، وقرب أن نعود من شبين نتصل بها
لتوافينا في الموقف.

- أجيلكم ونركب مع بعض توكتوك لحد البيت، عشان أم
ليلي متشكّش في حاجة.

أنا ولىلى وحدنا، أجلس بجانبها وكنفي تلامس كتفها كيوم
خطبتنا، تتحرك العربية فتتوارى قريتنا وننطلق إلى عاصمة المحافظة.
السير برفقة فتاة للمرة الأولى جعلني أنتشي. غريان في مدينة لا
يعرفنا فيها أحد، ربما هذا ما حرّني وجعل لساني ينطلق بالحديث،
صحيح كلماتي غير مُرتبة كما في الأحلام، ولكنها خرجت على
أي حال. حُمرّة وجهها وعيناها اللتان تتهربان من نظراتي أشعرتني
بالظفر. تشجعت وطبقت على يدها بأصابعي ثم طرحت عليها
السؤال:

- بتحبيني زي ما بحبك؟

نظرت في الأرض ولم ترد؛ كررت سؤالي وهي تحاول أن تسحب
يدها. ضحكْتُ وضغطتُ بأصابعي أكثر.

- ما أنا مش هسيب إيدك إلا لما تردي.

أومأت برأسها: خلاص سيب بقي ما أنا رديت.

أغمضت عيني: ما أنا مش بشوف، أنا بسمع بس.

- فتح عينك العربيات هتخبطننا، خلاص أنا كمان بحبك.

قالتها بسرعة وبعدها سحبت يدها.

اكتشفت أنني الوحيد الذي اكتفى بالعمل الصباحي فقط،
جميع بلدياتي بمجرد أن ينتهي دوام عملهم بالجمع، ينطلقون إلى
أعمال أخرى بالمدينة.

نجار وحارس أمن وطباخ وبائع ملابس هم زملائي في السكن،
تقابل وقت الغداء وبعدها يرحل كل منهم إلى عمله، وأبقى
وحيداً، يعتبروني مجرد عاطل يستفيد بالامتيازات، فيثقلون كاهلي
بالمهام المنزلية، الطباخ يعود من عمله بعشاء مجاني للجميع،
والنجار يُصلح أثاث الشقة المتهالك، وحارس الأمن وبائع الملابس
يحضران لنا من خيارات المول ما استطاعا. يحثني ممدوح البطل دائماً
على العمل.

- المول مليون شغل وفلوسه حلوة، بلدياتك كلهم شغالين
هناك.

مهما أبرد وأشرح له أسباب رفضي للعمل لا يقتنع. مرتبي
يكفي ويزيد عن حاجتي، ثلثه يُخصم نظير الأكل والصناديق،
والباقي أودعه في دفتر التوفير الذي تضحّم، السير في شوارع المدينة
يوميًا لساعات طويلة لإتمام مهام التدوين والحصر يستنزف طاقتي
بالكامل. عمل سهل لكنه مُرهق، زاد من نحافتي وأبرز عظام
وجهي وكساه سُمره. بمجرد أن ينتهي دوام عملي أهول إلى السكن
لأرتاح، جسدي لا يتحمّل أن أعمل بوظيفتين مطلقاً.

التفكير في ليلي ومشاهدة التلفزيون والقيام بالأعمال المنزلية،
تلتهم الوقت حتى أنام. في كل ليلة أحلم بيوم عودتي إلى قريتنا،
بليلى التي تنتظرني هناك، بالباب المفتوح ونظرات عمتي، بوعده فتنة
لي بفسحة أخرى مع ليلي في شبين، بالأخرق وخططه التي فشلت

وإلحاحه أن أقابله عند عودتي، أحلم ببطاقتي الجديدة وعنواني
القاهري.

دائمًا ما يفسد البطل حلمي، إما أن يوقظني قبل أن ينتهي
الحلم، وإما يظهر في منامي ويوبخني.

- شوفلك شغلانة واسعى على أكل عيشك أحسن من
قعدتك في البيت قدام التليفزيون زي الحریم.

- معاك خمس تلاف جنيه؟

قالها البطل فظننت أنه ظهر في حلمي كعادته. كرر سؤاله
ولكرني في ظهري كي أستفيق: معاك فلوس ولا لأ؟
أجبتة بنعم وأكملت نومي، رشّ وجهي بالماء: صحصح وفوق
يا كمال عشان رايجين مشوار.

بعدها اصطحبني كالعادة لئنفيذ خططه.

طابور تلو طابور حتى أنهيينا المهمة، بدأنا بطابور السجل المدني
لأستلم بطاقتي ذات العنوان الجديد، وبعدها طابور مكتب البريد
لنسحب المبلغ من حسابي هناك، وانتهينا بطابور طويل وقفنا به
لقرب العصر حتى أنهيناها.

لافتة على مرمى البصر أراها. ساعات تمر وطابور يتحرك ببطء إلى أن ظهرت اللافتة بوضوح يسمح لي بقراءة الكلمات المدوّنة عليها، "شقق الإسكان الاجتماعي لأبناء محافظة الجيزة".

يتركني البطل ليستكمل الأوراق ويعود بين الحين والآخر ليطمئنني.

- تعب يوم ولا تعب كل يوم يا كمال، فرصتك كبيرة، عنوان بطاقتك الجديدة على محافظة الجيزة، ومكان شغلك في نفس المدينة اللي فيها الشقق.

أخبرني بأنه قد جهّز إفادة من المجمع، بأني من العاملين به، وأسكن في استراحات الموظفين، لحاجة العمل لي على مدار اليوم. قال بثقة: اطمئن.. المهندس نبيل موصي الناس هنا عليك.

حكى لي البطل بأن أغلب بلدياتي في السكن قد حصلوا من قبل على شقق الإسكان الاجتماعي بنفس الطريقة. عنوان قاهري وإفادة من المجمع وتوصية من المهندس نبيل ويتم الأمر.

أنهينا الطابور وسلّمت أوراقى وسددت المبلغ، بعدها أعطوني ورقة، قال البطل وهو يشير إلى الورقة التي طويتها:

- إيصال السداد ده حافظ عليه، عشان أول ما الشقة تتخصصلك هتبيعه بـ 25 ألف جنيه.

لم أعرف بماذا أرد، فأومأت برأسي وتمتمت.

زيارتي إلى قريتنا أصبح لها طعم مختلف بعد رحلة شبين وتحرري أنا وليلى من خجلنا. وأنا في المجمع أنتظر بفارغ الصبر أن يأتي يوم الخميس لأرحل وألاقي حبيتي. الدقائق القليلة التي أهاتف فيها ليلى تهون ساعات الليل الطويلة في السكن، صحيح لساني لم يتحرر بالكامل، ولكن بت أقول لها أحبك، ولا أنهي المكالمة إلا بعد أن تكررهما على مسامعي، تقولها بصوت خفيض ثم تغلق الخط في وجهي.

محاولات فتنة باءت بالفشل؛ أم ليلى رفضت أن نذهب معاً خارج حدود البلدة مرة أخرى، أصبحنا نتصنع الحجج لنهرب من عمتي وبابها المفتوح ونظراتها المتلصصة، مرة بحجة إصلاح موبايل ليلى، ومرة لشراء لوحة مفاتيح أو فأرة للكمبيوتر. فتنة تتصنع مراقبتنا لتطمئن أم ليلى.

- هنصلح الموبايل عند حامد جوزي في المحل، وأنا مش هسيبهم، رجلي على رجلهم.

معرض "حامد أبو رضا وشركاه للأجهزة الكهربائية وأجهزة المحمول" كان واجهتنا الدائمة، تُرافقنا فتنة وبمجرد أن نغيب عن نظر أم ليلى الواقفة في الشباك تتركنا.

- هخلص مشوار كده وأستناكم عند حامد في المعرض، ساعة زمن وألاقيكم قدامي.

"الأونطجي" .. هكذا تسمي أم ليلي زوج فتنة، خطف قلب أختي منذ لقائهما الأول، رفضت الكثير من طالبي الزواج حتى أتى حامد، وافقت عليه رغم ظروفه المادية المحدودة وعدم امتلاكه لشقة.

- هعيش معاه ولو في أوضة.

قالتها فتيقنت عمتي بأنها لن ترضى بغيره، وأفنتع أبي بإتمام الزواج رغم ترددده.

حامد الأونطجي من القلائل الذين اختاروا بكامل رغبتهم العيش في قريتنا، لم تُعَرِّه العاصمة على الإطلاق، أنهى دراسته الجامعية وعُيِّن بعدها في المجمع الاستهلاكي بالقرية، وظَّفَه نائب دائرتنا في البرلمان بعد جهوده منقطعة النظير في انتخابات مجلس الشعب، فحامد شُعلة من النشاط تمشي على قدمين، يجيد الإقناع والحشد والهتاف، ولهذا حاز عضوية الحزب. بدأ عمله الخاص بعد أن تزوج فتنة مباشرة، باعت ذهبها وتنازل هو عن نصيبه من إرثه لأخيه، وأتموا المشروع. رفضت فتنة أن تشاركه، قالت "أنا وإنت واحد"، لكنه أصر وأضاف اسمها في الأوراق.

بيع الأجهزة الكهربائية بالتقسيط تجارة مربحة في قريتنا، عرفت ذلك بعد أن رأيت تجارة حامد تتوسع وتشمل الموبايلات وأجهزة الكمبيوتر والملابس. بعد خمس سنوات فقط من العمل، اشترى حامد قطعة أرض وبني البيت.

- رضا الله ومباركة سيدي أمير الجيوش ومجهود حامد والتزامه، هو السبب في اللي إحنا وصلناله.

هذا ما قالته لي فتنة يوم افتتاح المعرض الجديد. على مساحة الدور الأرضي بالكامل شيد المعرض. فوّه دؤران، الأول مخزن للبضائع والثاني تسكنه فتنة وزوجها.

جلساتي مع حامد قليلة، نتقابل فقط يوم عزومة الخميس الأسبوعية، نِكَاته وففشاته تُضحِكنا جميعًا، لكن عندما يترك الهذر ويتكلم في السياسة أفكر في أي حجة لأهرب من أمامه.

- الله يسجّر من عباده أناسًا لقضاء حوائج الناس.

يقولها فأعرف بأن الحكاية ستُتلى للمرة الألف. يتكلم بمرارة عن جهوده التي لا يقدرها قيادات الحزب في المحافظة: ابن الريس عايز ينصّف الحزب من جؤاه ويدي فرصة للشباب، لكن دول حيتان ولاد كلب مبيشبعوش ويحاربوه، إن شاء الله ربنا هينصره وهناخد فرصتنا قريب ونخدم ولاد بلدنا.

أحاول أن أغير مجرى الحديث.

- سيبك من السياسة ووجع القلب وروح القاهرة عند أعمامك افتح معرض هناك.

يرد بأنه لن يذهب إلى العاصمة إلا لحضور جلسات البرلمان.

- بكرة يا كمال هبقى سيادة النائب، وأجيلكم البلد في الأعياد والمناسبات وبس.

يقولها فنضحك ونعود لحوار الهدر.

نصل إلى معرض حامد فتقابلنا فتنة مكشرة؛ تأخرنا كالعادة وأم ليلي تلاحقها بالمكالمات. يلطف حامد الأجواء ويصر على إهداء ليلي موبايلاً جديدًا، يقول: "ده هدية كمال ليكي مش هديتنا"، قبل أن أرحل يذكرني بموعد الانتخابات.

- لازم تيجي، نسيك بقى أمين التنظيم في البلد وقريب هيبقى عضو مجلس المدينة.

أعده بالحضور وأصبح ليلي وفتنة للعودة.

الأخرق ظهر من جديد، حضر إلى أسفل منزلنا بعد أن يأس من عدم ردي على مكالماته، عندما عدت وجدته بانتظاري. أحضان وسلامات أعقبها حديث ضاحك عن ذكرياتنا في المدينة الجامعية، ثم دخل في الموضوع.

- إيه أخبار الشغل في الجمع، عشان أبويا كلم المهندس نبيل واحتمال أجيلكم الأسبوع الجاي.

ساعة كاملة يطرح عليّ الأسئلة وأنا أجيب.

أين تقع المدينة؟ كيف يصل إلى هناك؟ ما نوع الأعمال؟ المرتب؟ بعدما انتهى سألتته ضاحكًا:

- وفيين شغلة البترول اللي كنت مزهقنا بيها أيام الجامعة؟
سحب نفسًا من سيجارته ذات الدخان الأزرق، وصمت برهة
وكانه يفكر في إجابة، ثم انطلق في حديث طويل عن أبيه الذي
خيَّره بين وظيفة شركة البترول والزواج المبكر.
تكاليف تشطيب الشقة وإقامة العرس تساوي المبلغ المطلوب
لتعيينه. قال أبوه: لو عايز أشغلك في البترول هشغلك، بس الجواز
يتأجل لحد ما تحوِّش فلوس تكفي مصاريفه.
الأخرق اختار أن يُكمل نصف دينه، يبرر أسباب اختياره
للزواج، بالرغم من أنني لم أعترض. ينفث دخان سيجارته ويتلو
الأحاديث النبوية.

- النبي قال من استطاع منكم الباءة فليتزوج.
يتحدث عن تحمل المسؤولية والاستقرار وتكوين أسرة، ثم
يتحول المسار تدريجيًّا إلى الحديث عن الرغبة والجسد الفائر وحرارة
الشباب. يُدكِّرنِي بحكايات الستارة في المدينة الجامعية، وتأجير
الأسطوانات والأشرطة الجنسية، يطيل الحديث عن ذكرياته مع فتاة
التوكتوك التي رحلت عن قريتنا بعد أن أدمن لقاءها.
- المجمع هينور.

قلتها لأنهي اللقاء ورحلت.

(7)

حضر الأخرق إلى المجمع فبدأت المشكلات في الحدوث، أتى ومعه البرق والرعد والعواصف والأمطار، وكان الطبيعة تعلن بأن الأيام القادمة عاصية.

بعدما استلم العمل جاء الاتصال، المهندس نبيل شخصياً هاتف ممدوح البطل، مكالمته ظاهرها توصية وباطنها تحذير.

- الواد لسة صغير وطايش وأهله موصيّي عليه. خد بالك منه يا ممدوح.

جاءت التعليمات بأن يسكن الأخرق بشقة رقم سبعة، لا أعرف أهو من طلب ذلك ليكون بجاني، أم أن المهندس نبيل أراد أن يسهل مهمة البطل، فأرسله إلى شقتنا ليكون تحت نظره طوال الوقت. انتهى المطاف بالأخرق بالسكن في شقتنا، بالتحديد في غرفة ممدوح البطل.

تلبّدت السماء بالغيوم يوم أن حضر المقاول إلى شقتنا، أخبر البطل بأن الأخرق دائم الغياب.

- الواد يوم يبجي ويومين يغيب، واليوم اللي نشوفه فيه يزوّغ قبل الضهر.

في ذلك اليوم لم يخرج البطل لعمله المسائي كالعادة، بقي في المنزل منتظراً عودة الأخرق.

بعد منتصف الليل بقليل عاد، ثم بدأ المطر بالهطول. النبرة الخشنة التي استخدمها البطل في الحديث لم تُرهّب الأخرق، صوت غليظ قوبل بصوت جهوري، فظن الجميع بأن في شقتنا مشاجرة، صعد مَنْ في الأسفل وهبط من بالأعلى، فتحوّلت صالة المنزل إلى حلبة يحيط جوانبها المتفرجون، اشتد المطر وأنار البرق السماء، ثم أتى الرعد ملازمًا لصياح الأخرق بجملته الأخيرة:

- وإنّ مالك أروح الشغل ولا مروحش؟ متحشرش نفسك في اللي ملكش فيه عشان متسمعش كلام يزعلك.

عمّ السكون بعدها إيدانًا بانتهاء الجولة، وانصرف الجميع إلى سكنه.

كلمات كالحجارة يقذفها الأخرق على الجميع، وكأنه مُصِر أن يستعديهم، كالمغرّد خارج السرب أصبح، يقضي أغلب يومه في التسكع بالمدينة، يوقّع صباحًا في دفتر الحضور بالجمع ثم ينطلق إلى الخارج، ولا يعود إلا وقت النوم. حضوره إلى المجمع لم ينه وحدتي كما تمنيت، لا أعرف أين يذهب ولا متى سيعود، ومع من يقضي كل ذلك الوقت. لا أفهم لماذا يترك العمل وكيف لم يجازه المقاتل حتى الآن! أستغرب كيف لم يعرض عليّ مرافقته في سهراته كالماضي.

في إحدى المرات وبعد أن تركني الجميع وانطلقوا إلى أعمالهم المسائية اتصلت به، علّه يدعوني لأرافقه، فالملل يقتلني. لم يعرض

عليّ أن ألقيه في الخارج، وإنما سألني: هل البطل موجود؟ عندما أجبته بالنفي قرر أن يعود ليقضي سهرته معي بالمنزل.
قبل أن أوجّه إليه الأسئلة بادر بتقديم الإجابات.

- كان لازم أعمل النمرة دي، عشان كل واحد يخليه في حاله. يا عم متقلقش عليّ أنا مظبّط كل حاجة، الواد بتاع الأمن حبيبي مش بيسجل في الدفاتر إني بخرج من المجمع، يعني كله ميري. المهندس نبيل عضمة جامدة قوي يا كمال، والمقاول ميقدرش يكح ويرفدني، آخره يروح للبطل ويشتكى زي النسوان.

الأخرق يشعر وهو في المجمع بأنه لم يغادر قريتنا، لذلك يرحل، أخبرني بذلك بعد أن سألته عن سر غيابه المستمر، في الصباح يتجوّل في الشوارع ويذهب إلى المول الضخم بالمدينة، وليلاً يقضي سهرته مع بعض العاملين بالمحال القريبة من المجمع، أو يذهب إلى أصدقائنا بشقة العزاب.

كقنبلة ألقيت وسط الجموع ولم تنفجر، صحيح لم يتأذّ أحد ولكن الارتياح والخوف تملكا من النفوس وكمنا، كان ذلك أول ما تبادر إلى ذهني يومها.

الأخرق توجه إلى الصرّاف لاستلام راتبه. أخبرني زملائي بذلك فهرعت إلى هناك. لا أعرف لماذا لم أخبره بالقواعد، أهو تمّي من

ساذج بمرور موقف كهذا بسلام، أم رغبة خبيث في قبلة تنفجر
فتنسف القواعد إلى الأبد؟

ردة فعله كانت متوقعة، ثار وهاج، سب ولعن وكاد أن يشتبك
مع الصراف لولا تدخُّلنا، ما أدهشني هو ما فعله بعدها، لم يتوجَّه
إلى شقتنا ويتشاجر مع ممدوح البطل، وإنما جلس في مواجهة
الصراف وتحدث معه بهدوء.

- اسمي في كشف المرتبات صح؟

جاوبه الصراف بالإيجاب.

- أنا موقَّعتش قدام اسمي، يبقى مين اللي مضى مكاني وخذ
الفلوس؟

أخبره الصراف ثانية بأن ممدوح البطل هو من يتسلم رواتب
جميع من في الشقة. كان رد الأخرق مفاجئاً:

- ده تزوير في أوراق رسمية، يا إنت حرامي وزورت إمضائي، يا
إنت مهممل وصرفت مرتبي لحد تاني بالغلط، يبقى لازم
تتصرف وتجييب الفلوس عشان ميحصلش مشكلة، سهل
إني أعمل محضر في القسم وأقدم شكوى كمان في جهاز
المدينة.

ألقي الأخرق بالحجر وبعدها صمت. تكلم الجميع وهو ودن
من طين وأخرى من عجين. مداولات استمرت أكثر من ساعة،

والأخرق على موقفه، إلى أن اتصلوا بممدوح البطل ليأتي ويحل الأزمة، حضر والجميع منتظر أن تبدأ المشاجرة، ولكن ما حدث خيَّب آمالهم. البطل اعتذر للصرَّاف وقبَّل رأسه ثم سلَّمه رواتب جميع من في الشقة، وبعدها انصرف.

يوم كئيب قضيته، وحيدًا كالعادة. البطل فور انتهاء الدوام غادر المجمع، لم يصعد إلى شقتنا كالمعتاد ليُعدَّ الغداء ويوزع المهام. الأخرق هو الآخر اختفى بعد أن تسلَّم مرتبه. زملائي في السكن أصابهم الخرس، وعندما حان موعد عملهم المسائي رحلوا. أتصل بالأخرق فلا يجيب، أهاتف البطل فأجد تليفونه مغلقًا، ساعات طويلة أقضيها في التفكير فيما حدث وما سوف يحدث.

قبل منتصف الليل حضر الجميع عدا الأخرق. البطل دلف إلى غرفته دون أن يلقي السلام، وبلدياتي جلسوا إلى جوارتي بالصالة. لم يستغرق اتخاذ قرار كهذا سوى دقائق، بعدها توجهنا إلى غرفة البطل وسلمناه كامل رواتبنا. انصرفنا بعدها إلى غرفنا دون أن يتفهَّوه أحدنا بكلمة.

زادت الشكاوى من أفعال الأخرق، وجميع من في المجمع ينتظر أن يبلغ البطل كبيرنا المهندس نبيل بما يحدث. آخر حدود بلدياتي هو الشكوى لكبراء الشقق، وهم وحدهم المنوطون بالتصرف.

سكان عمارة المنايفة فاض كيلهم، زميلنا حارس الأمن بالمول يشكو مُر الشكوى من الأخرق.

- طول اليوم عمّال يلف في المول وعينه مبتزلش من على الستات، فضل ماشي ورا واحدة زي الحمار، راحت داخله مكتب الأمن تشتكي، والبهم فضل واقف برة مستنيها.

لولا وجود زميلي هناك لحدثت أزمة. اعتذر للسيدة، وأخبرها كذبًا أن الأخرق يعمل بمطعم المول وما حدث كان صدفة. وزميلنا الطباخ قلق من صداقة الأخرق للعاملين بالمحال المجاورة للمجمع: دول عيال ولاد كلب شمامين، خايف يعلموه البلطجة وشرب المخدرات.

وعم الشيخ أحمد يقسم بأنه رأى الدخان الأزرق يتصاعد من سيجارة الأخرق، لمح وهو ذاهب إلى المسجد ليصلي الفجر: الأذان بتاع ربنا شغال، والبيه مستخبي ورا الورشة بيحشش.

حدث يليه حدث، والبطل يستمع فقط ولا يُعقب، حتى رفض الأخرق للاشتراك في صندوق اليتامى مر بسلام، أحاول أن أثني الأخرق وألطف الأجواء، لكن ردّه القاطع يدفني لعدم تكرار المحاولة ثانية.

- يا عم أنا مش هدفع قرش في صناديق. لما أموت مش عايز حد يدي لأهلي جنيه. مش عايز آكل معاكم، يا عم أنا حر، دي لوكاندة للنوم مش بيت عيلة.

الكل يعرف بأن النهاية باتت قريبة، ولكن لا أحد يريد أن يكون سببًا في إنهاء خدمة الأخرق ورفده من المجمع. نعلم أنه بمجرد وصول الأخبار للمهندس نبيل سيطرده فورًا، وربما يتصل بأهله ويُعَنِّفهم.

لا أعرف سببًا لصمت البطل حتى الآن، أهو صبور إلى تلك الدرجة ويخشى مثلنا على مستقبل الأخرق من الضياع، أم أنه صمت الضباع الذي يسبق الانقراض على الفريسة؟

قبل بزوغ الشمس استيقظت. طرقتُ على الباب أعقبه أنوار نضاء وأصوات عدة تتناقش، أجبروني على الصحو والقيام من سريري، صالة شقتنا تحولت إلى سوق مزدحمة، أغلب سكان العمارة متجمعون، جميعهم يتحدث في الوقت ذاته فلا أفهم، ما ميزته هو صوت ممدوح البطل الغليظ وهو يقول: كل مشكلة ليها حل يا إخوانا، متقلقوش أنا هتصرف.

قالها ثم غادر الشقة وتبعه الجميع. أنظر من البلكونة فأرى جمعًا يحيط بالأخرق، دائرة مغلقة هو في منتصفها، كالبقرة التي يحيطها جزارون تمهيدًا لذبحها، يحاول الهروب والولوج إلى خارج الدائرة، لكن الأيادي الكثيرة تصده.

بمجرد أن ظهر البطل متقدمًا سكان العمارة انسحب أحدهم من الدائرة واستقبله، الفناء المقابل لعمارة المنيفة تحوّل إلى ملعب، مربع تحيطه الجماهير من كل جانب، بداخله دائرتان، دائرة بداخلها الأخرق والأخرى بداخلها ممدوح البطل ومسؤول الأمن بالمجمع، الأولى يحيطها أفراد الأمن لمنع الأخرق من الهروب والثانية يحيطها كبراء الشقق.

الأخرق ضُبطَ متلبسًا بسيجارتني حشيش، واحدة مشتعلة والأخرى في جيبه، داهمه أفراد أمن المجمع وهو يدخن، كان منزويًا في ركن قصي خلف الورشة العمومية، تحفّظوا على المخدرات واقتادوه إلى أسفل عمارتنا.

أستمع لصوت ممدوح البطل الغليظ وهو يترجّى مسؤول الأمن لإطلاق سراح الأخرق، فأتذكر مسلسلات الراديو: حقلك علينا، عارف إن البلوة كبيرة بس بلاش توديه القسم، الولا مستقبله هيضع، عارف والله إنهم سيجارتين حشيش، يعني إبتجار مش تعاطي.

يصر مسؤول الأمن أن يأخذ القانون مجراه، إعداد محضر إداري بالواقعة، ثم اقتياد الأخرق إلى قسم الشرطة لتسليمه هو والأحراز المضبوطة، وقبل ذلك الاتصال بالمهندس نبيل لإخباره بفعلة ابن قرينه الشنعاء.

الأخرق يسب ويلعن ويتوعّد، كالثور الهائج يحاول النفاذ من بين الأجساد المتلاصقة، تمر الساعات فيتحول هياجه إلى استسلام، يجلس على الأرض في منتصف الدائرة ويكي، تسمع الأذان صوت النحيب فتخرس الألسنة. ينظر ممدوح البطل إلى الأخرق وبعدها يوجّه حديثه إلى مسؤول الأمن: طب عشان خاطري أنا سماح المرة دي، ولو البغل ده كررها أنا اللي هرميه برة المجمع.

وكأنها شفرة مُتفق عليها، فبمجرد أن أُنهي البطل جملته انفكت الدائرة من حول الأخرق، "عشان خاطرِك إنك بس يا بطل" قالها مسؤول الأمن بصوت عالٍ ثم رحل هو ورجاله.

- قوم اطلع السكن نام، البكا والولولة دول للحريم.

ألقي البطل بحجره فأصاب الأخرق، وبعدها توجّه إلى العمل.

منذ ذلك اليوم وشيء في داخل الأخرق قد انكسر، ظل يتسكّع في المدينة لكنه التزم في العمل، ولم يعد المقاتل يشكو من تزويغه، امتنع عن الذهاب للمول والسهر مع العاملين بالمحال المجاورة، عندما يمل من السير وحده في شوارع المدينة يذهب إلى بلدياتي في شقة العزاب.

عندما حان موعد استحقاق المرتب ذهب إلى الصراف وأخذ نقوده كالعادة، لكنه توجّه بعدها إلى شقتنا وترك اشتراك الصناديق على المنضدة ثم رحل.

الجميع متيقن بأن للبطل دورًا فيما حدث؛ أمن المجمع نادرًا ما يقوم بمرور ليلي، عمله منحصر في تسجيل أسماء الداخلين والخارجين من المجمع، وتدوين أرقام السيارات والمعدات. بلدياتي يؤكدون بأنه لم يجر تفتيش لأحدهم مطلقًا من قبل.

- إحنا بلديات مينفعش نفتش جيوب بعض، وبعدين إيه اللي يتسرق من المجمع؟! هنحط عريية ولا لودر في جيب البنطلون ونخرج بيهم؟!

وحتى لو حدث مرور ليلي، فعلى الأكثر سيقوم به فردا أمن أو ثلاثة، لكن أن يتحرك مسؤول الأمن ومعه جميع معاونيه فالأمر غريب، ويؤكد أن هناك إخبارية.

ليس بعيد أن يكون البطل هو من رسم السيناريو ونقّده بالتعاون مع مسؤول الأمن، ليكسر شوكة الأخرق إلى الأبد. أحد بلدياتي قال بأن الموضوع أكبر من ممدوح البطل، ولا بد أن المهندس نبيل كان على علم بكل شيء، فلا يستطيع أحد هنا أن يفعل شيئًا قبل موافقة كبيرنا القابع في جهاز المدينة، ربما الأخبار وصلت إليه فكان رحيماً ولم يفصل الأخرق من العمل، فقط كلّف البطل بأن يؤديه. هناك شيء خفي وراء ما حدث، لكن لا أحد يمتلك الجرأة ليواجه ممدوح البطل بشكوكه.

أيام رتيبة تمر وصديقي يبتعد أكثر فأكثر، البطل أصبح يتدخّل في كل كبيرة وصغيرة. لو تأخر الأخرق في النزول إلى العمل ولو لدقائق يلاحقه بالمكالمات.

- المقاول بيشتكي منك وعازب يبلغ المهندس نبيل وأنا مانعه بالعافية، بدّر شوية في النزول يا بيه وراعي أكل عيشك.
وإذا عاد الأخرق متأخرًا يبدأ البطل في إلقاء موشّحه الذي حفظناه من كثرة تكراره.

- الأمن واكل وشي، بيقولولي الرسمي إننا مندخلهوش المجمع بعد الساعة 10 بالليل، دي الأوامر اللي عندنا، إحنا بنستثنيه بس عشان خاطرك يا عم ممدوح.

شهر مر والأخرق على صمته. كنت أظن أنها استراحة محارب وبعدها يعود للنزال. أنتظر صوته الجمهوري وردوده القاسية وكسره للقواعد، تمنيت أن تنتهي الهدنة، لكنه خيّب آمالي ورحل.

حزم أغراضه وانتقل للسكن مع بلدياتي في شقة العزاب، قال لي إنه سيستمر في العمل بالمجمع لكنه لا يستطيع أن يبقى في عمارة المنايفة بعد الآن.

لا أعرف لماذا أصبح مزاجي متعكّرًا، لا أطيق المكوث مع بلدياتي في السكن، أفكر بين الحين والآخر أن أفعل مشكلة مع ممدوح البطل وأرحل أنا الآخر، سئمت من النصائح، كرهت

القواعد التي وضعوها ونفذها مرغمين، أشمئز من الجميع كلما تذكرت ما حدث للأخرق.

أحلم بأنني داخل دائرة ويحيطني أناس يحملون الشياطين، مُلقى في وسطها أرتعش وأبكى، على مرمى البصر يظهر الأخرق، أراه فأستنجد به، يجري نحوي ويحترق الجموع ليخلصني، يده الممدودة تقترب بالرغم من الشياطين التي تجلد ظهره، أمد يدي وقبل أن أمسك بيده يظهر البطل من خلفه، تهبط عصاه الغليظة على رأس الأخرق فتفقدته الوعي، يستلقي بجاني في منتصف الدائرة، أتحمس رأسه فتمتلئ يدي بالدماء، أفيق من نومي مذعورًا على صوت ممدوح البطل:

- قوم يا كمال وصحصح كده، نتيجة قرعة الشقق بانته.

وسط الهياكل الخرسانية وأكوام الأسمنت والحفر العميقة نتحرك، تنغرز أقدامنا في الرمال فنتعثر، يصر البطل على إكمال المسير لنرى موقع شقتي المنتظرة. يقول جملته المأثورة: "تعب يوم ولا تعب كل يوم يا كمال".

على أطراف إحدى الحفر جلست، وأكمل هو البحث عن العمارة، أنظر إلى الرمال المنبسطة أمامي وأتعجب، كيف سيحولها المهندسون ذوو الخوذات البيضاء إلى عمران؟! لهيب الشمس يلسع الوجوه والعرق المنهمر يرطبها، كان الله في عون هؤلاء العمال!

مهندسون يرتدون القبعات يعطونهم الأوامر ثم ينصرفون إلى غرفهم المكيفة، ويتركزونهم يُشبهوا وحدهم في نقرة الشمس.

تذكرت مقولة أبي: لازم تشتغل بشهادتك، اللي معاه بكالوريوس يقعد على مكتب.

أبتسم وأحمد الله أنني أكملت تعليمي الجامعي، لولا أم ليلى وتعنيفها لي لأذاكر، لكان مكاني وسط هؤلاء العمال. حضر البطل ومعه أحد مشرفي المشروع.

- قوله يا كمال العنوان اللي مكتوب في جواب التخصيص.

استمر بحثنا عن العمارة لنصف ساعة إلى أن وصلنا، أمام إحدى الحفر وقفنا. نظر المشرف إلى الخريطة التي في يده ثم أشار "هنا هيبقى مكان العمارة"، يرفع يده إلى الأعلى، يحركها يمينا ويسارا وأعيننا تلاحق يده، إلى أن استقرت.

- بصوا معايا.. هنا بالظبط الدور الرابع ويمين شوية شقة

35 د.

أنظر أمامي فلا أرى سوى الرمال، أصمت والبطل يناقشه باهتمام.

- الشقة على شارع جانبي بس عريض، حوالي 15 متر، والواجهة بتطل على الجنيينة، والأوض على المدرسة الابتدائي، يعني مش مجروحة خالص. وكمان حظك حلو،

شقتك في المرحلة الأولى، يعني هتستلمها خلال سنة
بالكثير.

أحاول أن أسرح بخيالي وأتخيل، لكن أكوام الأسمنت والرمل
تظهر أمامي فتفشل محاولتي. يشكره البطل وبنصرف.

- لو احتجت حاجة من المجمع إحنا خدامينك، اسأل بس
على ممدوح البطل وألف مين يدلك.

شقة العزاب لا تختلف كثيرًا عن شقة المنايفة، لاحظت ذلك
بعد زيارتي المتكررة إلى هناك. في البدء ذهبت لأقنع الأخرق
بالعودة إلى السكن، وبعدها توالى الزيارات، مرة لأفرض اشتباغًا
وقع بينه وبين أحد السكان، وأخرى لعزومة أصروا أن أحضرها، لا
أعرف لماذا تكررت زيارتي لشقة العزاب، ربما أفتقد الأخرق وأشفق
عليه بعد ما حدث، فأذهب لأواسيه وأشد من أزره، ربما الوحدة
هي السبب، فأحضر طمعًا في ونس.

الأخرق هو الأخرق، والشقتان متماثلتان، هناك نقود تُقتطع
وأيضًا صندوق، والأدهى أن لشقة العزاب كبيرًا. لم أعرف ذلك أيام
الجامعة، كنا مجرد صبية نأتي ونذهب ولا يُحْمِلنا أحد بالمسؤوليات،
ولكن الآن الأمر مختلف.

الأخرق استكان والتزم بالقواعد، فلا بديل أمامه، يدفع الأموال نظير الإيجار والطعام وصندوق الشقة، معهم بجسده ولكن روحه تطوق للرحيل، يغيب طوال اليوم ولا يعود إلا مُنهكاً لينام.

بلدياتي في شقة العزاب يقولون بأنه سيتأقلم مع الوقت.

- زيه زي غيره، كلنا في الأول كنا كده، عايزين نلف ونصبع، عاملين فيها ولاد مصر.

يؤكدون بأنه سيفطن في النهاية بأنه ليس له في العاصمة إلا بلدياته.

- خبطة ولا خبطتين في الراس بعد كده هيفوق.

زملائي في شقة المنايفة ينتظرون عزومة بمناسبة فوزي في قرعة شقق الإسكان. أَجَلَّتْهَا أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ أَمَلًا فِي إِقْنَاعِ الأَخْرَقِ بِأَنْ يَحْضُرَ، بَعْدَمَا فَشَلَتْ فِي إِقْنَاعِهِ قَرَرْتُ أَنْ أَقِيمَ عَزُومَتَيْنِ، وَاحِدَةً فِي شَقَّةِ الْمَنَائِفَةِ وَالأُخْرَى فِي شَقَّةِ الْعَزَابِ.

أخبرت البطل بما أنتوي فعله فضحك.

- هي عزومة واحدة لكل الحبايب، وليمة فاخرة، ومش هتدفع كثير.

بعدها طلب مني رقم تليفون كبير شقة العزاب.

البطل وضع الخطط وكلفني أنا وبلدياتي بالتنفيذ، لكل منا مُهمّة، زميلي بائع الملابس في المول مسؤول عن اختيار الطعام،

وزميلنا حارس الأمن يقع على عاتقه تأمين الطعام حتى أصل، وأنا من سيتولَّى دفع النقود.

الخطة دقيقة، بائع الملابس سيتك عمله في التاسعة ويهبط إلى الدور الأرضي بالمول، يتوجَّه إلى الهاير ماركت ويختار من بين المأكولات المعروضة ما لذ وطاب.

- فراخ وكفتة وسلطات وعصاير، وكتر من المكرونة البشاميل والممبار.

هذا ما أكد عليه البطل، وخلاف ذلك متروك لذائقة زميلي. يضع الطعام في عربة الطلبات ثم يتحرك، قبل أن يصل إلى باب الخروج بخطوات سيقابله بلدياتي حارس الأمن، يترك له العربة ويصعد بعدها إلى عمله، دوري ينحصر في الحضور إلى هناك في الوقت المناسب ليس إلا.

قبل الثانية عشرة ليلاً بقليل وصلت إلى الهاير ماركت، انطلقت على الفور إلى بلدياتي لأستلم الأمانة، عربة موضوع عليها لافتة "أمانات"، سلمها لي وأشار إلى الكاشير، عند منتصف الليل انطلق المذيع الداخلي بالمكان "خصم 60% على جميع المأكولات الجاهزة والعصائر الطازجة"، دفعت العربة باتجاه الكاشير ودفعت النقود، ورحلت لأنتظر بلدياتي بالخارج، حضرا بعد أن أغلق المول أبوابه وتوجهنا بعدها إلى المجمع.

الشعور بالظفر والحنكة والذكاء الخارق يفوح من كلماتهم فيركم أنفي. أسخر منهم في سري "صحيح ريفيين سُذَّج"، كنت سأحضر وأشتري الطعام وحدي، فالخصومات على الأطعمة ليست بمفاجئة، تتم يوميًا في نفس التوقيت، فالهاير ماركت يجب أن يتخلص من كل الأطعمة الطازجة قبل أن يغلق.

قلت ذلك عن استحياء فسخروا مني.

- حمار.. مش ده الأكل اللي بيفيض، لو استنيت لحد ما يعلنوا العرض مكنتش هتلاقى غير شوية رز ناشفين وطبقين خضار بصلصة قربوا يحمضوا.

ظلوا بيررون ويشيدون بخطه البطل، وعقله "اللي يوزن بلد"، حتى وصلنا إلى المجمع.

- لازم تباتوا معانا انهارده، والشقة تساع من الحبايب ألف.

قالها البطل لسكان شقة العزاب، بعد أن شاهدنا في التلفزيون صورًا لمظاهرات في بعض أحياء العاصمة. سهرة رائعة قضيتها، حضور الأخرق أثلج صدري، فلم أكن أتوقع أن يأتي رغم تأكيدات البطل "لازم هيبجي؛ كبير شقتهم قالي هيجيبه معاه".

في البداية كان حذرًا في الحديث، ولكن بعدما سأله البطل عن المغزى من المظاهرات انطلق، تقمَّص دور ابن العاصمة وظل يشرح لنا ما حدث اليوم وما يتوقع حدوثه في الأيام القادمة. اهتمامنا بما

يقوله جعله ينظّر ويحلل الأحداث، إلى أن انتهى بأن النتيجة الحتمية للمظاهرات هي إقالة وزير الداخلية، قالها وأذان الفجر يُرْفَع.
أغلق البطل التلفزيون: يلا يا رجالة على الجامع، الراجل صوته اتقطع وقاعد يقول الصلاة خير من النوم.
ثم نظر إلى الأخرق: خش نام إنت يا أخويا ومتخافش، مش هيمشّي شوية عيال وزير الداخلية.
قمت على الفور لأتوضأ قبل أن يرميني البطل أنا الآخر بكلمة من حجر.

عدت إلى قريتنا لأبشّر ليلي بشقة العاصمة، جئت لأحاول إثناء عمتي عن قرارها ونعجّل بالزواج، قلت لفتنة اقنعيها نتزوج وتعود ليلي إلى القرية في أوقات الامتحانات. اتفقنا أن تصعد معي يوم الجمعة وتحاول أن تليّن قلب عمتي. وعدتني بأنها ستتصرف.
قالت ضاحكة: ديك البرابر مش قادر يصبر، هجوزها لك يا حبيب أختك.

بعد أن تناول العشاء ستصعد فتنة وتجلس مع عمتي، بعدها ستتركني ليلي وتنضم إليهما، كطرفي الكماشة ستحاصران عمتي فلا تستطيع التملّص، فتنة ستتكلّم وكلما احتدم النقاش ستسأل ليلي عن رأيها فتجيب: اللي تشوفيه يا أبلّة.

سارت الأمور مثلما خططنا، دق الجرس وحضرت فتنة في الميعاد، ولكن بدلاً من أن تفتحها في تعجيل الزواج صاحت لاهثة: الدبابات نزلت الشوارع وأعلنوا في التلفزيون حظر التجوال. قالتها فوأدت خططي في مهدها.

سكان العاصمة ثاروا على الرئيس ويريدون رحيله. بدؤوا في الهتاف والنزول إلى الميادين، فقلدهم سكان عواصم المحافظات، الجميع في الشوارع، إما ليهتف بسقوط الرئيس وإما ليحرس ممتلكاته. رجال قريتنا متجمعون عند مداخل القرية ومخارجها بعدما انتشرت الأخبار بأن السجون اقتحمت والمساجين هربوا.

الشباب كَوّنوا لجاناً للحراسة والأمن، حتى الشيوخ شاركوا في التأمين، أبي يقف مع جيراننا أمام مدخل شارعنا ويمسك بعضا غليظة، حامد وفتنة استأجرا بعضاً من البلطجية المسلحين لحماية المعرض، تحسباً لأي أعمال سلب ونهب قد تحدث. أم ليلي أحضرت الجنائز والأقفال وأغلقت بها الباب الخارجي للبيت.

أقف بين شباب شارعنا أحمل هراوة في يد وسكيناً في الأخرى، أعطوهما لي وقالوا إذا ظهر الأشقياء وحاولوا اقتحام الشارع تعامل. أكنتم غضبي وألعن حظي العاثر، أتمنى العودة إلى المجمع، أريد أن أستلم شقة العاصمة وأستقر فيها مع حبيتي. التوتر والقلق يسيطران

عليّ، لا يشغلني أن يرحل الرئيس أو يبقى، كل ما أتمناه هو أن
ينتهي ذلك العبث في أسرع وقت.

(8)

مكاملة المهندس نبيل كانت طوق النجاة، اتصل بأبي وأخبره بضرورة حضوري إلى المجمع في أسرع وقت. منذ أن بدأت المظاهرات وأنا أتوق إلى الرحيل، ليلى المحتجة في شقتها وخططنا التي فشلت، ووقوفي بالساعات وسط شباب مدججين بالسلاح الأبيض، جعل من أيامي بالقرية جحيمًا؛ أريد أن أغادر لكنني أخجل من أبي، فكيف لديك البرابر أن يترك عائلته في تلك الظروف الصعبة؟ لذا بعد أن جاءت المكاملة غادرت على الفور.

شوارع المدينة خاوية من البشر، فلا مظاهرات هنا أو حتى لافتات معلقة تؤيد أو تعارض، سكانها إما رحلوا وإما محتفون داخل مساكنهم المحاطة بالأسوار العالية، أفراد الشرطة اختفوا، وحل محلهم قوات من الجيش، بضع دبابات موزعة في أحياء المدينة، ودوريات تطوف في شوارعها، الكمبوندات أضافت مزيدًا من الحواجز أمام بواباتها واستعانت بشركات خاصة للأمن.

المول هو المكان الوحيد الذي يضح بمظاهر الحياة، الهاير ماركت مزدحم عن آخره، والسكان يتكالبون على شراء كميات ضخمة من الأطعمة، وكأن مجاعة على وشك الحدوث ستصيب البلاد.

موتوسيكلات تطوف شوارع المدينة يقودها شباب معصوبو
الرؤوس، جلاليتهم وسمة بشرتهم توحى بأنهم ليسوا من سكان
العاصمة، اعتقدت أنهم صعايدة ولكن بلدياتي أخبروني أنهم عربان.
- دول العرب يا كمال، اوعى تحتك بيهم، الناس دي
مبيهرروش، بيضربوا نار على طول.

أخبرني البطل بأن العربان هم سكان المدينة الأصليين، عندما
بدأت الحكومة في إنشائها رحلوا، كلما امتد العمران انسحبوا إلى
الصحراء، يستقرون عند آخر حدود المدينة ويقدمون خدماتهم
للجميع.

كانت بداية معرفة ممدوح البطل بهم يوم تلك الحادثة الشهيرة،
سُرقت ثلاثة لودار خاصة بالمجمع في وضح النهار، أجريت
الاتصالات بكل الجهات المسؤولة، حضرت الشرطة وتداول
المسؤولون سُبُل الحل، في النهاية حضر مندوب العربان، شاب نحيل
أسمر يستقل موتوسيكلًا، استلم الشيك ورحل، بعدها ظهرت
اللودار أمام بوابة المجمع.

- فلوس الإتاوة اتأخرت والعرب مواعيدهم سيف، عملوها
مرة واحدة وبعدها كل الناس التزمت بالدفع في الميعاد.

قوات الجيش وشركات الأمن الخاصة يؤمّنون المدينة ظاهريًا، أما المسؤول الحقيقي عن الأمن فهم العربان، الجميع يدفع لهم النقود بانتظام نظير الحراسة، وإن تأخر تظهر القلاقل.

المجمع على حاله لم يتغير به شيء، الكل حضر بعد مكالمات كبيرنا المهندس نبيل، الحياة في الداخل تدور وكأن شيئًا لم يحدث في الخارج، الاختلاف الوحيد الواضح هو وجود تلك الدبابة في مدخل المجمع والعربة المصفحة المركونة بجانب الورشة العمومية.

أربعة جنود وضابط هم القوة المنوط بها تأمين المجمع، استقروا قرابة الشهر معنا فتكوّنت الصداقات، الجنود أبناء قرية مثلنا، حظهم الجيد جلبهم إلى هنا.

- الحمد لله، ده زمايلنا متمرطين في الشوارع وسط الخبط والرزع، وإحنا قاعدين هنا آخر راحة.

يتناوبون نوبتجيات التأمين فيما بينهم، والضابط يغيب ويأتي في زيارات مفاجئة للتفتيش، في أوقات راحتهم يصعدون إلى السكن؛ البطل أصر على ذلك؛ "إنتو ضيوفنا".

طعام ساخن وحمام نظيف وسرير مريح، كان هذا أقصى أمانهم.

- يا رب الثورة دي تقعد لحد أما نخلص جيشنا، عشان نقضيه كله معاكم هنا.

يقولونها فنضحك.

عندما يحضر الضابط إلى المجمع يهرع على الفور كبراء الشقق للترحيب به. أخلى البطل شقة بالدور الأرضي وجعلها استراحة لضابط التأمين، رفض في البداية لكن بعد إلحاح كبراء الشقق وافق على مفض.

- يا باشا الشقة فاضية أصلاً ومحدث ساكن فيها، ناملك ساعتين وخذلك دش، إنتو تعبانين عشان خاطرنا، ربنا يحفظكم.

الجميع يمارس مهام عمله صباحًا ويتابع أخبار الثورة مساء. انقسم بلدياتي إلى فريقين، فتحولتُ إلى حَكَم، قاضٍ عادل يُقسِّم أوقات مشاهدة التلفزيون بالتساوي، ساعة لفريق التلفزيون المصري المؤيد للرئيس، وساعة لفريق قناة الجزيرة المؤيد للمظاهرات. ريموت التلفزيون في يد وفي الأخرى ساعة، أقلب بين القنوات وأهدئ من انفعالات الفريقين وأمنع نشوب المشادات.

كانت مباراة عصبية أرهقت الجميع، لحظات من البهجة يعقبها ذرف للدموع، قلوب مُعلَّقة بخطاب منتظر، وأخرى تتشوق لرؤية الحشود المكتظة بالميادين، مباراة انتهت بمجرد أن خرج الرجل على التلفزيون ليعلن تحلِّي الرئيس عن الحكم، بعدها صاح البطل في وجهي:

- اظفي التلفزيون يا خويا الموضوع خلص، عايزين نشوف
بقي أكل عيشنا.

ممدوح البطل كان صامتًا أغلب الوقت، لا يتابع النشرات ولا
أخبار التظاهرات، لا يميل إلى فريق من الفريقين، يترك مجلسنا دائمًا
بجحة صوت التلفزيون العالي، ويتوجّه إلى غرفته ولا يغادرها إلا
صباح اليوم التالي.

اعتبرت أن الثورة معركة لا ناقة لي فيها ولا جمل، مباراة بين
فريقين لا أتحيز فيها لأحد على حساب آخر، فأنا لا أحب
المباريات بالأساس، أكره ما يصاحبها من توتر في النفوس وضجّة
تملاً الأجواء، ربما السبب هو عدم قبولي فكرة أن أصبح خاسراً وأنا
لست من لعب، فالفوز والخسارة يوسم بهما اللاعبون، وأنا مجرد
متفرج.

للأسف ظني كان خاطئًا، اكتشفت أن المتفرج من الممكن أن
يصبح خاسراً هو الآخر، عرفت ذلك يوم استحقال المرتب؛ عاد
ممدوح البطل إلى الشقة بيدٍ فارغة. وجهه المكفهر وصمته غير
المعتاد جعلانا نبتلع ألسنتنا، ومنتظر أن يبدأ هو بالحديث، ساعة
مرت كالدهر وبعدها تكلم البطل، لم يجدثنا وإنما هاتف كبراء
الشقق. بعد بضع مكالمات هاتفية حضروا إلى شقتنا.

فهمنا مما سمعناه ما جرى، جهاز المدينة لم يصرف للشركات المنوط بها أعمال الصيانة مستحقاتها، وبالتالي هي الأخرى لم تصرف استحقاقات مقاولي الباطن.

قال البطل بأن الجهاز والوزارة على كف عفريت، الشباب الثائر يسميهما أذئاب النظام، يهتفون في الميادين منتشين بخلع الرئيس، ومُصرين على ضرورة تطهير المؤسسات الحكومية، يقولون بأن رائحة الفساد تزكم الأنوف.

رئيس الوزراء يهاجم ويخشى انقلابهم عليه، فهم الفائزون في المباراة، لذا بدأ في تنفيذ حملة ضخمة لتغيير القيادات في جميع الوزارات، كل المسؤولين في جهاز المدينة يتهَرَّبون من الإمضاء على أي ورقة خوفاً من المحاسبة.

الاجتماع الذي تم بين ممدوح البطل وكبراء الشقق كان مغلقاً، انتظرناهم لساعات حتى خرجوا ليخبرونا حزمة من القرارات، تلاها كل كبير على أفراد شقته. اعترض الأخرق وقال: كان من المفترض أن يكون الاجتماع عاماً، يضم جميع سكان عمارتي المنايفة والشراقوة، فالمصيبة تخص الجميع وليس الكبراء وحدهم.

رد البطل بحسم بأن التجمعات في هذه الأيام تثير الريبة. الكبراء أخبرونا بأدوارنا فحفظناها عن ظهر قلب. لم أنم يوماً من القلق والخوف والتوتر، عند الثامنة صباحاً نهضت، بدلاً من أن

أنطلق كالعادة إلى العمل، وقفت بين المتجمعين في الفناء المواجه للعمارتين. الكلمات الحماسية التي سمعتها لم تنجح في إنهاء توتري. راجعنا الخطة والأدوار وبعدها انطلقنا صوب المبنى الرئيسي للمجمع وأحطناه.

رفعنا اللافتات وبدأنا في الهتاف:

عايزين فلوسنا.. عايزين فلوسنا.

على الفور أجرى مندوبو الجهاز في المجمع الاتصالات برؤسائهم.

الأخرق كان مسؤولاً عن الجانب الإعلامي، أعدّ اللافتات وألّف الهتافات المستوحاة من هتافات الثوار في الميدان، فقد كان متابعًا جيدًا لأحداث الثورة. الكبراء كلّفوه أيضًا بإرسال صور الاعتصام وأخباره للمواقع الإلكترونية والقنوات التلفزيونية، فهو الوحيد فينا الذي يمتلك تليفونًا محمولاً مزوّدًا بكاميرا ومتصلًا بشبكة الإنترنت، أما ممدوح البطل فكان مكلفًا بالجانب التفاوضي، مع أي مسؤول سوف يحضر إلى المجمع لغرض إنهاء الاعتصام.

في البداية حضر بعض من المسؤولين الصغار، لكن مع تعالي الهتافات وسقف المطالب الذي ارتفع بعد توافد مراسلي القنوات التلفزيونية والصحفيين، حضر رئيس الجهاز شخصيًا بصحبة نائبه.

وصول المهندس نبيل كان نقطة فاصلة، فبمجرد أن حضر ساد الصمت وتوقفت التهتافات على الفور، فكيف نختصم كبيرنا؟! وإن لم نختصمه شخصيًا فمن الواجب علينا التأدب في حضرته. كادت الخطة أن تفشل، لولا إشارة ممدوح البطل إلى الأخرق، الذي فهم على الفور وبدأ في التهتاف، ليردد خلفه الجميع.

- حرامية حرامية.. حرامية حرامية.

لكل منا دوره، كما كينة بما عشرات التروس تتحرك في تناغم، إذا عطب أحدها أو انخرق توقفت وفشلت في أداء عملها. عم الشيخ أحمد بذقنه الرمادية الطويلة وجلبابه الأبيض الفضايف يقف في المقدمة، وكلما توقفنا عن التهتاف يردد بصوته الجهوري:

- حسبنا الله ونعم الوكيل في الظالم والمفتري. يعقبه صياح عم بيشوي الواقف بجانبه: الظلم ظلمات يا إخوانا.

يكررا جملتيهما المحفوظتين عن ظهر قلب مرات ومرات، حتى نريح حناجرنا المرهقة برهة، ونعود للتهتاف من جديد، فيصمتان وينسحبان للوراء.

الضخم مهمته محددة سلفًا ويجيد أداءها منذ زمن، اصطناع الهجوم.

عندما يشعر ممدوح البطل بأن وتيرة الهتافات انخفضت، أو أن المسؤولين اعتادوها ولم تعد ترهبهم يشير للضخم، فيخترق الجموع وينطلق صوب المسؤولين، إيداناً بتحويل الاعتصام إلى معركة بالأيدي. طبعاً كما هو متفق عليه يتشبث بالضخم مجموعة منا قبل وصوله إلى المسؤولين بسننيمترات، يرجعونه إلى الخلف ليختفي وسط المحتشدين، لكن تقطيعه وجهه وعضلاته المفتولة تفي بالغرض وتعيد الرهبة إلى المسؤولين مرة أخرى.

أما أنا فدوري بسيط وسهل التنفيذ، مجرد كومبارس أو فرد من أفراد الجماهير التي يستخدمونها في تصوير الأفلام، بالأحرى عضو في كورس غنائي يردد جملاً محددة خلف المطرب، يهتف الأخرق فأردد وراءه، يتوقف فأصمت وأنتظر.

في البداية انحصرت المطالب في صرف رواتبنا، ومع تعنت المسؤولين وتأكيدهم بأن الأمر ليس من اختصاصهم وإنما مسؤولية الوزارة، علّت مطالبنا، وتخلل هتافنا السباب وصب اللعنات عليهم، بعد فترة تحوّل الهتاف من "حرامية حرامية" إلى "التعيين التعيين لا بديل عن التعيين".

العربان هم أول من استغاث بهم المسؤولون. حضر كبيرهم في سيارة جيب يحيط بها سائقو الموتوسيكلات معصوبو الرأس من الجانبيين، البطل انسلّ من وسطنا وتوجّه مباشرة إلى كبيرهم.

الرجفة سرت في جسدي، وأنا أنظر إلى العربان وهم يحيطون بالبطل، أتذكر ما حكاه لي عن عدم تفاهمهم إلا بالسلاح. لأول مرة منذ أن حضرت إلى هنا أشعر نحوه بتعاطف، طالما اعتبرته ديكتاتورًا، صورة من أم ليلي على هيئة رجل.

كلما تذكرت خوفاً عليه، واعتقادي بأن العربان سيقتلونه أو على الأقل سيبرحونه ضربًا ليكون عبرة لنا أضحك، فالبطل لا خوف عليه، عشر دقائق فقط هي كل ما لزمه من الوقت للفوز في الجولة الأولى من المعركة.

تحدّث مع كبير العربان ثم قفز خلف أحد سائقي الموتوسيكلات وانطلقا إلى قلب المجمع، عادا بعد دقائق وابتسامة الظفر تلوح على وجهه، تحدّث سائق الموتوسيكل مع كبير العربان لثوانٍ، وبعدها تحرك موكبهم إلى خارج المجمع، وسط ذهول المسؤولين وتعالّي هتافنا.

حكى لنا البطل فيما بعد عما جرى.

- كنت متأكد إن بتوع الجهاز هيستنجدوا بالعرب، كنت عامل حسابي ومخطط هعمل إيه، قولت لكبير العرب إنتو فوق راسنا، مستحيل نضركم، إحنا بس بنطالب بحقنا ورزق عيالنا، قولتله إحنا عارفين إنكم مسؤولين عن أمن المجمع وحراسته، وإحنا يا كبير مش هنخرج من باب المجمع ونعمل قلق، والمعدات اللي جوة المجمع إحنا نحافظ عليها

الأفق، وتستعد للدخول من بوابة المجمع. الزي العسكري المموه والأيدي الحاملة للسلاح جعلتني أتهار.

العسكريون أحاطونا من كل جانب، فنشروا في قلوبنا الرعب. حناجرنا وكأنها اقتلعت وأصبحنا بكمًا، أظن أن الخوف الذي ظهر في عيني ممدوح البطل هو سبب صمت زملائي، وليس هيئة العسكريين المدججين بالسلاح.

البطل كان ساذجًا هذه المرة، ظن أنه بإطعام الجنود وإخلاء شقة للضابط سيحيدهم. خطط لكل شيء لكنه لم يتوقع تدخل الجيش.

حكى لي بعدها أنه توقع كل ما حدث، كلنا انشغلنا بما يدور بالميادين وهو الوحيد الذي فكر كيف سنستفيد من هذا الوضع. عندما ظهرت بشائر نجاح الثورة بدأ في رسم خطته، حلمه القديم في الوظيفة الحكومية عاد يلوح في الأفق من جديد. البطل يعلم بأن تعثر الشركات في دفع رواتبنا مؤقت، شهر على الأكثر وستحل المشكلة، ثم تبدأ الوزارة في صرف المستحقات من جديد، تأخر صرف الرواتب كان حجة لا أكثر للتظاهر والمطالبة بالتعيين في الحكومة.

الجميع كان يعلم وإن لم يصرح، حتى الأخرق لم ينسَ وظيفة البترول التي كان يتمناها، قال لي بعد فترة إن العمل الحكومي ظل

يداعب رأسه طوال الوقت. اكتشفت أني المغفل الوحيد الذي نزل للتظاهر من أجل الراتب.

"يوضع سره في أضعف خلقه، أو بالأحرى أعبط خلقه"، هكذا قلت لنفسي بعدما اعتلى الأخرق الأكتاف وبدأ في الهتاف.
- الجيش والشعب إيد واحدة.. الجيش والشعب إيد واحدة.

يقولها بعلو صوته ولا مجيب، كررها كثيراً وحده حتى بدأنا بالتردد والهتاف خلفه، أعتقد أن تحرر حناجرنا من الخوف لم يكن سببه إصرار الأخرق على الهتاف، أو حتى صوته الجمهوري الذي يشع جرأة، إنما حركة أيدي الضباط، رفع كل منهم يده اليمنى وربت بها أعلى رأسه كي يبادلنا التحية.

هتاف الأخرق أتى بنتيجة فورية لم يتوقعها أحد.

تتحرك أنظارنا عن أيدي الضباط الرابطة على رؤوسهم، إلى رقبة الأخرق النافرة العروق، وتتوقف عند ممدوح البطل الذي لمعت عيناه وتحرك.

تُهتف بحماس خلف الأخرق والبطل يتقدمنا، يهتف هو الآخر ويتحرك باتجاه العسكريين، يمد كلتا يديه صوب رأس أحد الجنود، يشب على أطراف أصابعه، يميل رأسه للأمام ويطلع قبلة على خوذة الجندي، يفعلها فيزيد الهتاف، يشير لنا فنلثم رؤوسهم حتى

يملأوا من التقبيل، نترجع فيشير الضباط للجنود بالتراجع وتوسيع الدائرة من حولنا.

فعلها الأخرق والبطل وجعلنا نفوز بالضربة القاضية، فبعد أن تم تقييد الجيش حضر مندوب الوزارة وبدأ على الفور في عقد اجتماع مغلق مع باقي المسؤولين.

ظللت أنبح مع القطيع لثلاث ساعات كاملة، ننتقل مع إشارة البطل ونصمت لإشارته، نباح ثم نباح ثم مزيد من النباح، إلى أن خرج المسؤولون من اجتماعهم.

تحرك المهندس نبيل باتجاهنا ألقني، فصمت، رغم استمرار زملائي بالنباح، نظر كبيرنا إلى البطل فأشار للجميع بالصمت. أزعج المهندس نبيل تكشيرته المصطنعة من على وجهه وقال ضاحكاً:

- عملتوها يا ولاد الكلب! مبروك يا أوباش، اتعينتوا في الحكومة.

أصبحنا رسمياً موظفين بوزارة المرافق، أخيراً تحقق حلم البطل والأخرق في الالتحاق بالعمل الحكومي.

(9)

ابنة العم أتت إلى العاصمة، ويا للعجب أنا الغريب أصبحت
مرشدها!

كالعادة تصرفت فتنة وحققتم حلمي المؤجل، أقنعت عمتي
بإتمام الزواج قبل أن تنهي ليلي دراستها الجامعية، استخدمت كل
الحيل، حتى اقتنصت الموافقة من فم زوجة الأسد المدعوة أم ليلي،
مرة تقول لها: خلاص كمال اتعين في الحكومة ملكيش حجة.
وأخرى تُحدِّثها عن الشقة الشرحة البرحة المطلة على الجنيينة،
وأحياناً تحكي لها عن بنت مصر اللعوب التي لن تترك سبع البرمبة
العازب في حاله.

في البداية أصرت عمتي على الرفض، هاجت وماجت على
فتنة، حتى أنا لم أسلم من لسانها الطويل، كلما أزورها تُظهر لي
أنيابها ومخالبها، وتكاد أن تفترسني، لكن الزن على الودان أمرٌ من
السحر كما يقولون. زن فتنة، ورغبة ليلي الواضحة في إتمام الزواج
والانتقال للعيش في العاصمة، جعلنا حماة المستقبلية تلين رويداً
رويداً حتى وافقت في النهاية. اشترطت أن أعيد ليلي إلى القرية قبل
الامتحانات بشهر على الأقل، أحضرت المصحف ووضعت يدي
عليه، جعلتني أقسم بأن ليلي ستنتهي تعليمها الجامعي مهما
حدث.

لا أدري لم كنت مُصِرًّا على الإسراع بالزواج! أهو حب عنيف لا يحتمل فراقًا، أم وحدة قاسية عانيتها لسنوات وأريد أن أنهيها بوجود ليلي بجانبني؟ أظن أن رهبة العاصمة التي ما زلت أعاني منها هي أهم دوافعي. المؤكد أن رغبة التعجيل بالزواج لم يكن سببها اللهفة لتجربة ارتطام اللحم باللحم التي طالما حكى عنها الأخرق بتلذذ، وإن كنت أريد تجربتها في الحقيقة بعد أن اختبرتها في أحلامي.

استقراري مع ليلي في العاصمة كان مفاجئًا لزملائي في المجمع، البطل تعجَّب وضرب كفاً بكف، شجب وأدان واستنكر فعلي، قال لي: ما إنت يا إما أهبل يا إما عبيط، الشقة اللي ربنا كرمك بيها دي استثمار مش سكن، يعني يا تبيعها يا تأجرها، ما كلنا متجوزين وبنرجع لحريمنا في البلد جمعة وسبت، ولا إنت نُنحرح ومش قادر تبعد عن المرة؟!

الجميع ظن بأن استقراري أنا ويلي في العاصمة سيكون مؤقتًا، كانوا متأكدين أنني سأعيدها إلى القرية وأعود للإقامة معهم ثانية في شقة المنايفة.

قال أحدهم بلهجة العارف ببواطن الأمور: هما شهرين ثلاثة بالكثير، تدوق فيهم لحد ما تشبع والحرمة تلقط منك، وأول ما بطنها تقب هترجعها البلد.

حضرت ليلى إلى العاصمة وفي نيتها الاستقرار فيها، أعتقد أن العيش في القاهرة كان أحد أمنياتها في الحياة، ربما أهم من الزواج ذاته، عرفت ذلك من الفرحة التي تشع من قسماات وجهها الطفولي يوم أن وصلنا. زوجتي تريد أن ترى وتعرف كل شيء، تبحث وتدوّن وتصوّر.

غيّرت ليلى من الصورة النمطية المرسومة في ذهني عن الريفيات اللاتي يأتين للقاهرة للمرة الأولى، كنت أعرف أن أكثرهن يتوق لزيارة المساجد ذات الأضرحة، عندما زرت السيدة نفيسة وجدتهن هناك يتمسحن في المقام ويدعون. أعرف أن صغيرات السن من الريفيات تركز تلك العادة، وبمجرد الوصول إلى العاصمة ينطلقن إلى ميدان العتبة، لشراء الملابس والعطور وأدوات الزينة، والسير في شوارع العاصمة منبهرات. أما ليلى فمختلفة.

انطلقت معها وكلي زهو إلى منطقة وسط البلد، تمشينا ساعة دون أن تُبدي انبهارًا، حتى لا تطيل النظر بالمعروض خلف الواجهات الزجاجية، كل بضع دقائق أسألها: "مبسوطة؟"، فترد باقتضاب: "آه".

قلت لنفسي سأبهرها مهما كانت التكلفة، عرجت على ذلك المطعم الشهير المواجه للسينما، تغاضيت عن أسعار المأكولات المبالغ فيها، واشترت ساندويتشات الشاورما لأول مرة في حياتي، ليلى تلف الساندويتش في منديل، تمامًا مثل أولاد الذوات في

الجامعة، تقضم لقيمة صغيرة وتزيد في المضغ مثلهم تمامًا، وللأسف تطابقهم في تعبيرات الوجه الخالية من الانبهار.

سألتها: عجبك؟

ردت: يسلم اللي جابه. حلو، بس شعبي.

استوضحت منها، فشرحت وأطالت، وكأنها تحفظ خريطة مطاعم ومحال القاهرة. لعن الله الإنترنت! لم يترك حتى أولاد الريف على حالهم.

منذ ذلك اليوم وأنا تارك الدفة بيد ليلي، توجهها كيفما تشاء، تحدد أين سنذهب، وكيف سنصل إلى هناك، ومن أي مطعم سنأكل. تجلس أمام شاشة الكمبيوتر بالساعات، ثم تأخذ قرارها. لم أعلم من قبل أن شبكة الإنترنت بها كل تلك المعلومات عن العاصمة.

ليلي أرّنتني قاهرة أخرى لم أكن أعرفها رغم طول المكوث، مطاعم وسينمات ومولات، وحتى شوارع لم أقرّبها من قبل، بمجرد أن أنهى الدوام في المجمع أتصل بها لتستعد، وعندما أصل أجدها في انتظاري أسفل المنزل، لنبدأ جولتنا الجديدة.

كنا كالسياح ندوّن العناوين ونصوّر الأماكن. ليلي سعيدة بما تراه وأنا فرّح بانبهارها. أيام وأيام وأنا ألثت خلفها بلا كلل، للأسف، كان لا بد من نهاية. انتهت جولتنا السياحية، لا بسبب

الإرهاق ولا لتبدد الأموال، وإنما للملل، فالسائح يأتي وينبهر ثم يرحل، أما نحن فمقيمون. بتكرار زيارتنا لذات الأماكن اختفى الانبهار، شغف ليلي انتهى، وتحوّل تجولنا في العاصمة إلى مجرد وسيلة لتميرير الوقت، أعرف أن اليوم طويل والساعات تمر ببطء، هي وحيدة أغلب النهار، وعندما أعود أصحابها لساعة أو ساعتين في الخارج، وبعدها نستقر أمام التليفزيون حتى يحجّ النوم علينا ويحضر لينهي مللنا.

ليلى تغيرت، مع مرور الأيام تبدلت أحوالها، هجرت الكمبيوتر، صديقها الأثير الذي كانت تقضي أمام شاشته أغلب ساعات النهار، أصبح تكسوه طبقة من الغبار، كتب الجامعة خرجت من الكراتين وتناثرت على المنضدة، مكالماتها التليفونية مع صديقاتها في البلدة طالت وأصبحت يومية. زوجتي تفوقت في المنزل، صباحًا تُسلّمني ورقة باحتياجاتنا لأشترتها، كلما سألتها عن سبب مكوّنها الطويل تتحجج بالإرهاق والمذاكرة. أفنعت نفسي بأن السبب هو وفاؤها بعهدي مع أمها. أيام من المذاكرة لا تضر وبعدها نفص، قلت إنها فترة ستمر وتعود بعدها ليلي إلى طبيعتها، حين مؤقت ستنهيه الأيام.

بعدها طال الوقت تيقنت بأن زوجتي فشلت في التأقلم، لا عهد ولا حنين ولا استراحة. ليلي يئست من المحاولة وتريد الرحيل، عرفت ذلك عندما عدت من المجمع ولم أجدها بانتظاري أسفل

المنزل، كنا حتى ذلك الوقت محتفظين بتلك العادة. اتصلت بما
لأستعجلها، فقالت لي اصعد، تساءلت عن السبب، فردت لا
سبب، فقط مللت من المسير بالساعات بلا هدف.

وجبة الغداء الدسمة المكونة من الأرز المعمر والبط أقلقتني،
أعرف أنها لا تحب هذه الأكلة، تسميها أكل فلاحين، كل تجارها
في المطبخ منذ أن تزوجنا لا علاقة لها من قريب أو من بعيد، بما
تطبخه عمتي أو أختي فتنة، ليلي تطبخ الأكل المودرن، تُقلد ما
يصنعونه من طعام في البرامج التلفزيونية. التغيير في نوعية الطعام
أكّد لي ما كنت أخشاه.

بعد أن انتهينا ورفعت الصحون تكلمت، ويا ليتها ما تكلمت!

- الناس هنا غير الناس.

قالتها وانفجرت في البكاء. محاولاتها الكثيرة في التعرف على
الجيران باءت بالفشل، تصنعت الضحك لأخفي البركان المتصاعد
بداخلي، قلت لها: متزعزعي، هنا كل واحد في حاله، بس طيبين،
مع الوقت هتعرفي ناس كثير وتبقوا صحاب كمان.

ليلى لم تصدق كلامي، ظلت لساعتين تحكي عن ذكرياتها
المريّة في العاصمة. مرة تلقي السلام على جارة تمهيداً لفتح حوار،
فيكون الرد مقتضباً، "حتى سلام ربنا بتقول نصه وتخط وشها في
الأرض، وتقفل بابها وكأني جربة"، ومرة تنحشر بين السيدات في

محل الخضار وتساءل عن أي شيء، علَّها تبني صداقة مع أي أحد،
"قلت أعمل عروسة مش فاهمة حاجة، أقولهم هو آني البقدونس
وآني الكسبرة، قلت أهو حوار وخلاص وهنقعد نرغي"، توقعت أن
يبدأ الحوار بالخُصرة وينتهي بتبادل أرقام التليفونات. الخائبة
خطت أن تعزمهن في منزلنا ليتذوقن النجرسكو الذي تعتقد أنها
تجيد عمله.

- محدش عبّرني ولا رد عليّ؛ كررت السؤال مرة واثنين، وفي
الآخر واحدة بصتلي من فوق لتحت وشاورتلي على
صاحب المحل، وقالتلي اسألينه.

قالت لي إنها كرهت الخروج من المنزل، ملّت من المحاولات،
مقتت ناس تلك المدينة، نعتتهم بالمتعجرفين منعدمي الذوق. أنهت
حديثها بالنهاية المتوقعة: عايزة أرجع البلد يا كمال.

ضمنت ليلي إلى صدري، هي تحكي عن الناس ولاد الكلب
وأنا سارح، أتذكر سنواتي في العاصمة التي كثرت ومحاولاتي التي
فشلت، أواسي ليلي في العلقن وأشفق على حالي في السر.

كان أمني أن تأتي لأواجه بها غربتي، فزادت من آلامي.

أنا كمال.. أنا ابن الشهيد.. أنا جار أمير الجيوش.

أنا المسلم دائماً.. أنا الحانق على الجميع في داخلي.

أنا الطائش الذي غوته العاصمة فحجَّ إليها، وكلما اقترب منها
لفظته وكأنه أجرب.

أنا كمال محفوظ الذي حاول التأقلم حتى مل.
نامت حبيبي ودموعها ما زالت تسيل، وكأن المتعجرفين لم
يتركوها وزاروها أيضاً في أحلامها.
أحملها وأنا على وشك الانهيار، أضعها على السرير وأجلس
بجانبها، أفتح محفظتي وأخرج البطاقتين، نظراتي تتحرك بين صورتني
المتكررة فيهما وبياناتهما المختلفة.

الاسم ذاته والصورة نفسها والعنوانان مختلفان.
أحاول التماسك ويداغبني الأمل، أقول لنفسي ابن القرية
أصبح رسمياً من سكان العاصمة.
أنا مُصِر على الاستقرار هنا.
عنواني هنا وسأبقى.

مسحت دموع ليلي، ربتُ على كتفها كي تصحو، قلت لها:
- بكرة تجهزي نفسك، عشان نروح أغيرلك البطاقة ونكتب
فيها العنوان الجديد.

نظرت إليَّ بعينين نصف مفتوحتين ولم ترد، أغمضتهما
وأكملت نومها.

أغلقت ستارتي وتهيأت لأبدأ حلمي.

(10)

لكل قديس معجزة، وعم بيشوي ارتقى إلى مراتب القديسين بمعجزته تلك، وُظّف في العمل الحكومي وعمره تسعة وخمسون عامًا، سنة واحدة فقط سيقضيها معنا في المجمع وبعدها سيُحال إلى المعاش.

رجل طيب لم يؤذ أحدًا طوال مدة خدمته هنا، ربما تحققت أعجوبة تعييننا في العمل الحكومي بفضل دعائه. هذا ما قاله البطل بعدما سمع كلمات الأخرق التي نفوح منها رائحة السخرية.

- سنة واحدة خدمة ويقعد يقبض معاش طول العمر هو وولاده! يا بلاش يا ولاد!

بعد رد البطل المفحم صمت الأخرق ولم يتمادَ في حديثه. دور الأخرق البطولي يوم الاعتصام يُقدِّره الجميع ويثمنه، لكنه لم يشفع له عندما تشاجر مع البطل، طُرد في وضح النهار ولم ينس أحد بنت شفة، حدث ذلك في اليوم التالي للاعتصام. كما المتفق حضر مندوب الوزارة لحصر العمالة تمهيدًا لصدور قرار تفصيلي بالتعيين متضمن أسماءنا ووظائفنا. قابله كبراء الشقق وبدؤوا المسير في أرجاء المجمع. التحق بركبهم الأخرق وظل يطرح الأسئلة: هنقبض كام؟ هنتعيين على أي درجة؟ التأمين الصحي بتاعنا هيبقى في أي مستشفى؟ لا يمل من طرح الأسئلة، ولا من رد

المدوب الذي لا يتغير: أنا دوري أعمل حصر وبس، وبعد كده هيجيلكم قرار شامل كل شيء.

في البداية نظر له كبراء الشقق ليصمت، فتجاهلهم واستمر في التحرك خلفهم من مكتب إلى مخزن ومن ورشة إلى عنبر، حتى نفذ صبر البطل وأمره علناً بالابتعاد: غور بقى يا أخي وحل عن سمانا. صياح البطل وشخطه معتاد، فقد حصل كل منا على حصته منه، فليس سُبّة أن يعلو صوت البطل باتجاهك.

ما جعل الوضع يتأزم هو رد الأخرق، الذي لم يتقبل أن يُطرد أمام مندوب الوزارة. صوت البطل الغليظ قوبل بصوت الأخرق الجمهوري، وكأنهما يتباريان في مسابقة الأعلى صوتاً. الأخرق يرفض أن ينصرف، يعدد بطولاته يوم الاعتصام، يقول إنه من حق الجميع أن يسأل ويستفسر ويعرف.

- يا جدعان إحنا دلوقتي موظفين حكومة كلنا زي بعض، مبقاش فيه كبير وصغير.

الغبي يظن أن بكلامه هذا سيستميل زملاءنا ليقفوا خلفه، لكنهم بالطبع وقفوا أمامه ليجبروه على التراجع، فالبطل أمر بأن يتعد وأمره نافذ، الأخرق سبَّ ولعن، وفي النهاية انصرف خاسراً كالعادة، فثائر وحيد وسط قطيع مطيع من المستحيل أن يربح.

كنت أظن أن الأخرق سيتترك شقة المنايفة كعادته بعد كل خلاف، ويعود للإقامة في شقة العزاب، لكن يبدو أن عم بيشوي بالفعل يمتلك كرامات، على غير المتوقع أقنع الأخرق بعدم المغادرة. القديس الصائم على الدوام أصرَّ أن يقيم مأدبة غداء بمناسبة تعيينه، وأيضًا الصلح بين الأخرق والبطل، فهما ابناه كما يقول دائمًا، الغريب أنهما وافقا على الحضور، لا أعرف أسباب نية صادقة في التفاهم أو رغبة في رؤية المعجزة التي توشك على التحقق، فعم بيشوي منوفي أصيل لم نضبطه في مرة يأكل الظفر، كالصوفيين يعيش، يكفيه بضع لقيمات جافة وقليل من المش الفلاحي ليصلب طوله، يؤكد دائمًا أن جميع من في الجمع أبناءه، ويبرهن على ذلك بمشاركتهم طعامهم وشرابهم، يقول دائمًا إن "اللي في جيبه مش ليه"، لذا بمجرد أن يستلم الراتب يودعه في دفتر التوفير لتظل جيوبه فارغة.

انتظرنا عزومة بيشوي على أحرَّ من الجمر، وعندما حلَّ اليوم كان القديس صائمًا صيامه الأبدي، أحضر لنا الفول والطعمية والبادنجان. أكلنا الغداء المقدس وتم الصلح بين الغريمين.

لو أن تعييننا في الحكومة أعجوبة، فما حدث في ذلك اليوم أعجوبة الأعاجيب. أتوبيسان مُحملان عن آخرهما بأبناء العاصمة يدخلان من بوابة الجمع ويتهاديان في أرجائه، أمام كل مبنى يقف

أحدهما ويهبط منه مجموعة من الشباب، ثم يعود للتحرك، أفرغا
حمولتهما ورحلا، ليتركانا وجهًا لوجه مع أبناء العاصمة.

بنهاية ذلك اليوم تضاعف عدد العاملين في المجمع مرتين، أبناء
العاصمة لم يرتضوا بأن يتكونوا وحيدين، فأتوا لنستأنس بهم.

الأخرق قال بأنه كان يتعجّب من طريقة تدوين مندوب الوزارة
لأسمائنا وهو يجري الحصر.

- كان يسيب سطرين فاضيين بين كل اسم والثاني، وأنا
بقول الراجل ده حمار ولا إيه، بس طلعت أنا الحمار،
وأسامي ولاد مصر انحطت بين أسامينا، كأنهم كانوا
شغالين هما كمان مع المقاول.

زملاؤنا الجدد أصحاب خبرة، فهم أبناء للعاملين بالوزارة، انتظر
آباؤهم حتى سنحت الفرصة وعينوهم، حققنا معجزتنا الخاصة
فاستفاد منها أبناءوهم، ولكن لا يهم، فلا شفاعة في الرزق، هكذا
قال ممدوح البطل بعدما لاحظ تبرؤنا، "ده رزقهم ومكتوبلهم زينا
بالظبط".

قبل أن ينتهي اليوم حدثت الأعجوبة الأخيرة، بركاتك يا
مقدس بيشوي!

حضر المخبر، رفيق العنبر وبطل موقعة الستارة الشهيرة، عُيّن
هو الآخر في المجمع، ظهر أمامنا فجأة، واثق الخطوة يمشي ملكًا،

تلاقت الوجوه فذهلنا من ترتيب القدر، "بقينا زمائل يا بلدينا"،
قالها ضاحكًا وهو يحتضني أنا والأخرق، عرّفناه على زملائنا، وأصر
البطل أن يبيت معهم في شقة المنايفة لتأخر الوقت وبُعد سكنه،
وافق المخبر، وليته ما وافق! فالقذيفة التي أطلقها الأخرق عكّرت
ليلته.

- هتتور شقة المنايفة يا بلدينا، بس هنا مفيش ستاير، معلش
قضيها بقى وإنت واقف.

قالها الأخرق فوجّم المخبر وبهت، ظل صامتًا حتى تأكد بأن
أحدًا لم يفهم.

انطلق صديقنا العائد في الحديث، الضابط المسؤول عنه -أطال
الله عمره وجعله في ميزان حسناته- هو من عيّنهُ، بعد أن أنهى
دراسته الجامعية لم يجدوا من يحل محله، جنّدوا غيره الكثير، لكنهم لم
يكونوا بنفس المهارة والجَلَد والإخلاص، لذا أعادوه إلى الجامعة مرة
أخرى، دفعوا له مصاريف الدراسات العليا، حتى يستطيع أن يبقى
في الجامعة ويستمر في كتابة التقارير. سنتان أخريان قضاها هناك،
انتهيا بحصوله على دبلومة القانون الجنائي بتقدير امتياز، وواعد من
ضابط لاطوغلي بمساعدته في التعيين بوظيفة حكومية.

المخبر يحكي بانطلاق، والأخرق يضرب كفًا بكف ويتعجب؛
كيف يعيّنونه، وهم ذاهم طُرِدُوا من أعمالهم واقتُحِمَت مقرّاتهم؟!
المخبر يرد بأن الله لطيف بعباده، الضابط المسؤول عنه ظل في

منصبه، الله أعمى أبصارهم عنه ولم يتأدَّ، فقط انتقل من مقر لاظوغلي إلى مقر آخر يبعد عن المجمع بكيلومترات قليلة. ضابط ابن أصول، لم ينسَ تفاني المخبر وخدماته التي لا تُعد ولا تُحصى للبلاد، عندما سنحت الفرصة لم يتردد لحظة وعيَّته على الفور.

لا أهتم بحكاوي المخبر ولا بتعجُّب الأخرق واستفساراته المتكررة، أنا فقط فرِح لقدمه، سعيد بتجمعنا نحن الثلاثة ثانية، غير منشغل بالطريقة التي عيَّن بها، كل ما يعينني أن زميل الجامعة أصبح بيننا.

ظلاً يتحدثان وأنا سارج، تذكرت رهبة وخوف جميع من في مدينة الطلبة من المخبر، عندما حضر للمرة الأولى، أضحك في سري كلما أتذكر حادثة الستارة، لم أنسَ رغم مرور السنوات تعبيرات وجه المخبر المدعورة عندما أزحناها عنه، ونظرات الخزي في أعين جميع سكان العنبر.

- احضرنا يا عم كمال، يعني المقار اتقفلت والقيادات اتسرَّحت والوزير ذات نفسه دخل السجن، والبيه بتاعه نجى من كل ده، وكمان عرف يعينه، طب إزاي؟!

سؤال الأخرق لم يأتِ في وقته على الإطلاق، اقتلعي مما أنا فيه، من استعادة ذكريات تسعدني، الحاضر غالباً لا يروق لي، لم أحب أي حاضر عشته، تمر الأيام وتتوالى الأحداث، فيتحوَّل حاضري إلى ماضٍ، ينسحب بحُطى بطيئة حتى يستقر في ركن

قصبيّ مُظلم، غبار لهائي المستمر خلف المستقبل يحيطه، غلالة رقيقة منه تحتويه فيصبح ذكريات، أحب الذكريات؛ كلما أردت أن أنتشي أستعيدها، أعشق لذة تذكُّرها.

لم أُجِب الأخرق على سؤاله، فظل يكرره، جاوبته بأول ما ورد في ذهني علّه يتركني أصل إلى نشوتي.

قلت له: يا عم اعتبره أبناء عاملين، سطر فاضي بين أسامينا، يعني يا حمار الموظفين الصغيرين في الوزارة عرفوا يعينوا ولادهم، وظابط لاظوغلي مش هيعرف؟!!

ما كُتِب بين السطور ظل بينها، كتب بحبر شاحب لا يُرى إلا بتدقيق النظر، تخفُّوا بين أسمائنا حتى عبروا، وأرادوا أن يظلوا متخفِّين، انتظرنا أن يجف الحبر فيسطع، لكنه ظل باهتًا، تلك هي حال أبناء العاصمة، زملائنا الجدد في العمل.

بعدهما حضروا إلى هنا أصبح لكل منا بديلان قاهريان يشاركاه عمله، في البداية اكتفى أبناء العاصمة بالجلوس والفُرجة، قلنا مسألة وقت حتى يتعلموا، الوقت مر وهم على حالهم لم يتزحزحوا من على كراسيهم، علّمهم آباؤهم أصول العمل الحكومي وأرضعوههم قواعدهم حتى فطموا، القاهريون إما جالسون في المكاتب يثرثرون، وإما مستلقون على ظهورهم في مسجد الورشة، أو مهولون إلى الصراف يوم استحقاق الراتب.

في الحقيقة لم أكرههم على الإطلاق، فهُم ودودون للغاية ومرحون، "ولاد نكتة" مثلما يقول عنهم الأخرق، أما بلدياتي فكانوا على عكسي تمامًا، يُمقتون القاهريين إلى أقصى حد، لم ينسوا السطور الفارغة بين أسمائهم التي لُطّخت بالحبر، يشعرون أنهم غُرر بهم، ثورة واعتصام وفي الأخير يحضر أبناء العاصمة ليوظفوا على الجاهز.

قال البطل بأن ما يحدث بلطجة، ولا بد من وضع حد لذلك. تكلم مع القاهريين بجدّة، وأقسم بالله بأنهم لو ظلوا هكذا سيكون للمنايفة والشراقوة رأي آخر. بالطبع الرد كان جاهزًا: إحنا تحت أمر الشغل، بس للأسف معندناش خبرة، أهو بتتعلم منكم واحدة واحدة، ومع الوقت هتلاقونا معاكم كتف بكتف.

أختلف كثيرًا مع البطل وأرفض أغلب تصرفاته، لكنه للأمانة صاحب خبرة في الحياة وفي فرز البشر، لذلك عندما قال بأن أبناء العاصمة يماطلون من أجل إضاعة الوقت لا أكثر، صدقته.

في اليوم التالي نَقَدت مع الجميع تعليمات ممدوح البطل، كل منا جلس في موقعه، ثماني ساعات هي فترة دوامنا قضيناها في الثرثرة، لم ننجز أي عمل، استمرينا على ذلك الوضع أربعة أيام. في البدء لم يلاحظ القاهريون، لكن مع تراكم الأعمال غير المنجزة وتوالي الاتصالات من المديرين، للاستفسار عن أسباب التأخير، فهموا؛ بدأت أحاديثهم معنا تأخذ منحى آخر، كثُر الكلام عن

الزمانة، وعن الجزاءات التي من الممكن أن تطال الجميع بلا استثناء، وعن لقمة العيش ووجوب صونها، يتحدثون ونحن وذن من طين وأخرى من عجين. في اليوم الرابع استسلموا وقرروا أن يشاركونا الأعمال.

انتهت المعركة بانتصارنا، لكنه كان فوزاً بطعم الهزيمة، ما حققناه لم يُرضنا، فالعدل لم يتحقق مثلما أردنا، قسّمت المهام بيننا، لكن بطريقة جعلتنا متحملين أغلب الأعمال، تحججوا بقلة الخبرة فوافق ممدوح البطل. عندما لاحظ ضيقنا قال: يا جدعان إنتو الواحد منكم يتفك بعشرة من العيال الفرافير دول، فمفيش مشكلة إن كل واحد فيكم يشيل شغل قد اتنين منهم، المهم خليناهم يشتغلوا معانا.

أحوال بلدياتي لم تتغير بالرغم من تبدل العالم من حولنا، عم الشيخ أحمد استغل قدوم القاهريين ليعود لممارسة مهمته المقدسة، يخرج في سبيل الله قبل صلاة الظهر ليدعو المؤمنين إلى أداء فرض الله، بفطنة ونظرات ثابتة يحدد هدفه، صغار السن دائماً ما يكونوا وجهته لسهولة التعامل معهم، يرسم الابتسامة السمحة على وجهه، ثم يطلق استفساره التقليدي كمدخل للحوار: إنت يا ابني ليه مبتصلش معانا في المسجد؟ إنت تعرف ثواب صلاة الجماعة قد إيه؟

القاهريون مختلفون عنّا، أعصابهم مشدودة ومتوترون على الدوام، عندما تنظر إلى ملامح وجوههم تشعر بأنهم على وشك الدخول في مشاجرة، ربما يرجع ذلك إلى طبيعة الحياة في مدينتهم، ردودهم تضرب في الصميم كما يقول الأخرق، للأسف لم يفهم عم أحمد ذلك إلا بعد أن تلقى أكثر من ضربة. أحدهم قال له: "وانت مالك؟!"، وآخر قال: "متحشرش في اللي ملكش فيه"، والأخير رد بلوّم "إنت بقى تبليغ ودعوة ولا تكفير وهجرة؟".

الأخرق هو الآخر لم يتغير، فبعد أن أنهى عم بيشوي الخلاف بينه وبين البطل ساءت الأمور من جديد، وترك شقة المنايفة، لم يكن السبب هو مزحات البطل الخشنة، فهو معتاد عليها، ولا الملل من نصائح بلدياتي وتحذيراتهم المتكررة من خطورة اندماجه مع زملائنا القاهريين، فالأخرق تجاهل كل ما قيل وتصادق مع أبناء العاصمة، عندما تراه وسطهم تشعر بأنهم أصدقاء منذ زمن وليس معرفة أشهر قليلة، ضحك ونكات في المجمع طوال النهار وسهر على المقاهي حتى الفجر، والبطل يحذر وهو لا يبالي.

- ما هما طبعًا على مزاجك، ملهومش في الشغل ويحبوا السهر في الشوارع للفجر وشرب المخدرات.

الخلاف حدث يوم عزاء والد أحد الزملاء، بعد الفجر بقليل جاء الاتصال، أخبرنا الزميل بأن الوفاة وقعت. عم بيشوي سارع بتأجير ميكروباص لنقل بلدياتي للشرقية، اتفق كبراء الشقق أن

يسافر نصفنا لتقديم واجب العزاء، وبظل النصف الآخر في المجمع لتأدية الأعمال. بالطبع لم يكن الأخرق في الحسبان، نعرف أنه سيسخر منا، وسيرفض المجيء معنا للتعزية؛ وضعه البطل في خانة الحاضرين للعمل، غادرنا المجمع والأخرق لم يكن قدم من سهرته، يوم شاق عدنا في نهايته مُنهكين، عندما وصلنا فوجئنا بأن الأخرق لم يعد إلى المجمع، طالت سهرته فغاب عن العمل وبات عند صديقه القاهري، وصل إلى شقة المنايفة بعد المغرب، فعاتبه البطل، قال له: يا أخي خلي عندك دم، يعني إحنا سافرنا وطلع عين أبونا، وإنت نايم على بطنك؟! يعني ولا تعمل واجب العزا ولا حتى تيجي الشغل؟! ده أنا أكدت عليك وكلمتك أربع مرات، وبردو مفيش فايذة!؟

مشاجرة وتلاسن تعوّدنا عليهما، تطورا بعدما رفض الأخرق الاعتراف بخطئه، يأس منه البطل فألقاه بقذيفة من النوع الثقيل، قال له: خليك كده متلرزق في العيال بتوع مصر، وماشي وراهم زي الكلبة النتاية اللي عايزة عُشر.

غادر بعدها الأخرق شقة المنايفة للمرة الأخيرة؛ نعتُهُ بهذا الوصف آله، شعر بالإهانة فرحل ونوى عدم العودة مطلقًا.

أفضل ما في الوظيفة الحكومية أنها لا تُفَرِّق بين كبير وصغير، قاهري وريفى، الكل سواسية، الجميع يقف في طابور طويل أمام الصراف ليستلم راتبه، طبعًا الوضع لم يعجب الكبراء، حاولوا تغييره

وفشلوا، فالصراف كان صعب المراس، قال لهم: مينفعش حد يقبض لحد، دي مش طابونة، اقفوا في الطابور زيكم زي زمائلكم.

كانت تلك هي أولى الضربات التي تلقاها الكبراء، فالمرتبات خرجت من أيديهم إلى الأبد. للأمانة لم يفرح أحد من بلدياتي لذلك، بالعكس، أظهروا بعضًا من الحزن المصطنع، والتزموا بتسليم الكبراء مصاريف الطعام واستحقاقات الصناديق فور تسلم المرتب.

حاول بلدياتي إقناع القاهريين بالاشتراك في صندوق كفالة اليتيم، عددوا لهم مزاياه، لكن أبناء العاصمة رفضوا، قال الكبراء هذا أفضل، نحن في الأساس لم نُرد دخول الغرباء بيننا. أعرف أنهم قالوا ذلك لحفظ ماء وجوههم بيننا ليس إلا. أعتقد أن تملُّص القاهريين وعدم اشتراكهم في الصندوق لم يكن فقط مُكْرَسًا للانقسام بين العاملين في المجمع، إنما كان مسمارًا دُقَّ في نعش دولة الكبراء.

(11)

اسمه نور، في نحو الثامنة من عمره، وإن يبدو أكبر بقليل، أشقر، مستدير الوجه، ملامحه دقيقة وكأنها مرسومة بريشة فنان، كـ"الخواجات"، كما قالت لي جدته ذات مرة وهي تضحك في زهو.

نلتقي يوميًا دون ميعاد، حين أذهب لشراء طعام الإفطار من المطعم المجاور الذي يعمل به، يستقبلني ضاحكًا، يسرع الخطى ليسبقني إلى الداخل، مع توجيه منه للعامل بإعداد أفضل السندوتشات لعمو كمال، يودعني بابتسامة، ويصر أن يوصلني إلى خارج المحل.

معرفتي بنور بدأت قبل ذلك بقليل، عندما أتى هو وجدته للسكن في نفس البناية التي أقطن بها. قدومهما كان طوق نجاة لي، مفاجأة سارة لم تكن في الحسبان، أخيرًا وجدت زوجتي رفقاء في مدينة المتعجرفين.

أعدت ليلى إلى العاصمة بصعوبة، أنهت الامتحانات وأصرّت على البقاء في البلدة بحجة رعاية أمها وأبي. عود القصب تتذاكى كي لا ترجع. استخدمت كل أسلحتي لأدفعها إلى العودة، أذكرها بالأيام الخوالي، بالشغف والانبهار، أحكي لها عن وحدتي، أرسل فتنة لتخبرها بخطورة ترك رجل وحيد في العاصمة، تُحدّرها أختي من

بنات العاصمة اللائي تخصصن في إغواء الرجال السذج من أمثالي. تقبل على مريض بالعودة، وتشرط أن أقدم طلبًا للوزارة للنقل لأي عمل حكومي بشبين الكوم، قالت: بالتأكيد الوزارة ليها فرع في شبين. كذبت ورددت بالإيجاب، قلت لها إن موضوع النقل من محافظة لأخرى يستغرق شهرًا طويلًا حتى يتم.

عادت وفي نيتها أن تكون الزيارة الأخيرة للعاصمة، شهر ستمضي ويتم النقل، وبعدها نستقر في قريننا إلى الأبد، لكن جارينا الجديدين غيّرًا من مخططاتها.

قالت لي إنهما من سوريا، جدة وحفيد، لم تستطع العائلة أن تُدبّر مصاريف السفر للجميع، فأرسلوا أكبرهم وأصغرهم على أمل لقاء قريب.

عندما وقفت السيارة المحملة بالأثاث أمام المنزل، فهمت ليلي بأن ساكنًا جديدًا حضر. تجارها السابقة مع الجيران جعلتها لا تهتم، من يحضر يحضر ومن يمشي يمشي، "أنا ما لي؟!"، هذا ما قالته لنفسها وهي تتابع الموقف من وراء شيش البلكونة. استوقفها العفش الهزيل حجمًا ونوعًا، استغربت من وضع السائق للأثاث أمام مدخل البناية ومغادرته، تاركًا المرأة والطفل وحدهما، أخذت تُحلل الموقف. بالتأكيد ليسا مصريين، لهجتهم مختلفة، الطفل ينادي العجوز "جدتي"، إذا فأين أمه؟ ظلا جالسين في الشارع لساعة حتى حضر رجلان لهما نفس لهجتهم، حملا الأثاث وصعدا به إلى الشقة.

محاولات زوجتي للبقاء في شقتنا فشلت، نكثت العهد الذي قطعته على نفسها بعدم التعرف على أحد من سكان هذه المدينة، هبطت إلى الدور الثاني وطرقت بائساً للترحيب، عرضت أن تساعدنا، وقبل أن يجيبها شمّرت عن أكمامها وبدأت في العمل، الأدهى من ذلك أنها أصرّت أن أصحابها لأرحب أنا الآخر بهما، حملتني صينية طعام وسحبني خلفها، لاحظت ترددي فقالت: عيب يا كمال! إنت ابن بلد وعارف يعني إيه غُربة، دول أغراب، مش معقول منزلهمش أكل في أول يوم ليهم معانا.

في آخر ذلك اليوم رأيت ليلي أخرى، عود القصب عادت لطبيعتها الأولى، رجعت الابتسامة والضحكة العذبة. نور وجدته كان لهما مفعول السحر. داعبتهما وقلت لماذا نكثت بالعهد وحدثت الجيران، ردت: عندما رأيتني وأنا في النافذة كانا مختلفين عن متعجرفي هذه المدينة، الجدة ابتسمت لي ونور لَوَّح بيده ليُحييني.

من تعود الوحدة يخشى الاندماج، تلك كانت حالي في البداية، الزيارات الكثيرة المتبادلة أثارت توجسي، قلقت من أن يكون التعارف بداية لشيء ما، ربما طلب مساعدة أو خدمات قد تُثقل كاهلي. قال البطل بعدما أخبرته عنهما: خلي بالك يا كمال، الصحوية الزائدة بينهم وبين مراتك خطر، شوية وهيدعوا الفقر وهيطلبوا فلوس. لم أستطع أن أمنع ليلي عنهما، لميحت فقط،

حدثتها عن الخصوصية واختلاف الطباع والعادات بين الشعوب. لم أفدر على التصريح، كلما هممت بالمحاولة، أرى وجهها الذي استعاد حيويته فأصمت. حمدت الله عندما أثبتت الأيام خطأ اعتقاد البطل.

الجددة والحفيد مثلنا، كل ما يحتاجه هو بعض الونس. قالت ليلى ذات مرة مفسرة الاندماج السريع الذي حدث بينها وبين جدة نور: هما زينا بالظبط، أغراب وملهومش حد هنا. حديثها مقنع، فالأقليات تندمج، تضم على بعضها بعض، لتشعر بالطمأنينة في مواجهة الأكثرية، جميعنا يشعر هنا بالوحدة، الرهبة من المدينة والخوف من المجهول يقتلانا ببطء، فما المانع في بعض الونس ليهون علينا.

حضرت جدة نور إلى البناية، فزُفَعَت كتب ليلى الدراسية وعادت ثانياً إلى الكراتين، طبقة التراب التي تكسو شاشة الكمبيوتر اختفت وحل محلها لمعة، عادت زوجتي من جديد إلى الجلوس والبحلقه وتدوين الملاحظات. بذلت الكثير من الجهد حتى جهَّزت مفاجئاً. لم أفهم ما قامت به، فأنا لست ضليعاً بأمر التكنولوجيا، أحضرت نور وجدته وأجلستهما أمام شاشة الكمبيوتر، دقائق قليلة مرّت وبعدها سمعتُ شهقة الجددة وتصفيق الطفل، صورة والد نور تملأ الشاشة، يتكلم وعيناه تدمعان، الجددة

تبكي هي الأخرى، أما نور فيتحدث مع والده بحماس والفرحة لا تسعه.

زوجتي حققت للجدّة أعلى أمانيتها، أرتها ابنها الوحيد ثانيًا، فالإنترنت يحقق المستحيل، العائلة التأم شملها أمام شاشة الكمبيوتر، أسبوعيًا يجري اللقاء، مرة يحضر الأب وحده، وأخرى يأتي ومعه أقارب آخرون، قد يستمر لقاءهم لساعة، وأحيانًا ينقطع بعد دقائق قليلة، جودة الصوت والصورة ضعيفة للغاية، لكنها كافية لتجعل جارينا الجديدين ممتنين لليلي، التي قرّبت البعيد.

مكالمات ليلي لصديقاتها قلّت، فهي مشغولة أغلب الوقت بعد أن أصبحت مرشدة جدة نور في المدينة، جولات شراء الخضراوات والفواكه، والوقوف في طابور العيش المدعم يقضيان على أغلب النهار، وبعدها تعودان إلى المنزل لتبدآن في إعداد الغداء، الجدة تُعلمها أصناف الأكل السوري، ويلي تعلمها أصول إعداد الأكل الفلاحي. لا تفترقان إلا قرب قدومي من المجمع. بعد غروب الشمس تتكرر الزيارات، إما أن يحضر نور وجدته لمنزلنا، وإما نزل نحن إلى شقتهما، نشاهد التلفاز ونثرثر في شتى الموضوعات لساعات.

بالتأكيد سعادة ليلي من سعادي، لكني لم أستسغ هذا الجو المأساوي، حكايات الحرب والخراب تضني القلوب، الحديث عن الأقارب الذين قُصِفَت منازلهم بالصواريخ وتحولوا إلى أشلاء يقبض

قلبي، عائلة نور نفسها وقصة تهريب الجدة والحفيد فقط إلى الخارج لعدم كفاية الأموال، تجعلني أوشك على البكاء، الولد الصغير الذي يعمل منذ طلوع الشمس حتى غروبها يزيد من بؤسي؛ من في سنه يقضي يومه في المدرسة ليتعلم ويلعب، يدلل، لا تُنهك قواه في العمل الشاق. عندما أخبرت البطل عن غضبي وضيقني مما يعانيناه ضحك وقال لي: استرجل ياد واخشوشن، الدنيا مليانة مآسي، بس الواد نور ده راجل وعجبي.

أمي كانت فائقة الجمال في صباها، مثلما تقول أم ليلى دائماً، ما تبقى في مخيلتي فقط ملامحها في أيامها الأخيرة. فترة مرضها هي كل ما أتذكره. للأسف لا أمتلك صورة تجمعني بها، كل ما لديّ هو صورة بالأبيض والأسود، ترتدي فيها فستان العرس ولامحها ليست واضحة. لعنة الله على الحظ الذي لم يسمح لي ولو بصورة تجمعني بأمي! صحيح لو علمنا الغيب لحلت جميع مشكلاتنا، كنا سنلتقط صورة عائلية تجمعنا ونُخلّد ذكرى أمي.

- يا بختك!

قلتها لنور عندما أراني صورة لأمه، كانت تضحك وهي تحمله بين يديها. أمه ماتت منذ زمن، رحلت قبل أن تسمع صوته يردد اسمها، جدته هي من ربته، لكنه لم ينسَ ملامحها وضحكتها، فالصور الفوتوغرافية لها فعل السحر، الولد يتحدث أغلب الوقت عنها، يقول لي: صوت ماما رائع وهي تغني. أتعجب وأقول له:

كنت صغيراً يا نور فكيف تتذكر؟! يفاجئني الولد كما يفاجئني الجميع: كنا بنتصور بكاميرا الفيديو يا عمو، بابا كان يبصّورنا وإحنا بنلعب وماما بتغنيلنا. تقول جدته: عندما حل الخراب، الكل كان يجري هلعاً إلا نحن، لم نغادر منزلنا، إلا بعد أن وجد نور صورة أمه وشريط الفيديو، رفض الولد أن يرحل قبل أن يجدهما، كدنا أن نموت بسبب إصراره. قبل أن نأتي إلى مصر تركنا شريط الفيديو مع أخي نور والصورة احتفظنا بها.

عرفت الآن معنى ما تقوم به عمتي، فللعيد طقوس عندها، أهمها الذهاب إلى استوديو التصوير، تأخذ ليلى معها ولا تعود إلا وفي يدها الصورة. عمتي لثيمة تخشى أن تُنسى بعد موتها، لذا تترك لنا عشرات الصور الفوتوغرافية، ليتذكرها الأحفاد وأحفاد الأحفاد.

أول ما تزوجت أخرجت ليلى ألبوماً للصور وقالت لي: سأفاجئك. عود القصب تمتلك صورة تجمعنا، أبي وعمي يرتديان الجلباب البلدي، وأنا أقف بجانبهما مرتدياً بدلة الضابط، وليلى ترتدي فستاناً أبيض وتقف على كرسي خشبي أمامنا، عندما رأته ليلى الفرحة البادية على وجهي قررت أن تبروز الصورة، وضعتها في واجهة غرفة الجلوس، وكلما نظرت إليها تقول لي بدلال: أبوك وأبويانا كانوا متفقين من يومها إن ليلى لكمال. لا أعرف بماذا أرد، أحياناً أقول لها "آه"، وعندما أستشعر بواخة ردي أقول لها "أحبك". في مرة تخلّيت عن ردودي الساذجة واحتضنتها وأكثرت

من قبلاقي، ضحكت وتملصت من بين ذراعي، ومن يومها توقفت عن ترديد جملتها ثانية.

عندما أطالت ليلى النظر إلى الصورة بعد انقطاع استعدادات للهجوم، انتظرت أن تقول جملتها لأطوقها بذراعي، أنزلت الصورة من على الحائط ودققت النظر ثم قالت: نور شبهك قوي يا كمال. أتأمل الصورة فأرى الملامح مختلفة، نور كالخواجات وأنا ريفي أصيل تفضحني ملامحي مهما حاولت "التفرنج"، المشترك فيما بيننا هو نظرة العين وتعبيرات الوجه، أبي وعمي كانا عابثين، أظن أن ليلى كانت تبكي وهي تحاول التملص من يد عمي القابضة على خصرها، لمنعها من القفز من فوق الكرسي، أما أنا فكانت أحملق في شيء ما خارج الكادر، سارح ونظراتي توحى بأنني مُشوّش، ملامح تظهر بأن صاحبها مذهول مما يراه، نظرات نور مثل نظراتي تمامًا في الصورة.

ليلى حاولت كثيراً أن تساعد جدة نور، لكنها رفضت. نعلم أن دخلهما محدود، مَنَحَ تأتي كل فترة من منظمة الإغاثة، وراتب نور الضئيل هما كل ما يحتكمان عليه، نستبعد بأن تكون قد أحضرت معها أموالاً، فلو كانت تمتلك النقود لأدخلت نور المدرسة، بدلاً من العمل المرهق في المطعم. ما يميز زوجتي هو المثابرة، أصرت أن تساعدنا، وقد كان، بعد أن شرحت لي خطتها قالت: مساعدة الغرباء فرض وما انتقص مال من صدقة. وافقتها

بالطبع، فقامت بالحيلة، عندما ذهبنا إلى السوق أصرت زوجتي على المحاسبة، تقول للجددة: هنتحاسب لما نرّوح، إنتي لو حاسبتى هيخموكي عشان مش مصرية. زوجتي لم تعد تحاول أن تساعدنا جهراً، فقط تدوّن المشتريات في ورقة، وتضع أسعاراً غير حقيقية ثم تعطيها للجددة لتدفع نصيبها. انطلقت حيلة تخفيض الأسعار إلى النصف على الجدة، ففرحت ليلى وتباهت أمامي بذكائها الفائق.

لا أعرف سر سعادتي أنا الآخر لحضورهما، في البداية أوهمت نفسي بأن سعادة ليلى بقدمهما وعدولها عن قرار الرحيل هو سبب فرحتي، بعد فترة صارحت نفسي بالحقيقة، أنا سعيد بالنونس، باللمة، بالأساس نور هو السبب، جلوسي مع طفل بالساعات أمر غريب، بالتأكيد لو كنت أمتلك أصدقاء حقيقيين لما مكثت في المنزل، منتظراً قدوم طفل دون العاشرة لأنسامر معه. في الحقيقة أنتظره على أحرّ من الجمر، وإن تأخر أهبط إلى شقتي لأطمئن عليه. ليلى فسّرت ارتباطي بنور: عادي يا كمال الواد شبهك، عشان كده بتجبه. بعدما رأيت علامات عدم الاقتناع التي رُسمت على وجهي، أحضرت البرواز ووضعته أمامي، بص على صورتك وإنّ صغير هتلاقى فيكم شيء من بعض.

أحاديثنا تطول أنا ورفيقي الصغير، نبدأها بتقرير يلقيه عن أحداث يومه في المطعم، ينهيه ثم يبدأ في طرح الأسئلة عن أي شيء يخطر ببالي، وينتظر مني الإجابات. نور غرّ ساذج، يتعشم في

أن يجيبه شخص ذاهل من كل شيء، في بعض الأحيان أجيبه، وكثيراً ما أفشل في الإجابة، الجميل في نور أنه يستمتع بطرح الأسئلة ولا يهتم بالحصول على إجابات.

يتحوّل الحوار تلقائياً إلى الذكريات، يحدثني عن قريته وأهله، عن سوريا قبل حلول الدمار، نطل بالساعات نحكي بلا ملل، عن أمي وأمه، عن أبي وأبيه، ذكرياته القريبة تشبه ذكرياتي البعيدة، أشعر أن أمه صورة من أمي، مثلها في كل شيء، أو ربما صورة الأمهات في أعين أطفالهن واحدة.

الحين إلى حضن أمي يقتلني، غربتي هي في البعد عنها، أمي وطن وما عاداها غربة، حضنها كان الأمان، وبعد أن ماتت تهمت بحثاً عن طمأنينة زائفة، طالت تغريبتني بلا جدوى ولم أصل، وجب أن أذهب إلى القرية، فرما أجد في رحاب قبر أمي ما يريح روحي المنهكة.

البطل لا ينسى ولا يقول كلمة في غير موضعها، أعرف ذلك، لكنني لم أتصور أن يتصل خصوصاً للاستفسار عن أحوال نور. قال لي: العيد قرّب والواد محتاج لبس جديد. رددت بأن الوقت ما زال مبكراً على العيد، وأكّدت له أنني لم أنس، وسأشتري لنور طاقمين من الملابس الجديدة. رد البطل ضاحكاً: خلاص طقم عليك وطقم عليّ، وكمان هشتريهوله من أنصف محل لبس في مصر.

أخبرني بأن أذهب إلى توكيل الملابس المستوردة الموجود في مول المدينة.

- روح هناك لبلدياتك وهيظبط لنور أحلى هدوم.

محل الملابس الذي أخشى المرور أمامه سأدخله أنا ونور. قالت ليلى: خلاص لو صاحبك عايز يدفع كثير هو حر، إحنا مالنا؟ قررنا أن ننتقي لنور طاقمًا واحدًا من هناك، أما الآخر فستشتره ليلى من شبين الكوم.

تأكدت أنني سأظل ساذجًا مهما حاولت التذاكي. بالطبع البطل لا يهوى تبديد الأموال، فطالما وجد بلدياتي في مكان، فبالتأكيد هناك ثغرة سيجدانها.

وصلنا إلى المول، وبدأ بلدياتي على الفور في عرض الملابس المناسبة لنور، كلما قرأنا الأسعار المدوّنة على المعروضات بهتنا، ليلى تتذرع الحجج لنهرب بجلدنا، بالرغم من تطميناتي بأن البطل هو من سيدفع، بلدياتي يلاحظ ما نحن فيه من توتر، فيتولى هو اختيار الملابس الجديدة لنور. الولد سعيد، يلبس ويقبس ويخلع، ونحن ندعو الله في سرنا أن يمر الوقت بلا خسائر، بلدياتي يلاحظ اضطرابنا فيضحك ويعيد الملابس إلى أكياسها، يعرض الأكياس أمام نور ليؤكد اختياره ثم يرجعها إلى الأرفف مرة أخرى، يقول لنا: اتكلوا على الله، أنا هبقى أوصل اللبس للبطل. فنرحل حامدين الله على خروجنا سالمين.

قبل أن نصل إلى المنزل يأتي اتصال البطل، فبلدياتي حكي له كل شيء وكأنه كان معنا، قال لي: كنت هتشخ على نفسك يا فرفور. لم تزعجني سخريته اللاذعة، فأنا متعود عليها، ما أدهشني هو لعبته الجديدة التي نجحت كالعادة، قال لي: كل ما يلزم للفوز بالملابس المستوردة هو الصبر وبعض من اللعاب، الملابس تخرج من الأكياس وتُفكّ منها الدبايس، بدلاً من أن يمسك بلدياتي الدبايس بيده يضعها بين شفتيه، بعض من اللعاب على الدبايس ثم يعاد وضعها في الملابس، تُغلق الأكياس وترفع إلى الأرفف مرة أخرى، بعد أيام تمبط الأكياس بحجة عرضها لزبون جديد، يفاجأ بلدياتي بالصدأ الظاهر بالملابس حول مواضع الدبايس، يا سبحان الله! حتى الملابس المستوردة مليئة بعيوب الصناعة كالمحلية. أسبوعان على الأكثر ويأتي التسعير الجديد للبضائع المعيبة، خصم يتراوح بين ستين إلى سبعين بالمائة.

وصلت الملابس الجديدة في موعدها، قبل العيد بأيام سلّمها لي البطل، قال لي: ادّي الهدوم لنور، وقوله دي هدية عمك ممدوح. قلت له: ما دام السعر رخيصاً أريد أن أشتري طاقماً آخر لنور ولليلي أيضاً، حدّثني بلهجة التقويّ الورع: "ده حرام يا كمال!"، ثم أردف: "وبعدين لو زودنا في الموضوع بلدياتك هيتكشف ويتقطع عيشه من المحل".

عجيب أمر هؤلاء السوريين، رغم المحن والدمار الذي أصاب بلادهم لا تفارق وجوههم الابتسامة، تفاؤلهم ويقينهم بالعودة إلى ديارهم يدهشني، ربما ذلك هو سبب عدم تقدمهم في العمر.

هذا ما قالته لي ليلي وهي تفسر سبب قلة التجاعيد في وجه الجدة، كنا نظن أنها في أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات من العمر على الأكثر، طبعاً ليلي لم تسألها عن عمرها. حديثهما تطرّق إلى الأبناء والأحفاد، فأخبرتها الجدة بأن ابنتها الكبرى تستقر في حلب منذ أن تزوجت، وأنها تمتلك من الأحفاد ثمانية، ليلي تعجبت وسألت الجدة كيف يكون لشابة أحفاد، بالتأكيد زوجتموها وهي طفلة! ضحكت الجدة وردت: كانت شابة يافعة حينها، وهي الآن عجوز جاوزت الخمسين. ثم أردفت: زوجوني وأنا في العشرين، وكذلك تزوجت ابنتي في نفس العمر.

قالت ليلي: تصدق يا كمال، حتى المرض لا يعجل بالهرم مثلما كنت أظن! فالجدة مصابة بأغلب أمراض الشيخوخة، ومع ذلك لا تظهر عليها آثار التقدم في العمر. لم تستطع كتمان تعجبها وانفلت لسائها سائلة الجدة عن سر الشباب الدائم، ردت الجدة في ثقة: الضحكة الصافية واليقين بأن الله فوق سبع سموات يرعانا هما السر. حدثت إليّ ليلي بعد أن أنهت كلامها منتظرة ردي، فأومأت برأسي بالإيجاب، ما دام ذلك يرضيها فلم نتجادل بلا جدوى؟! طبعاً لم أقتنع بنصائح الجدة، فالضحكة في الهم مُصطنعة كلية،

قشرة على السطح تخفي تحتها بركاناً من الأسى، قد يصدقها مَنْ حولك ويقتنعون بأنك سعيد وراضٍ، ستطمئنهم أنك بخير، ولكن من المستحيل أن تداوي بضحكة زائفة ذاتك. اليقين هو الآخر خرافة نوهم بها أنفسنا، لنستطيع الاستمرار في حياتنا البائسة. ضحكة الجدة قناع ويقينها زيف، تضحك فقط لتَهوِّن على الحفيد.

يحكي لي نور عن وعود جدته التي لا تتحقق أبداً، في بداية كل شهر تعده بانتهاء الحرب في سوريا، تقول له سنعود إلى الأهل قبل نهاية الشهر، الطفل ينتظر ويمَيِّ نفسه بالعودة إلى الوطن، إلى دار تجمعهم مع عائلته من جديد. كل يوم يسكب بقلمه نقطة جديدة من الحبر على ورقته البيضاء، وعندما يصل إلى ثلاثين نقطة يذهب بالورقة إلى الجدة ويقول: انتهى الشهر وما زلنا في مصر. مرت الشهور وكثرت الحجج وفي النهاية أخفت الجدة الورق والأقلام من المنزل. قال لي نور بعدما يئس: يا عمو جدتي تدعو الله كل يوم بأن تنتهي الحرب، ونعود مرة أخرى إلى بيتنا، تدعو على الظالم والقاتل والخائن، تردد نفس الكلمات كل يوم ولم يحدث شيء، الحرب ظلت قائمة يا عمو، وأبي أخبرني أن بيتنا هو الآخر تهَدَّم بفعل قذائف الأشرار، لماذا لا يقتل الله الأشرار يا عمو؟ لماذا يترك من يدعوونه يُقتلون؟ خالتي قُصِفَ منزلها، ماتت وهي ساجدة تصلي، لماذا تركهم يقتلونها يا عمو ولم يمنعهم؟

الضحكة الزائفة والتظاهر بالتفاؤل قد يقنع البشر، لكن الأمراض الكامنة في الجسد تشتم رائحة اليأس مهما حاولت إخفاءها، الجدة تكذب على نور، تعرف بأن كل ما تقول له محض هراء، ملأها اليأس فبدأت في زيارة المستشفى. تقول لنا الجدة: أطباءكم مكشرو الوجوه، ضيقو الصدور، يصرفون براشيم مثل الطباشير، لا فائدة منها سوى وجع المعدة. نعرض عليها أكثر من مرة أن نذهب بها إلى طبيب خاص، فلا توافق، امرأة أبيّة ترفض أن تُثقل كاهلنا، تتحجج بأن جسدها يحوي الأمراض منذ زمن، هي والمرض عشرة قديمة كما تقول، تارة تهزمه وتارة ينتصر عليها، ربما أحس المرض أنها مكسورة الآن فهاجمها بضراوة، علة يحقق انتصاراً نهائياً.

(12)

ضريح أمير الجيوش هو ما يميز قرينتنا، نتباهى بأن الأمير يرقد هنا، بالرغم من أنه بالقطع لم يختر محطته الأخيرة، هزمه الموت فاستقر في قرينتنا إلى الأبد. يقال بأن جميعنا أبناءه، وُلدنا من صلبه، لذا نُسمى بأبناء الأمير.

حكى لنا الأجداد أن الأمير كان يعشق زوجته، فبالرغم من عدم إتيانها له بالذرية لم يرضَ بأن يجرحها، الشرع حلل مثنى وثلاث ورباع لكنه رضي بواحدة واستكفى، العشق لا مخافة الظلم هو السبب.

زوجة الأمير حضرت معه كل غزواته، هو في الصفوف الأولى يُقاتِل بسيفه البتّار، وهي في المؤخرة تداوي الجرحى، على مشارف قرينتنا حلُّوا فبدأت المعركة، بعد أن انتصر الأمير نصَّبَ خيمته، اكتمل القمر في السماء فأحست بالبشارة، قبل أن تشرق الشمس اغتالته الأيدي الخائنة، لكنه كان قد ترك في أحشائها شيئاً من صلبه. قالوا إنها لم ترحل، عندما أهال الجنود التراب على جثمانه أصرت على البقاء بجوار قبره، تركوها وحيدة وأكملوا المسير إلى العاصمة، ليحققوا لقائهم أمنيته، أغوهم العاصمة فنسوا زوجة القائد واستقروا.

عندما عطشت تفجّر من تحتها ينبوع ماء عذب كالعسل،
قرصها الجوع فأنت الطيور بطعام من خيرات الرحمن وألقته لها،
فأكلت حتى شبعت. أدمت الشمس الحارقة جسدها فحضرت
العصافير وألقت بالبذور، ودفعت الرياح السحب، فهطلت
الأمطار في غير أوانها، فنبت الزرع ونمت الأشجار سريعًا - بإرادة
الرحيم - لتظللها، خرج الوليد من رحمها مُعافي بفضل الوهّاب،
ففرقت عصافير السماء وكأنها تُزغرد، حضر الناس من كل حدبٍ
وصوبٍ، فرأوا الصحراء وقد تحولت إلى روضة، آمنوا بكرامات أمير
الجيش واستقروا بجوار قبره واغترفوا من هباته.

كلما كان ممدوح البطل على وفاق مع الأخرق نعته بابن
الأمير، وكلما تعاركا سماه ابن الزواني. في إحدى المرات سمع البطل
بحكاية سيدي أمير الجيش من أحد بلدياتي فضحك، قال: دي
قصة هبلّة، دول شوية غجر على حرامية لقوا مقام قاموا عاملين
حواليه مولد عشان يسترزقوا، ولا فيه أمير ولا نيلة، ده كله أكل
عيش. لم يُصرّح البطل برأيه هذا مرة ثانية، صمت ثم اعتذر، بعدما
لاحظ تقطيع الوجه والشر الذي يتطير من أعين بلدياتي.

لا أدري لماذا يسبقون اسم أمير الجيش بلقب الشهيد، لأنه
قُتل غدراً أم لاستقراره في قريتنا وفشله في الوصول إلى العاصمة!
من يدخل العاصمة فاتحًا يُذكر اسمه بحروف من نور في كتب
التاريخ، يتردد اسمه في الكتب المدرسية وفي الأغاني الوطنية، أما من

فُقِل قبل أن يصل فسئسسى، على أقصى تقدير سيقام له ضريح،
ويأتي الريفيون لحضور مولده، نهايته ستكون الرقود إلى الأبد في
قبر، تعتليه الغوازي والسحرة الفاشلون، وتُنصَب فوقه المرايح.

أؤمن بأنها أساطير نسجها الأجداد للتباهي وإعلاء شأن قريتنا،
لكني أحياناً أشعر أن بعضاً مما يقال صحيح، عمي الذي رفض أن
يتزوج بأخرى، وظل لسنوات منتظراً أن تأتيه الهبة من الله وتنفخ
بطن زوجته بوليد، وفاء أم ليلي له رغم مرضه الطويل، ورفضها
الرحيل إلى قريتها بعد وفاته لتظل بالقرب من قبره، الأخرق هو
الآخر بجرأته وتمردده، يشعرني بأنه من نسل قائد مغوار. في أحيان
أخرى أعتقد بصحة ما قاله ممدوح البطل، كلما تذكرت شلة
الأخرق، وجرجس بائع البيرة، وفتاة التوكتوك، وممرض الوحدة
الصحية، أوقن بأن كثيراً من أبناء قريتنا من نسل زوانٍ بالفعل.

حامد زوج فتنة يُحَيِّرني بطباعة، فهو يجمع بين سمات السماحة
والوفاء والجدعنة، وطباع العجر ولاعبي السيرك في الموالد. لأم ليلي
كل الحق في أن تُلقِّبه بالأونطجي، فنسيبي جامع للنقائض، يصلي
العشاء في مسجد سيدي أمير الجيوش، وبعدها يذهب إلى الغيط
ليدخن الحشيش مع أصدقائه، يقول "أحلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا"،
ويبيع بضائعه بالتقسيط ويغالي في الفائدة، كلما استبعده الحزب
من الترشح في انتخابات المحليات يقسم بأن السياسة نجاسة، وأن
الحزب تفوح منه رائحة نتنه، لكن فور أن يستدعوه يلي النداء

ويحشد الناس ويهتف بحياة الرئيس، طمعاً في منصب حزبي يتمناه منذ زمن. للأمانة حامد الأونطجي رجل طيب، لم يؤذِ أحداً مطلقاً، مجامل على الدوام، لا يترك فرحاً أو معزى إلا ويحضره، أفعاله الحسنة مع عائلتنا جعلت أبي يعترف بخطأ رأيه السابق، فهو كان رافضاً لزواج حامد من فتنة، ولم يوافق إلا بعد أن أخبرته أم ليلي أن أختي لن ترضى بغيره، كلما كبرت تجارة الأونطجي زاد حبه لفتنة، فهي نائبه ومساعدته ومستشاره.

انتهت الثورة وحلَّ الحزب، فانتقل الأونطجي إلى حزب آخر، عيَّنه أميناً للحزب في القرية وعضواً بأمانة المحافظة، فنسيي عملة نادرة وخبراته في الحشد والهتاف لا تخفى على أحد، طبعاً بالإضافة إلى أمواله الكثيرة التي لم ييخل بها على الحزب الناشئ. يدور الحديث في قريتنا، بأن حامد تبرَّع للحزب بمائة ألف جنيه ليحصل على عضوية أمانة المحافظة. عندما سألتُ فتنة عن ذلك أكدت كذب تلك الادّعاءات، قالت إنهم يحقدون على زوجها، ويتمنون الانضمام إلى الحزب الناشئ، عرضوا دفع آلاف الجنيهات، لكن طلبهم قوبل بالرفض، لسوء سمعتهم.

- جوزي زى الجنيه الذهب يا كمال وأي حزب يتمناه.

قريتنا كما هي لم تتغير، فقط أزيحت صور الرئيس المخلوع من الشوارع، وحلَّ محلها صور للميدان المحتشد بأبناء العاصمة

المنتصرين. مقر الحزب أُحرق، وأصبح الدور العلوي في عمارة حامد مقرًا للحزب الناشئ.

أمير الجيوش يأتيه الضيوف من كل مكان، أفرع الإنارة تحيط بمسجده ودموع المريدين تروي مقامه، مولده أصبح مناسبة سياسية، بعد أن كان مقتصرًا في الماضي على حضور شيوخ الطرق الصوفية بأعلامهم الخضراء. الأحزاب الناشئة نصبت خيامًا حول المسجد، بداخلها تُوزَّع وجبات الفتَّة واللحمة، وخارجها تُعلَّق اللافتات التعريفية بها. عشرات الخيام تناثرت حول المقام وتنافست فيما بينها على إرضاء المريدين، وكلما كَثُرَت اللحوم زادت الحشود.

في المولد عرفتُ الأحجام الحقيقية للأحزاب الجديدة، فالتليفزيون لا يُظهِر الحقيقة أبدًا، حجم الحزب وجماهيريته لا يقاسا بزعيق وثرثرة قياداته في البرامج الحوارية، إنما بكمية العجول المنحورة. حزب حامد الأونطجي في الصدارة بلا منازع، فبالإضافة إلى الوجبات الدسمة، يوزع أيضًا كراتين الخير الممتلئة بالأرز والزيت والمكرونه والعدس والبقول، كراتين مزينة بشعار الحزب، يقول الأونطجي إنها صدقة لوجه الله تعالى ومحبة في زوار سيدي الأمير. أعرف أنه كاذب وأن الأموال لا تُصَرَف هباء، فبإطعام الفم تستحي العين، ورد الجميل سيكون في القريب العاجل، فأبناء قريتنا يعرفون الأصول، وبالتأكيد سينتخبون من نُحِر وتصدَّق.

فتنة بالرغم من انشغالها أتت للترحيب بنا، عمتي تقول إن أختي هي الأخرى أصبحت سياسية، أول ما دخلت إلى المنزل داعبتها أم ليلي قائلة: نورتي بيتك يا زعيمة. فتنة أصبحت عضوة في الحزب الناشئ، حامد أمين للحزب في القرية وهي أمينة للمرأة، تقضي أغلب يومها في الدعاية للحزب، لم تترك بيتاً في القرية إلا وطرقت بابه، تجتمع بالنساء وتشرح لهن أهداف الحزب وإستراتيجيته، عندما تستشعر مللهن تُنهي الزيارة بعبارتين لم تخطأ قط في تحقيق مبتغاها: القرآن دستورنا، وإنتم فوق راسنا، نكسب الانتخابات وبعديها طلباتكم أوامر.

لم يتغير شيء في فتنة إلا خمراها الذي استطل قليلاً، شبر من القماش كان كافياً، قالت أم ليلي مازحة: إيه الطرح الجديدة دي يا حاجة فتنة؟! فردت ضاحكة: الحشمة حلوة يا عمتي.

أبي حزين على خلع الرئيس، الصامت تكلم فأغضب فتنة، كلما تحدث عن استيائه من الإطاحة بالرجل الكبير وسجنه تغتاز أختي وتثور، ترد بعنف "حسبنا الله ونعم الوكيل، راجل ظالم ومفتري، هو وابنه نهبوا خير البلد".

باستثناء غضب أبي من سجن رجل في أرذل العمر، فهو فرح بنتائج الثورة، سعيد بتعييني في وظيفة حكومية، وأيضاً بزيادة راتبه بعد تطبيق الحد الأدنى للأجور، شاكر لله على قرار حل الوحدات المحلية، التي كان رجالها ينغصون حياته، يقول: كانوا كل شوية

يقرفوني ويقولوا البيت فيه بروز والبنا مخالف، وميمشوش إلا بعد ما
أطبق الميتين جنيه وأحطها في جيبهم، الحمد لله إنهم غاروا في
داهية!

- أبوك شبه حسين فهمي.

تقولها ليلي فأضحك وأنا أتأمل أبي الذي لم أرث وسامته،
وجهه المشبع بالحمرة وشعره الرمادي اللامع، يمنحانه وسامة تخفي
تقدمه في العمر، كثيراً ما سألت نفسي لماذا لم يتزوج بعد وفاة أمي
وظل عازباً كل تلك السنين، تمازحني ليلي وتقول: هو أبوك مش
هيتجوز أمي بقى؟ تكرر سؤالها فأشعر أن كلماتها ليست هزلًا وإنما
أمنية، لا أعرف بماذا أرد، أقول لها أبي يهرب أمك ويخافها؟
"يا ليلي أبي كان مغرمًا بأمي ولن يتزوج بعدها بأي امرأة"،
أقولها فتشبح بوجهها وترد باقتضاب: ما أنا عارفة.

هل كان أبي يعشق أمي؟ أظن أن حياتهما كانت رتيبة لكن بلا
خلافات تُذكر، مشاحنة كل بضعة أيام بين أمي وأم ليلي هي كل
ما أتذكره، أما بين أمي وأبي فلا أتذكر أي عراك جرى بينهما،
لقاءاتهما لا تتجاوز الساعة يوميًا، تحضّر له الإفطار قبل الذهاب
إلى عمله وعندما يعود تُحضّر له الغداء، بعدها يتركنا ويرحل إلى
مسجد أمير الجيوش ليصلي العشاء، ثم تمتد سهرته في الغيط مع
أصدقائه، يعود بعد أن نكون قد نمنا.

ربما كانا عاشقين وأنا لا أدري، فبكاؤه على فراقها كان صادمًا لي، لم أرَ دموعه تنهمر إلا في ذلك اليوم.

أجلس بجانب قبر أمي ودموعي تتساقط وكأن السنين لم تمر، أشعر بأنها ماتت بالأمس لا قبل سنوات، جئت لزيارتها طمعًا في الأمان، فعدت بقلبي واجل. المقابر بكآبتها ووحشتها تزيد الهم لا تُنقصه. حكيت لأمي عن وحدتي، عن أناس المدينة المتعجرفين، أخبرتها بجدعنة أم ليلى وتربيتها الصارمة لنا، وصفت لها ملامح ليلى بعد أن كبرت. وأنا أودعها وأهم بالرحيل تذكرت ذلك اليوم المشؤوم، صريخي يوم ألقوها في الحفرة وأهلوا على جسدها التراب، أضحك بالرغم من دموعي التي لم تجف، وأنا أتذكر مقولتي الساذجة لأبي، قلت له يومها: لماذا نتركها وحدها؟ ما المانع أن نعيدها معنا إلى المنزل ونضعها في غرفتها لتكون وسطنا؟! أفكر لبعض الوقت فأنتهي بأن مقولة الطفل لم يجانبها الصواب، لماذا لم ندفنها في حجرتها لتكون وسطنا؟ لنزورها وقتما نشاء، لنؤنس وحدتها بدلاً من مكوثها وسط الأموات، كنا سننثر فوق قبرها البذور ونسقيها بانتظام، كنا سنجعل من قبرها روضة، ربما تحولت بعد سنين طوال إلى مقام، مثل ضريح سيدي أمير الجيوش.

(13)

مربع أزرق ظهر فجأة وكأنه نبتَ من عدم، احتلَّ مكانًا بارزًا على شاشات الكمبيوتر وأجهزة الهاتف المحمول، الجميع أدمن الولوج إليه، زملائي في المجمع يقضون أغلب نهارهم مُحَدِّقِينَ فِي شاشات الموبايل، أصابعهم طوال الوقت تتحرك، تضغط على الأيقونات المختلفة، ثم ينتظرون بشغف الإعجابات والتعليقات والمشاركات. لم أقع في غرام هذا الفيسبوك، فكرة الحصول على أصدقاء افتراضيين، والعيش في عالم خيالي لم تُغريني. دخلت إلى ذلك العالم مُرغمًا، ليلي أصرت أن نتشارك لحظاتها السعيدة عبر هذا الصندوق الأزرق، قالت: يا كمال إنت الوحيد في مصر اللي لسة معدوش فيسبوك. أنشأت حسابًا واشتركت لي في باقة إنترنت على جوالي.

أول ما أصل إلى المجمع أفتح التطبيق كما أوصتني ليلي، تبدأ الإشعارات بالظهور، ليلي تشاركك صورة، ليلي أرسلت لك رسالة نصية، ليلي أعجبت بكذا وكذا. اسم زوجتي يتردد في الفيسبوك وكأنه أنشئ خصوصًا من أجلها. بعد فترة أفهمتني عود القصب بأنها صديقتي الوحيدة في الموقع، قالت لي أضف أصدقاءك في العمل حتى لا تَمَل، بمجرد أن أخبرت بلدياتي بأنني أنشأت حسابًا انخالت عليَّ طلبات الصداقة.

الوحيد الذي لم يُعربني اهتمامًا هو المخبر، قال لي: مليش في الصداع والدوشة بتوع الفيسبوك. صديقي يكذب فكثيرًا ما لمحته وهو ممسك بهاتفه، وأصابعه تتجول على الحروف لتكتب التعليقات، في إحدى المرات تسللت من خلفه لأضبطه مُتلبسًا، وضعت يدي على كتفه وقلت له "قفشتك"، تبدل لون وجهه ورد بغضب: اسكت وبطل هزار، ده شغل!

صديقي تغيّرت طبيعة عمله، ترك كتابة التقارير وأصبح الآن يدوّن التعليقات على الفيسبوك، مهمته الجديدة هي توجيه الرأي العام، هذا ما أخبرني به. كُلف بالدخول إلى صفحات بعض السياسيين ونشر التعليقات على منشوراتهم. تعليقات المخبر تتفاوت بين السلبي والإيجابي، أحيانًا تتضمن كلمات المديح، وفي أحيان أخرى تحتوي على أفظع الشتائم، المخبر يُنقذ التعليمات بحذافيرها، ينشر التعليقات المرسلة من الضابط المسؤول حتى دون أن يقرأها. أسبوعيًا يُنشئ عشرات الحسابات الوهمية على الفيسبوك، يرسل له الضابط صورًا لرجال وسيدات من مختلف الأعمار.

يقول صديقي: الضابط ده دماغ يا كمال، في الأول قتلته وإيه لازمة الصور، فرد وقالى الصور دي بتخلي الحساب حقيقي وفيه روح.

صدق الضابط، فقبل أن توضع الصور في الحسابات الوهمية كان التفاعل مع التعليقات ضعيفاً، مجرد رسالة يضعها المخبر ثم يخرج في صمت، أما الآن فالوضع تغير، بعد أن زُوِّدت الحسابات بالصور، أصبحت تعليقات المخبر تحصل على إعجابات أكثر من المنشور الأصلي، وكثرت رسائل الإعجاب والدعم.

المخبر يدون اسم كل حساب وكلمة المرور في كشكول حتى لا ينسى، فالحسابات الوهمية بالمئات. داعبته قائلاً: لو الكراريس دي ضاعت هتتنفخ. رد في ثقة: كل شيء مدروس يا صديقي، فبمجرد أن ينشئ حساباً جديداً، يرسل بياناته على الفور في رسالة نصية إلى الضابط المسؤول.

من الواضح أن المخبر بات يجب عمله، في السابق كان ينجل من كتابة التقارير عن زملائه، فنظرات أعينهم طالما أشعرته بالخزي، أما الآن فلا أعين ترى ولا أذن تسمع، فالعمل الجديد لا يتطلب المواجهة كسابقه، مجرد عالم افتراضي وحسابات بأسماء وصور وهمية. حكى لي ضاحكاً، بأن امرأة فائقة الجمال ظلت تُلاحقه بالإعجابات المؤيدة لتعليقاته، أتبعته برسائل نصية تمتدح فيها وطنيته وفكره الواعي وموقفه السياسي السليم. دقَّ قلب صاحبنا وتحركت مشاعره، فبدأ هو الآخر في إرسال الرسائل النصية لها، في البدء أخبرها بإعجابه الشديد بمنشوراتها، ثم تطورت الرسائل بسرعة إلى أن صارحها الخائب بحبه، أجابته هي الأخرى بأنها واقعة في

غرامه حتى الثمالة، أحس يومها بالمشكلة العويصة التي وضع نفسه فيها، فصورة الشاب الوسيم المزيّن بها الحساب الوهمي ليست صورته. قال في نفسه: بالتأكيد الصورة ليست هي السبب في إعجابها بي. فكّر في أن يخبرها بالحقيقة، حدّثه قلبه بأن حبها له لو كان حقيقياً فسئسامحه، وتتغاضى عن موضوع الصورة المزيفة. قبل أن يصارحها ويرسل لها صورته الحقيقية أتت رسالة الضابط المسؤول، رسالة تحذيرية يخبره فيها بأن صاحب الحساب المزعوم رجل وليس امرأة، وهو عضو في تيار سياسي ويريد استقطابه للعمل في لجائهم الإلكترونية. بعد هذه الضربة الموجهة اقتنع صديقي بزيف هذا الصندوق الأزرق، وبات يكرهه.

عمل المخبر السري أتى سريعاً بثماره، توصيات مسؤولي الوزارة انحالت على مدرء المجمع بشأنه، بالطبع أنا لم أفش السر، فظن الجميع أن المخبر على صلة قرابة بمسؤول مهم بالدولة. انتشرت في المجمع إشاعات مفادها، أن المخبر ينتمي إلى الفرع الفقير من عائلة الوزير شخصياً، من يومها وأي مكافأة تُصرف لإدارة المجمع يُدرج فيها اسم المخبر. مدير أمن المجمع أصبح يُدللّه وأعفاه من القيام بأي أعمال، فتفرّغ صديقي لعمله السري.

الأخرق ما زال يورطنا بمشكلاته، ممدوح البطل قال بأنه لم ولن يتدخل ثانية في حل أي مشكلة تخص ابن الزواني. والد الأخرق

اتصل بالكبراء ليساعده، ويؤدبوا ابنه الذي فشل في علاج اعوجاجه، أجاوبه بأنهم حاولوا كثيراً ويأسوا من إصلاحه.

الأخرق استقر نوائياً في العاصمة، أجّر شقة وقطن فيها بمفرده، اتصل بخطيبته في القرية وأخبرها أن الزواج قسمة ونصيب، تركها بلا سبب وقرر عدم العودة إلى قريتنا مرة أخرى. يخشى من ردة فعل والده، بعدما وضع العائلة كلها في موقف صعب أمام أهل عروسة. والده قال للكبراء عقّلوه، فردوا: لقد انفلت عياره ولن يسمع لأحد منا.

كلّفتي البطل بأن أحدثه وأحاول إقناعه بالعدول عن قراره الخائب، اتصلتُ به فأخبرني بعنوان سكنه الجديد بحي المطرية، تقابلنا على مقهى وظللنا لساعات نتحدث، لم يكن لمحاولاتي جدوى، فالأخرق على وشك الزواج من أخرى، يقول بأنه يعشقها، امرأة ناضجة طلّقت حديثاً من زوجها، يقول بأن حبها له هو سبب انفصالها، رضيت أن تترك زوجها وتتزوج بالرغم من تعثر وضعه المادي.

- قالتلي هتجوزك ولو هتأكلني عيش حاف.

صديقي أحس بأنه دنجوان فغاب عقله، سيتزوج بمطلقة تكبره بخمس سنوات ولديها طفلان.

تركته وعدت أحكي للبطل، فضرب كفاً بكف. أخبر والد الأخرق بمحاولاتنا التي لم تنجح، لكنه لم يقترب من موضوع زواجه المزمع، يقول البطل: أنا لو قلت لأبوه ابنك ساب بنت خاله وهيتجوز واحدة مطلقة ومعاها عيال، هيموت فيها.

أصبحت ليلي تقضي أغلب نهارها مع الجدة في أروقة المستشفى الحكومي، تحاليل وأشعة كثيرة أجريت لها، وفي النهاية أخبرها الأطباء بأن قلبها عليل. الجدة تضحك وهي تحكي لي عما جرى في المستشفى: أسبوع كامل من البهدلة، وفي الأخير يقولون بأن عضلة قلبي متضخمة وشرائبي متصلبة! تسعل ثم تكمل حديثها: مرض مصابة به منذ زمن وأعيش على الأدوية، شرحت لهم أول ما وصلنا مرضي، فأرهبوني أسبوعاً ثم أعادوا عليّ ما قلته لهم في البداية. قلت لها: معلش، التشخيص الصحيح مهم. ردت: أعطوني نفس الدواء ثم صرفوني.

الجدة مُتعبّة والعلاج غير مجدٍ كالسابق، تداري يأسها بضحكة تقول بعدها: أظن أن نهايتي ستكون في بلادكم.

لا أعرف مبرراً لهلعي، ربما ذكرها للموت هو السبب، أيكون خوفاً على نور من اليُثم؟ أخائف عليه من وحدة اختبارتها مراراً؟ وحدته ستكون أصعب، فهو في بلاد بعيدة عن وطنه. أعتقد أن انقباض قلبي كان خوفاً من فقدان الونس، العائلة الجديدة التي

صرت عضواً فيها، البنيان الذي شُيِّد على أنقاض وحدتي، فجعلت لحياتي معنى، الجدة والحفيد ليسا مجرد رفيقَي سكن وإنما عائلة. الجدة عمود خيمة هذا البناء، بفقدانها قد ينهار كل شيء، ونعود أنا وليلى كما السابق، غرباء في مدينة المتعجرفين.

اتصلت بحامد الأونطجي أبتغي مساعدته، فحزبه صعد إلى سُدَّة الحكم بعدما اكتسح الانتخابات. نسيبي خدوم كما عهدته، عرض أن يحضر بنفسه ويأخذنا إلى أكبر أطباء العاصمة، رفضت بالطبع، فأرسل بتوصيته الممهورة بخاتم الحزب إلى المستشفى الكبير القريب من المدينة. الحزب له رجال في كل موقع بالعاصمة، أعضاؤه ومؤيدوه موجودون في كل المصالح والهيئات الحكومية، هذا ما عرفته بعد أن تجاوزنا الطواوير والإجراءات البيروقراطية، فُتِحَتْ لنا الأبواب الخلفية للدخول، سهَّل لنا رجال الحزب كل شيء، تحاليل وأشعة بالمجان، فحوصات قام بها نخبة من أكفأ الأطباء على الجدة، مدير المستشفى بنفسه هو من أخبرنا بالنتيجة، حالة شرايين القلب سيئة للغاية، ولا نفع للعلاج الدوائي، انتهى الأطباء إلى وجوب إجراء جراحة عاجلة. الجدة رفضت بشدة، لا أعلم أسباب الخوف أم للتكلفة الباهظة للعملية، الأطباء طمأنوها بأن عمليات القلب أصبحت سهلة وليست كالسابق. ليلي قالت: إن الطب تقدم بطريقة مذهلة، هو أسبوع واحد في المستشفى بعدها هتجري زي الحصان. حامد الأونطجي أوصى زملاءه في الحزب العاملين

بوزارة الصحة فقاموا بالواجب، صحبوني خلفهم وظللنا نمر على المكاتب ونوقع العشرات من الأوراق، وفي النهاية أعطوني خطاب الموافقة. العملية بجميع مشتملاتها بالمجان، سُجِّرَى على نفقة الدولة. لا أعلم كيف فعلوا ذلك ولا أريد أن أفهم، ما يهمني فقط هو أن المشكلة حلت.

ظللنا نُلِّحُ على الجدة حتى وافقت في الأخير، أخرجناها من المستشفى وعدنا إلى المنزل، شهر ستقضيهِ وسطنا وبعدها ستعود لإجراء الجراحة، في الحقيقة أصدقاء حامد لم يُقَصِّرُوا في شيء، أزالوا اسم الجدة من كشوف الانتظار الطويلة ووضعوه في مقدمة الكشف، هي من أصرت على التأجيل، قالت: شهر بس أَسِّم نَفْسِي وبعديها نتوكل على الله. لم نمانع رغم علمنا بأنها حجة لا أكثر للمماطلة. قالت ليلي: لو عصلجت هقععد أنا ونور نعطلها لحد أما توافق.

لا أعرف لماذا تُذَكِّرني جدة نور بأمي، بالتحديد في أيامها الأخيرة، نفس نظرة الرضا، ذات الكلمات التي كانت تبتهل بها أُمِّي إلى الله ليحفظ عائلتها تكرها الجدة، الملامح مختلفة والعمر أيضاً، لكن شحوب الوجه وصفرتة ذاتهما، أصرت الجدة بأن لا تخبر العائلة في سوريا عن مرضها، قالت ليلي: إذا خرجت من غرفة العمليات سالمة، دعي نور يخبر والده بالأمر وإذا... قاطعتها ليلي: هتقومي بالسلامة إن شاء الله.

"العاصمة مكان مقبض وأبناؤها سيئو الطباع، ردود فعلهم لا يمكن توقعها أبدًا"، هذا ما قلته لنور مُفسِّرًا ما حدث.

أول ما حضر السوريون إلى المدينة، وبدؤوا في العمل بمتاجرها، أقسم الجميع بأمانتهم وإخلاصهم، مع مرور الأيام توسَّع نشاطهم، وتحولوا من مستخدمين إلى أصحاب أعمال، "سوق المدينة أصبح نسخة مُصعَّرة من سوق حلب" هذا ما قالته لي الجدة بفخر. السوريون افتتحوا الكثير من المحال بعد نجاحاتهم المتوالية، "اجتهادهم وحلاوة لسانهم" كما تقول ليلى، جعلاهم يسيطرون على أغلب النشاطات التجارية بالمدينة. بدؤوا بمحال الحلوى وبعدها المشويات ثم البقالة والخضر والفاكهة، وأخيرًا محال الفول والفلفل، السوريون فازوا على أبناء العاصمة باكتساح، محالهم تعج بالزبائن وأبناء العاصمة متفرِّغون لتجرُّع كؤوس الهزيمة المرّة.

مهما أطلت المكوث بالعاصمة تظل أفعال أبنائها عصيَّة الفهم، توقعت أن يعتبروا خسارتهم أمام السوريين مجرد جولة وانقضت ويبدؤون بعدها في الاستعداد لجولة أخرى، اعتقدت بأنهم سيدرسون أسباب نجاح الأعراب ويفعلون مثلهم. للأسف ما توقعته كان خاطئًا كالعادة، مزاجهم العكر قادهم إلى افتعال المشكلات مع السوريين.

البداية كانت مشكلة بسيطة تتعلق بوضع صاحب بيت المشويات السورية ثلاث ترايبيزات أمام محله، اعترض أصحاب المحال

المجاورة من أبناء العاصمة على ذلك بحجة إشغال الطريق، ظن السوري أن حلو الكلام سيجدي نفعًا، لكنه للأسف زاد من عصبية أبناء العاصمة. دقائق وتحول النقاش إلى معركة انتهت بتحطيم أغلب محال السوريين.

قال لي نور بعدما خسر عمله: لماذا يكرهوننا يا عمو؟! ماذا فعلنا ليضربونا؟! أنا لم أضايق أحدًا منهم، بالعكس، كلما أتى أحدهم إلى مطعمنا كنت أوصي البائع بأن يُعد له أفضل السندوتشات، أقول له هذا جارنا في المحل المقابل، والنبي أوصانا على جيراننا. من ألقى بالحجر على واجهة المطعم أعرفه، أحفظ ملامحه، فطالما أوصلت له السندوتشات حتى باب متجره، كان يربت على كتفي ويقول لي شكرًا يا ابني، يعتبرني مثل ابنه ويتسبب في جرح معصمي! كيف يا عمو؟! البوليس لم يقبض على الأشرار، تركهم في سلام بعد أن قطعوا عيشي.

أضمد ذراع نور المصابة، لكنني لا أستطيع أن أوقف دموعه التي تجري، أقول له: لا تقلق يا نور، المحل سيفتح من جديد وستعود لعملك.

يرد: سيكسروه على رؤوسنا في المرة القادمة، هم أشرار يا عمو يستغلون أننا أغراب.

لا أعرف بماذا أرد، فأنا غريب مثله، تحاول الجدة أن تُهدئ من روعه، تقول له: أبوك سيرسل لنا أموالاً تكفيننا فلا تخزن، كلها

شهور وستنصلح الحال في سوريا، سنعود إلى وطننا في القريب يا نور. يصيح الولد: الأشرار يطاردوننا في كل مكان، هنا وفي سوريا، قلت لي كثيراً سنعود ولم نعد.

ينظر إليّ ويسألني: هل الأشرار أقوى من الله؟ أرد بتلقائية: بالطبع لا يا نور.

- فلماذا يدعهم يؤذوننا يا عمو؟ لماذا لا يُخَلِّصنا منهم؟

(14)

طوال عمري أهوى مشاهدة اللافتات وقراءة ما دوّن عليها من كلمات، شغف بدأ منذ الصغر واستمر، أتذكر أيام كانت قرينتنا تعج بلافتات المرشحين لانتخابات البرلمان، دائماً ما كان عنقي يؤلمني من كثرة نظري إلى أعلى لأشاهدها، قماشها أبيض من البفتة كقماش الكفن، وكلماتها مكتوبة بحبر أحمر فان كالدماء. تكثُر فتحجب الضوء وتجعل صيفنا خريفاً، بعد أن تنتهي الانتخابات تحتفي اللافتات، فتسطع الشمس من جديد وتير قرينتنا. يقال إن اللافتات يُعاد تدويرها في مصنع صغير في البلدة المجاورة، يزيلون الحبر من عليها، ويصنعون بقماشها الرديء ملابس داخلية رخيصة السعر. عرفت ذلك أيام المدينة الجامعية. تعارك زميلان، فقال أحدهما للآخر: يا فلاح يا معفن يا أبو لباس بفتة من بتوع اليفط. تظهر اللافتات أيضاً في المناسبات الدينية والقومية. "فلان الفلاني يهنئ السيد المحافظ وأبناء المحافظة بعيد الفطر المبارك"، "نائب الشعب يهنئ الرئيس بذكرى انتصار أكتوبر المجيد".

أعلام شيوخ الطرق الصوفية مختلفة كلية عن لافتات السياسيين، قماشها مصبوغ باللون الأخضر الزاهي وكلماتها ناصعة البياض، تُصنَع من قماش سميك كأقمشة الخيام، دورها فقط

التعريف بهم، يضعونها على رأس خيمتهم لتُبدل المرادين على موقعهم.

بعدما كبرت تطورت صناعة اللافتات، استُبدل قماش البفتة بالبلاستيك المرن، بلاستيك الزجاجات الفارغة والشنط، يأتون به من صناديق القمامة ويعيدون تدويره لينتجوا البانرات الدعائية اللامعة. ميزة اللافتات الحديثة هي احتواؤها على الصور، للمرة الأولى أرى وجوه أعضاء البرلمان، لم أرهم عن قرب من قبل، فحضورهم شحيح، يأتون في موكب قبل الانتخابات، يتدافع عليهم أبناء قريتنا أملاً في تحقيق مصلحة أو رد مظلمة، فتختفي ملامحهم وسط الزحام.

بعد الثورة ظهرت لافتات تحوي صوراً للميادين المكتظة بالبشر رافعي الأعلام، وأخرى تتضمن صوراً للشهداء، سريعاً ما انطوت وحل محلها صور السياسيين مرة أخرى.

ما أستغربه الآن هو حروب اللافتات، فجأة تمتلئ الشوارع بصور للرئيس الملتحي، تظهر بلا سبب وتختفي أيضاً بلا سبب، لتحل محلها صور للجنرال ببذلته الكاكي ونظاراته الشمسية السوداء، تُمزَّق هي الأخرى بعد فترة وتستمر المعركة. يقال إن فريقين في العاصمة يتصارعان.

الأخرق يجزم بأن الاضطرابات سوف تسود العاصمة عما قريب، يقول بأن الأكثرية من أبناء العاصمة يمحقتون حزب

الأونطجي ولا يرضون باستمراره في الحكم. الحزب الذي اكتسح الانتخابات سيتلقّى قريباً ضربة قاسمة.

يُخبرني بأن ذلك هو السبب في تبكير ميعاد زواجه. صديقي الأخرق أصر أن نزوره أنا والمخبر في شقته ليرينا عشاء الزوجية بعد أن أسَّسه. ظاهر الدعوة كان عزومة غداء وسهرة على المقهى نسترجع فيها الذكريات، أما باطنها فهو محاولة إقناعنا لنكون شهودًا على عقد القران، فالجميع تخلّى عن الأخرق، أبوه وأمه قاطعاه، بعد أن أخبرهما فاعل خير بأن ولدهما سيتزوج بمطلقة لديها طفلان، جميع بلدياتي رفضوا أن يحضروا العرس، قالوا له يكفيك أبناء العاصمة، فهُم من أتوا لك بالعروس. الأخرق ألحَّ في طلبه فوافقنا، المخبر هو من أقنعني بالموافقة بعد أن قال ليس له الآن أحد غيرنا فوجب ألا نخذله.

صديقي متشوّق للعرس وللحببية وللاستقرار النهائي بالعاصمة. خفت أن أصدمه وأخبره أن حلم التأقلم صعب المنال، فأنا أكثر من حاول وفشل، قلت في نفسي من الممكن أن يكون وضع صديقي أفضل، فزوجته ابنة للعاصمة، عكس ليلي. بعدما وافقنا تنقَّس الأخرق الصعداء وتحوّلت الجلسة إلى وصلة سُبَاب منه في الكبراء، وخصوصًا ممدوح البطل. مللت من كلامه المكرر وانتقاداته التي أحفظها عن ظهر قلب، فغيَّرتُ مجرى الحديث، سألت المخبر عن الاضطرابات التي يتوقَّع الأخرق حدوثها في العاصمة، فرد بأنها

ليست اضطرابات بل ثورة بشائرها بدأت في الظهور، قال إن الشعب يريد رئيسًا قويًا وليس أراجوزًا تُحرّكه عصابة تدير البلاد لصالحها. أكد أن الثورة قادمة حتمًا لا محالة، وليست في القاهرة فقط، بل في جميع المحافظات، أضاف ضاحكًا: وقد أكون من قادتها.

المخبر من كثرة استخدامه للفيسبوك احترف السياسة، بعد أن تركنا الأخرق أخبرني بالحكاية، في البداية كان لا يفقه شيئًا، فقط يضع التعليق المرسل من الضابط المسؤول ويغادر بعدها في صمت، بعد فترة بدأ يقرأ المقالات والتعليقات، أستأذن الضابط في أن يرد على التعليقات التي تهاجم تعليقه، وافق الضابط، لكن حذره بأن ما سيكتبه لو خرج عن الإطار العام المرسوم، فالعواقب ستكون وخيمة. جميع المساجلات التي تمت بين المخبر ومعارضيه انتهت بفوزه الكاسح. انتظر تهنئة الضابط، لكنها لم تأت، فالضابط أحيل إلى المعاش، ربما خرج عن الإطار العام المرسوم فنال عقابه. انتهت مهمة المخبر رسميًا، لكن العمل تحوّل إلى شغف، تحرر المخبر من القواعد وأنشأ صفحة على الفيسبوك، تتضمن صورته واسمه الحقيقي، وأخذ في كتابة المنشورات، يقول لي بفخر عدد متابعي صفحتي أصبح بالآلاف.

أبناء العاصمة يقولون بأن الكثرة تغلب الشجاعة، أما بلدياتي فيقسمون بأن الحسنة والوضاعة لن تنتصر أبدًا، أول ما وصلت إلى

المجمع أخبروني بما حدث، الضخم نُقِلَ إلى المستشفى بعد أن تكسرت ضلوعه، أبناء القاهرة أبرحوه ضربًا، الجبناء لم يقتربوا منه وهو وسط بلدياته، اصطادوه قبل أن يسافر إلى قريته، انتظروه في موقف الميكروباص، وعندما أتى أحاطوه من كل جانب، أقاموا دائرة من حوله وأوسعوه ضربًا بأحزمة بناطيلهم. انتهوا من فعلتهم الغادرة وجروا كما الجبناء، تركوه وحيدًا ينزف الدماء. بعدما أفاق اتصل ببلدياتي لنجدته، أوصلوه إلى المستشفى ليُعَالَجَ لكنهم فشلوا في إثبات التهمة على الجناة.

"محضر فشنك ولا له لازمة"، هكذا قال البطل تعليقًا على إمكانية القبض على أبناء العاصمة الأندال، ما دام ليس هناك شهود والجناة هربوا من موقع الحادثة فلا عقاب، قلت في سري مثلما يقول نور دائمًا: لماذا لا نُخَلِّصنا من الأشرار يا الله؟

البداية كانت مشاجرة عادية بين الضخم وأحد زملائنا القاهريين بالمجمع، بسبب حساب مشترواته من كانتين اليتامى. حدث عادي تكرر عشرات المرات مع أغلب بلدياتي في بداية عملهم بالمجمع، زعيق وتلاسن، يعقبهما لكمة من الضخم، وبعدها يجل الكبراء الموضوع. للأسف أبناء العاصمة ليسوا مثلنا، لا ينسون أبدًا، يخططون في السر للرد، وفي النهاية يُنْقِذون فعلتهم بخسّة، ردوا على لكمة الضخم بعشرات الضربات الموجهة. من ضربته ليس فردًا

وإنما مجموعة تتجاوز العشرة، لذا كان من الصعب الرد، لو بادلنا عنفهم بعنف سيتحول المجمع إلى ساحة حرب.

انتظر الجميع أن يخرج علينا الكبراء بجل يريح قلوبنا الوجلة. كثرت اجتماعاتهم لكن بلا طائل، المخبر كُلف من الإدارة بكتابة تقرير عن الحادثة بعدما تواترت الأنباء بأن هناك مشكلة في المجمع. ذهب إلى اجتماع الكبراء، وأخبرهم بأنه لم يكتب تقريرًا بما حدث، كل ما سيدونه أن الضخم وهو في طريق عودته للقرية تعرّض للسرقة، وعندما قاوم اللصوص تعدوا عليه. المخبر قال بأنه لولا صيانتته للعيش والملح لكان أذى الجميع بتقريره، لو ذكر الحقيقة وعرف المديرين بالوزارة موضوع كائنين اليتامى الموجود بالمجمع، لرُفد الضخم.

- يا جماعة إحنا كلنا لسة بعقود مؤقتة ومنتشيتناش في الحكومة، فمممكن أي حد يتفصل بسهولة.

النتيجة النهائية للاجتماعات كانت مُحزّية، أُغلق كائنين اليتامى إلى الأبد، واعتذر القاهريون اعتذارًا صوريًا لنا. قال أبناء العاصمة، إن العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم، وبعدها انصرفوا، ليتركونا نُحترق بحسرتنا. الكبراء في وضع سيئ، انكسرت شوكتهم كما قال الأخرق، ظهر ضعفهم في العلن للمرة الأولى، بان ذلك في رؤوسهم المنكّسة واحتداد بلدياتي عليهم للمرة الأولى.

أشفقتُ على الكبراء، أنا الذي كرهَ تسلطهم وديكتاتوريتهم
تعاطفت، طوال إقامتي في المجمع لم أرَ منهم إلا الخير، أعترض
وأحياناً أنقم عليهم، لكن في الأخير أكره أن يكسرهم القاهريون
بهذه الصورة، فالمعركة كانت غير شريفة بالمرّة. أظن أن الأخرق
سعد بما حدث للكبراء، ظهر ذلك جلياً عندما حدّثهم المخبر،
كان يقف خلفه ويصدّق على كل كلمة تُقال، وكأنه يريد ألا تُحل
الأزمة، يكره أن ينتصر الكبراء، الغبي يعتقد أن الهزيمة ستكون
للكبراء، لكنها لنا جميعاً. اشتياقه إلى رؤية نظرة الانكسار في
أعينهم أعماه، كوطني أصبح خائناً فقط ليهزم غريمه السياسي،
الخسارة للجميع لا محالة وأنا واحد منهم.

(15)

"الغريب أعمى ولو كان بصيراً"، مثل سمعته مراراً ولم أدرك معناه إلا في ذلك اليوم.

صوت جرس الباب طغى على صوت المؤذن لصلاة الفجر، فأيقظنا. للمرة الأولى يطرق أحد بابنا في تلك الساعة المتأخرة؛ نهضنا مفزوعين، لم توافق ليلي أن أفتح الباب، إلا بعد النظر في العين السحرية أولاً، تأكدت بأن الطارق هو ساكن الدور الأول، ففتحت الباب متوجساً. جاري شاحب الوجه تخرج الكلمات من فمه بصعوبة، لم أفهم أغلب ما نطق به لسانه بسبب تلعثمه، من الواضح أن هناك مصيبة بالأسفل، ويريدني أن أهبط معه لأراها. لم يُعطني فرصة لأفكر، قبض على يدي وأصر أن أصحبه، أخبرت ليلي بأن تغلق بابنا بالمفتاح تحسباً لأي طارئ، ثم هبطت معه.

تجاوزنا شقته بالدور الأول واستمرينا في النزول حتى وصلنا قرب مدخل العمارة، فوجئت برؤية جدة نور، جالسة على درجة السلم الأخيرة وساندة بظهرها على الحائط، هامة بلا حراك، الصفرة تركت وجهها إلى الأبد وحل محلها زرقة، عينها مفتوحتان عن آخرهما ورأسها مُنكَّس ولعابها يبلل عباها. قال جاري ربما كانت تحاول أن تستغيث بأحد من الجيران لينجدها، لسانها لم يطاوعها، فقضاء الله نافذ لا يمكن تأخيره.

خرجت الروح وصعدت إلى بارئها وقت صلاة الفجر. ماتت الجدة وحيدة في مدخل العمارة. ربما لو كان أحد السكان موجودًا وقتها، لأوصلها إلى المستشفى وأنقذها. أخبرني نور أنها ارتدت عباءتها الجديدة على غير العادة، جهّزت له الإفطار وقبّلته قبل أن يغادر إلى عمله بالمطعم. كانت تنتوي أن تُصليّ الفجر في المسجد، لكن الأمر الإلهي أتى قبل أن تخرج من باب العمارة، فغادرت الروح جسدها.

حملناها أنا وجاري وصعدنا، باب شقتها مغلق، نور في عمله ولا أحد منا يمتلك الجرأة ليدخل يده في جيب عباءتها ويُخرج المفتاح، ليلى تنادي فنصعد إلى أعلى، تشير إلينا بأن ندخل جثمان الجدة إلى الشقة، فننقل، تنتهي الرحلة وتستقر جدة نور على سريرى، الجار يتلثم مرة أخرى، يعلل ويفسر، وفي الأخير يرحل بحجة ضرورة الذهاب إلى عمله، يتركنا وحيدتين مع جدة نور، يصاحبنا الجزع والدموع وقلة الحيلة.

لم أعرف ماذا أفعل حينها، أنا الغريب من المفترض أن أتصرف؟!!

ليلى بادرت بالاتصال بأمها لتسألها عن كيفية التصرف، أنهت المكالمة ثم قالت: غمّض عينيها يا كمال. أنظر إلى زوجتي فتشير بيدها إلى عينيّ الجدة، يدي المرتعشة لا تقوى على الفعل، كلما

حاولتُ خذلتني، قدماي هي الأخرى ترتعش ولا تقوى على حمل
ثقل جسدي. ظلّت ليلي تكرر طلبها حتى قمت بالمهمة.

نُفّذت ليلي تعليمات أمها، فرَدّت يدي الجدة عن آخرها
وكذلك قدميها، ضممت القدمين وربطتهما بقطعة قماش، ناولتني
حزام روبها الذي ترتديه وقالت "اربط"، أنظر إلى زوجتي التي تقبض
على رأس الجدة وأشفق عليها، تعيد على مسامعي كلماتها "اربط
يا كمال"، إحدى يديها أسفل ذقن الجدة والأخرى تعتلّي قمة
رأسها. "لازم نربطه يا كمال عشان لسانها ميطلعش لبرة"، قلبي
ينبض بعنف ودموعي تنسال بغزارة، أضع الحزام أسفل ذقن الجدة
وأسحبه إلى أعلى لأطوّق به رأسها، "اربط جامد يا كمال"، أنهي
مهمتي وأنهار، أرتمي بجسدي على الكرسي ويستمر بكائي. تُعْطِي
ليلى جثمان الجدة ثم تُحدّثني بصيغة الأمر: "روح الجامع وهما
هيتصرفوا، أمي قالت كده".

"لو اللي مات راجل الموضوع كان هيبقى أسهل"، قالها إمام
المسجد فلم أفهم، أعطاني كفنًا وورقة مدونًا عليها بضعة أرقام
هواتف ومضى، أخبرني بأن حظي جيد، فلو تأخرت دقيقة لكان
قد رحل، المسجد يجب أن يُغلق بعد صلاة الفجر مباشرة،
فتعليمات الوزارة صارمة في هذا الشأن.

عدت إلى ليلي، فرأيت دموعها وقد سالت من جديد، مددت
يدي لأجففها فرَدّتْها بعنف.

- مفيش حاجة يا كمال، أنا كويسة، المهم اتصرفت؟
أعطيتها الكفن والورقة وغادرت. لا أعرف لماذا تركت زوجتي
وحدها وذهبت لأحضر نور من عمله؟ لماذا أحضرته؟ ما جدوى
أن يرى طفل صغير هذا المشهد المخيف؟

عندما وصلنا أنا ونور إلى المنزل، كانت ليلى قد اتصلت
بأصحاب أرقام التليفونات المسجلة على الورقة، فحضرنا، أتت
السيداتان أولاً، وبعدها بساعة جاءت العربية. الغرفة مغلقة، زوجتي
والسيداتان بالداخل مع الجدة، يقمن بما لا بد من فعله. نور يبكي
ويُصر أن يدخل إلى الغرفة ليرى جدته وأنا أمنعه، كلما فتح الباب
وخرجت ليلى لإحضار الماء الساخن من المطبخ يصرخ، يحاول أن
يتملص من ذراعي القابضة على خصره، أحتضنه لأواسيه، فأزيد من
عصبيته.

لا أعرف أهو الذي تملص من بين يدي، أم أنا الذي تهاونت
لأدعه يلقي النظرة الأخيرة على جدته. انطلق إلى الغرفة وحاول
بإصرار أن يوقظها، يصرخ فيها "اصحي يا جدتي"، يبكي بحرقه
لعدم استجابتها لكلماته، يستلقي بجانبها، يحتضنها بقوة ويأبى أن
يفارقها، تزيحه ليلى فيعاود ثانية، تعنفه وتسحبه بالقوة إلى خارج
الغرفة، يترك المنزل فلا أمنعه، يعود بعد دقائق ومعه ثلاثة من أبناء
وطنه.

أخبرني سائق العربة بضرورة الحصول على تصريح للدفن، قال بأنه لا يمكنه التحرك بالجثمان إلا وفي يده التصريح. أخذت معي السوريين الثلاثة إلى مكتب الصحة. الموظف المسؤول عن استخراج التصريح أثنى على موقفي وقال: بالفعل معدن الإنسان المصري من ذهب. بعدها أخبرني بالإجراءات الواجب اتباعها قبل إصدار التصريح: "لازم جواز سفر المرحومة، وكمان لازم اللي يبلغ عن الوفاة يكون من عيلتها، لازم الدكتور يكشف عليها، ويتأكد أن الوفاة طبيعية، وللأسف الدكتور مش جاي دلوقتي". دموعي لم تحل المشكلة، فتقمصت شخصية ممدوح البطل، أخرجت من جيبي ورقة مالية من فئة مائة جنيه، ووضعتها في درج الموظف، بعد دقائق غادرنا مكتب الصحة وفي يدي التصريح.

عندما حملت السيدتان الجثمان، وخرجتا به من غرفتنا انهارت ليلي، أنهت مهمتها ثم أطلقت لمشاعرها العنان، نهنهة فبكاء ثم عويل وصراخ ولطم على الحدود، احتضنها نور ليواسيها، فزاد من لوعتها. صممت ليلي أن تأتي معنا إلى المقابر، شاركت السيدتان في حمل جثمان الجدة ووضعنه في النعش، ثم انطلقنا إلى مقابر الصدقة.

سور عالٍ يحيطها من كل اتجاه ليفصلها عن العمران، جدار عازل أنشئ ليفصل بين الأحياء والأموات، بوابة حديدية صدئة عبرنا منها إلى الداخل، لثفاجاً بمتاهة. آلاف اللحود ومئات

التقاطعات الطولية والعرضية، فوق كل لحد لوحة رخامية صغيرة مدون عليها بخط دقيق رقمه، بعد أن دسست ورقة مالية في جيب حارس المقبرة طمأنني بأنه لا داعي للقلق، هناك سجل للمقبرة يدوّن به كل شيء، رقم اللحد واسم المتوفّي وتاريخ الوفاة. ليس بالضرورة أن تحفظ رقم اللحد، فكل شيء موجود في السجلات. أول شيء خطر في بالي ساعتها، أننا بمجرد أن نغادر المقبرة سيأتي طلبة كلية الطب ويستلموا الجثة، أتخيل فصالحهم مع حارس المقبرة المغالي في سعر الجثمان، أتخيله يقول لهم وهو ينبش القبر، جثة طازة عاينوا البضاعة واحكموا أنتم.

كثيراً ما سمعت عن السمعة السيئة لمقابر الصدقة، فهي مُخصصة للموتى مقطوعي الشجرة، ناس بلا أهل تُباع جثثهم بأرخبية، فلن يسأل عنهم أحد. قلت لأهدّي من روعي: ما حدث قد حدث، وما باليد حيلة.

الحارس ساعد ليلى والسيدتين في وضع الجثمان في اللحد. نور يصرخ بأعلى صوته كلما أهال التُّري الرّمال فوق الجثمان، يحاول أن يمنعهم فتمسك به، أقول له: لا تحزن يا نور؛ جدتك الآن في مكان أفضل. يرد: لا تكذب يا عمو، جدتي تحت التراب في مكان موحش.

- جدتك عند الله يا نور.

- جدتي تحت التراب مع الأموات.

أقول له كي أهدئ من روعه: الجدة ارتاحت من آلام المرض.
فيرد: كانت ستُجري الجراحة وتُشفى. لماذا ماتت قبل أن
تجريها؟

- إرادة الله يا نور.

- لماذا أماتها يا عمو وجعلني وحيداً؟

تمسك ليلى بيده وتذبذبها لترحل، فثبت قدميه في الرمال،
يقول: لن أرحل وأتركها وحدها.

تُحدّثه ليلى بعصية وهي تبكي: جدتك ماتت يا نور،
والأموات يسكنون القبور.

يرد بصوت متهدج: لماذا نتركها هنا؟ أريد أن أعيدها إلى
منزلنا، جدتي طيبة، حرام أن نتركها وحدها، نعيدها إلى غرفتها يا
عمو، لتكون بجانبنا دائماً.

أبكي وأحتضنه فتدفعنا ليلى دفعًا إلى الخارج. أجلس بجانب
نور النائم بعد أن أنهكه البكاء، أقول في نفسي: لماذا تركناها
وحدها؟!

لماذا لم نُعدها إلى المنزل لتكون وسطنا؟

لماذا يا أبي؟!

(16)

مكالمات ما قبل شروق الشمس تقبض قلبي، أكرهها، فهي دائماً ما ترتبط بفقدان عزيز. رن الهاتف فنهضنا مفزوعين، ليلي هي من أخذت بزمام المبادرة وأمسكت بهذا الملعون الذي يصرخ، نظرت إلى شاشته فزال قلقها، رمته لي وارتمت على السرير ثانية: زميلك في الشغل. رديت على بلدياتي فرجاني أن أحضر في الحال، فالمشكلة عويصة وأنا من في يدي حلها.

ابن ممدوح البطل حضر إلى العاصمة، يقيم مع أبيه في شقة المنايفة منذ أسبوع أو أكثر قليلاً، الأخرق هو من أخبرني بمجيئه، قال لي ساعتها وهو غاضب: صاحبك حاسبها لوكاندة أمه، جايب ابنه يقعد معاه في السكن، ما هي ميعة!

أعرف أن الأخرق لم ينس إهانات البطل المتكررة له، متأكد من أنه يكرهه ويتمنى إيذائه، لكن الاعتراض لمجرد الاعتراض أمر لا أستسيغه، لذا رديت على الأخرق بجدة، قلت له إن الأمر عادي وتكرر كثيراً، أغلب بلدياتنا استضافوا أقاربهم، أخبرته أنها أعراف نلتزم بها جميعاً، عندما يأتي أحد أقاربنا إلى العاصمة لقضاء مصلحة يجب أن نفتح له بابنا، يأتي ويأكل وينام ولا نسأله أبداً متى يغادر.

- يا حمار! أكيد الواد عنده مصلحة في مصر وجاي يقضيها، هينام في الشارع يعني؟! إيه المشكلة لما يقعد مع أبوه يومين في السكن؟!!

اتضح لي أن أعراف الريفيين لا تتفق مع لوائح العمل الحكومي مطلقاً، أول ما وصلت قال لي المخبر: يا كمال دي مش لوكاندة، دي استراحة مخصصة للموظفين وبس. رده الصارم المقتضب أفحميني، فزملائي قد أتوا بي لأحل الموضوع، قالوا: هذا صديقك فتصرف معه.

الحكاية باختصار أن ابن ممدوح البطل هبط من السكن وتوجّه إلى مسجد المجمع لأداء فرض الله، قابله مجموعة من رجال أمن المجمع، فألقى عليهم السلام كعادته، فجميعهم يعرفوه، منذ أن أتى يقابلهم يومياً في نفس التوقيت، يلقي عليهم السلام، وبعدها يتحركون جميعاً إلى المسجد لصلاة الفجر، لم يردوا السلام هذه المرة وإنما استوقفوه، سألوه عن اسمه فاستغرب، سألوه عن ما إذا كان يعمل بالمجمع أم لا فضحك، قال لهم: إيه يا رجالة! أنا ابن عم ممدوح البطل، لحقتوا تنسوني؟! بعدها اصطحب رجال الأمن الشاب الداehl إلى أسفل عمارة المنايفة، أوقفوه في الفناء وحاصروه في دائرة لمنعه من الهروب، صعد أحدهم إلى عمارة المنايفة وطرق أبواب أغلب الشقق، بحجة السؤال عن ممدوح البطل. بالتأكيد هو يعرف أن البطل يقطن في الطابق الأخير، لكنه أراد إيقاظ جميع

سكان العمارة كما المخطط. البطل هبط درجات السلم ركضاً، وهو يتوَعَدُّ ولاد الكلب خائني العيش والملح، يوزع سبابه ولعناته على جميع أفراد الأمن اسمًا اسمًا، أول ما وصل إلى الفناء ورأى الدائرة المنصوبة حول ابنه احتاج، ظل يردد الشتائم وهو يحاول أن يُخْلِصَه منهم. بدلاً من أن يفك صراحه، وقع هو الآخر في المصيدة، رجال الأمن الكُثُر أمسكوا به، أخذ في تسديد اللكمات إلى وجوههم أملاً في التملُّص، لكن الكثرة غلبت الشجاعة، بعد أن سيطر رجال الأمن على الموقف حضر المخبر، مساعد مدير أمن المجمع جاء شخصياً ليُحَقِّق في الواقعة.

أول مهمة يتولاها المخبر، بعد ترقيته التي حصل عليها منذ أيام قليلة. أول ما وصل نادى عليه البطل لينجده، فتعنت رجال الأمن غير مفهوم. المخبر لم يأمر بفك الدائرة من حول البطل وابنه كالمتوقع، بل نادى على الكبراء، هرولوا نحوه وأحاطوه في دائرة وبدؤوا في نقاشهم الطويل.

جميع سكان العمارتين متجمعين في الأسفل، ثلاث دوائر منصوبة، يحيطها مربع صنعه بلدياتي بأجسادهم، الكل يشاهد ويتحدث ويقترح ويشجب ويندد ويدين. ممدوح البطل متماسك بعكس ابنه الذي انطلق في البكاء.

أحضرني بلدياتي لحل المشكلة، فأنا صديق للمخبر، لكنه للأسف خذلني، ردوده مقتضبة وباردة، كأنه يراني للمرة الأولى،

كلما حدّثته يرد بصرامة بأن المجمع منشأة إستراتيجية، وأن الحفاظ على أمنها وسلامتها مسألة أمن قومي. نويت أن أقاطعه إلى الأبد بعد ما فعله، فكرت في أن أتصل بالأخرق لأحكي له عما حدث، وأخبره بنذالة وخسّة صديقنا المخبر، تراجعْتُ تجنُّبًا لسماع كلمات الشماتة، فالظرف لا يحتمل.

المخبر أصر بأن يأخذ القانون مجراه، يقول بأن المخالفة واضحة ولا يمكن تجاهلها، استغلال استراحة العاملين في غير غرضها والإخلال بالنظام العام بالمجمع، الذي لا يسمح بوجود غرباء داخل المنشأة بعد مواعيد العمل الرسمية، أكد للكبراء أنه لا يستطيع التغاضي عما حدث. أولاً يجب تسليم ابن ممدوح البطل لقسم الشرطة، ثانيًا سيتم رفع مذكرة للوزارة تتضمن الواقعة بالكامل، وذلك لإبراء ذمته من أي شبهة تقصير أو محاباة. يوجّه حديثه لبلدياتي ويقول لهم بلؤم: الموضوع كبير قوي يا جدعان وممكن يوصل للرفد؛ دي منشأة إستراتيجية، إننا نلاقي حد غريب فيها قبل الفجر دي مصيبة، يقولوا عننا إيه؟! نايمين على ودانا! يعني لو حد دخل المجمع بالليل وزرع قنبلة هقول للوزارة إيه؟ أقولهم معلش يا سيادنا، أصلنا كنا حاسبينه بلديات الرجالة اللي في السكن؟!!

كلما يحدّث الكبراء على المخبر يُلوّح لهم بورقة الأمن القومي فيصمتوا. للأسف لم أستطع مساعدتهم كما تصوّرت، فأنا مثلهم تمامًا، متوتر ومغتاظ والشعور بالإهانة يملؤني، لكن ما باليد حيلة.

حضر الأخرق مبكرًا على غير عادته، لم يتوجّه إلى عمله بالجمع، وإنما دخل من بوابة السكن، دلف وسط الجموع وتخطاها ببطء، وكأنه أراد أن يراه الجميع، انضم إلى دائرة الكبراء ووقف، لم يسأل أحدًا منهم عما جرى، وإنما تحدث على الفور، وكأنه يعلم كل شيء. وجّه كلامه إلى المخبر مباشرة، فهو من في يده الحل.

- أنا عارف إن الغلط راكبهم من ساسهم لراسهم، قولنا ميت مرة دي مش لوكاندة ومحدث سمع الكلام، بس أعمل إيه؟ دول بلدياتي، وحتى لو غلطانين لازم أقف جنبهم. عديها المرة دي عشان خاطري، ولو حد فيهم غلط تاني قولي، وأنا أديله بالجزمة على دماغه.

انتهى الأخرق من حديثه فانفك الحصار عن البطل وابنه. "عشان خاطرك إنت بس هعديها"، قالها المخبر، وأخذ رجاله وانسحبوا إلى خارج فناء السكن.

بالطبع لم يقتنع أحد بالتمثيلية، فأخراجها كان رديئًا للغاية. ذهب كل منا إلى عمله وهو موقن بأن المعادلة قد تغيرت، وأن موازين القوى في المجمع قد اختلفت. هذا ما أراده الأخرق وحققه، حتى لم يهتم بأن يتقن الحبكة، فقط أراد أن يوصل رسالته للجميع. وأوصلها بنجاح.

قال عم بيشوي: الواد ده ابن كلب وسخ، صدق اللي قال عليه ابن زواني.

وهمس الشيخ أحمد في أذني: إن العين بالعين، والسن بالسن،
وعلى الباغي تدور الدوائر.

الأخرق رد الصاع صاعين، فعلها معه ممدوح البطل منذ زمن
فلم ينس، وعندما جاءتة الفرصة أدلّه هو وابنه شر ذلة.

(17)

اسمه حمادة، في أوائل العشرينيات من العمر، طويل وضخم مثل أبيه، ورث من ممدوح البطل أغلب صفاته الجسدية، أما العقل فشتان بينهما، استقبلي مُرَحَّبًا عندما زرتهما في سكنهما الجديد. الشاب ملامح وجهه مريجة، والابتسامة لا تفارق شفثيه. كلما حدثني يسبق اسمي بلقب "عم" فأضحك، فالشاب لا يصغرن بكثير، عضلاته المفتولة وشاربه الكث يجعلانه يبدو أكبر مني في العمر. قلت له: اسمي كمال فقط بدون عم. رد الفتى الطيب بتأدب: أبي أخبرني بأن جميع بلدياتنا في المجمع بمثابة أعمام لي.

ممدوح البطل يسميه "الأستاذ ميعرفش"، يقولها بتهكم كلما نادى على ابنه فأضحك. البطل ترك شقة المنايفة. بعد أن انتهت المشكلة جمع أغراضه ورحل. محاولات بلدياتي بإقناعه بالبقاء قوبلت برفضه القاطع. أجزر غرفة بشقة عُرَّاب قريبة من المجمع، وأقام فيها مع ابنه، سكانها من نفس محافظتنا، وكأننا لا يمكننا التأقلم مع أحد سوى بلدياتنا.

بعد أيام من الحادثة قررت أن أزوره، لأواسيه وأشد من أزره، فالإهانة شديدة والفعلة خسيصة، توقعت أن أجده منكسرًا، لكني فوجئت بصلابته، يضحك ويبادلني النكات، وكان شيئًا لم يحدث. حاولت أن أفتح الموضوع، أشجب وأدين وأندد، لكن أول ما

بدأت قاطعَ حديثي، قال لي: اسكت ومتحكيش في المحكي،
موضوع وخلص، نفتح له ونقلب المواضيع!؟

صديقي قرر أن ينسى الأمر برؤيته، أخبرني بأن الموازين تغيّرت
والأوضاع تبدّلت، تحدّث بحسرة وقال: كان لا بد من صدمة
لنستفيق ونعرف أن العمل الحكومي له قواعده، قواعد تتمحور
أغلبها حول الخسّة والندالة والمحسوبة، إما أن نرفضها ونرحل، وإما
أن نتأقلم معها ونبقى. ممدوح البطل قرر أن يبقى، فبلع الإهانة
وتأقلم مع الوضع الجديد، قال بأن ما تبقى أقل بكثير مما مضى.

- أيام وهنقضيها يا عم كمال، هنقعد على أي وضع لحد ما
نطلع معاش، وخلي بالك الدنيا دوّارة، يوم ليك ويوم
عليك، وأنا اليوم اللي عليّ عدى، ومستني اليوم اللي ليّ.

حمادة هو محور أحاديث البطل، فصديقي الآن يُسخر كل
قدراته لتحقيق حلم ابنه، بلدياتي حكوا لي بأن البطل رفض وساطة
المهندس نبيل لتعيين ابنه في الحكومة، قال ساعتها: الحكومة
مبتأكلش عيش، والواد لسة عود أخضر وميستحملش وساختها،
وبعدين ده معهوش شهادة وآخره يشتغل عامل.

حمادة أتى إلى العاصمة لاحتراف كرة القدم. البطل يريد أن
يلحق ابنه بناي قاهري كبير، يتمنى أن يقضي ابنه سنوات في لعب
كرة القدم في أندية العاصمة، ليؤمن مستقبله المادي. أخبرني أنه
أحس بالتقصير تجاه حمادة، ظلّمه عندما سافر لسنوات طويلة في

الخليج، وتركه بلا رقيب، عندما عاد ووجده بليدًا راسبًا في دراسته، ظلمه مرة أخرى بإخراجه من المدرسة، ألقى بالولد الصغير ليعمل في محل النجارة خاصته، للأسف لم يحصل حمادة على أي شهادة تعليمية، وأيضًا لم ينجح في تعلم صناعة أبيه. مهنة تلو أخرى يلتحق بها، لكنه لم يبرع في أي منها، يتركها كما بدأها دون الحصول على أي خبرة. يقول البطل: عُمر الواد جري وأنا مش حاسس، دخل الجيش وضاع من عمره ثلاث سنين، خرج منه فحل يسد الباب، ودماغه ممسوحة زي بلاطة السيراميك، بقى عنده واحد وعشرين سنة ومش نافع في حاجة، الأستاذ مبيعرفش مبيفهمش غير في الكورة.

حمادة موهوب بالفطرة مثلما قال مدرب مركز الشباب بقريتهم، طويل وسريع في الركض وقوي في الالتحام، ورأسه وقدماه تعرف طريق المرمى، البطل أدرك موهبة ابنه متأخرًا، سنوات كثيرة وهو يُعَنِّفه ويضربه، لترك كرة القدم والاهتمام بتعلم صناعة أبيه وأجداده، الأستاذ مبيعرفش لم يتعلم شيئًا ولم يُجد أي مهنة، وللأسف الكرة هي الأخرى أعطته ظهرها، تجاوز واحد وعشرين عامًا فانعدمت فرصته في احترافها. المدرب أخبر ممدوح البطل بأن الأندية تقبل بانضمام الناشئين فقط بفرقهم، أما من في عمر حمادة فمن المستحيل أن يقبلوه.

البطل قرر أن يحل المشكلة بطريقته، سأل وتحجى وخطط ونفذ ونجح كعادته، قال لي: ولاد الحلال مفيش أكثر منهم، حكيت ليهم موضوع الواد حمادة، فدلوني أعمل إيه.

كان الحل هو استخراج شهادة ميلاد جديدة باسم "حمادة ممدوح البطل". اسم الأب واسم الأم لم يتغيرا وكذلك محل الميلاد، ما تغير فقط هو اسم المولود وتاريخ الميلاد. رحل تاريخ الميلاد للأمام قليلاً، ثلاث سنوات كانت كافية ليصبح عمر حمادة ثمانية عشر عاماً، وتزيد فرصته في احتراف كرة القدم. قلت للبطل: "ده تسنين؟"، فرد ضاحكاً: "هو بنت وهنجوزها يا كمال؟!" التسنين بات موضحة قديمة ويسهل اكتشافها، حمادة اسمه الحقيقي محمد، مُسجل حتى الآن في سجلات الدولة، بغير تزوير أو تعديل أو تلاعب. حمادة فرد جديد انضم إلى أسرة ممدوح البطل، حرفياً خُلِق من عدم. فُتحت غرفة الأرشيف بالسجل المدني، وأُنزلت سجلات المواليد المهترئة بفعل الزمن من الأرفف المتربة، وبنفحة كريمة من البطل قام الموظف بالمطلوب، أزاح الغبار عن السجل، ودون في سطر فارغ اسم المولود الجديد حمادة ممدوح البطل، بعدها تمت جميع الإجراءات القانونية بسلاسة، استخرج البطل شهادة ميلاد كمبيوتر، وكذلك بطاقة رقم قومي لابنه، انضم حمادة رسمياً إلى عالم الأحياء، وأصبح فرداً في أسرة ممدوح البطل.

تعجبت مما حكاه لي البطل وحذرتة من معبّة فعلته، شرحت له دواعي قلقي وهو اجسي، فالأمر شديد الخطورة. طمأنني وقال بأنها مجرد فترة انتقالية مؤقتة وبعدها يرجع كل شيء كما كان. لو انضم الشاب إلى نادٍ كبير واحترف كرة القدم، فسينتهي محمد إلى الأبد، ستصدّر شهادة الوفاة، سيُدْفَن محمد ويبقى حمادة، أما لو فشل الأستاذ مبيعرفش، فسيرحل حمادة إلى الأبد، ويبقى في السجلات محمد ممدوح البطل فقط. الموضوع تكلفته ثمانية آلاف جنيه يا كمال، أربعة لشهادة ميلاد ومثلها لشهادة الوفاة وتصريح الدفن. سألت البطل بخوف حقيقي: طب لو مات موظف الصحة؟ هتعمل إيه من غير شهادة وفاة لواحد منهم؟ رد ضاحكاً: إنت عبيط يا كمال؟! لو الراجل الطيب ده مات، أكيد هيطهر واحد ابن حلال يحل محله.

ممدوح البطل لم ييأس رغم الصعوبات. حمادة أجرى الاختبارات في أكثر من نادٍ ولم يحالفه التوفيق.

- ولاد الكلب لما بيلاقوه مش متأيد في نادي بيشكوا، ويجسوا إن الموضوع فيه إن، فيرفضوه.

أولاد الحلال في قرية البطل قدموا له المساعدة، حضر أحدهم إلى القاهرة خصوصاً وحل المشكلة. أخذ البطل وابنه إلى أحد أندية الدرجة الثالثة، نادٍ في ضواحي العاصمة دائماً ما يتذلل جدول الدوري، الأمر استلزم مقابلة مع إداري الفريق، وبضع مئات

من الجنيهات دفعها له البطل. بعدها بأيام استلم ممدوح البطل وورقتين، الأولى تفيد بأن اللاعب حمادة ممدوح البطل مُقَيَّد بسجلات الاتحاد المصري لكرة القدم، ويمارس اللعبة ضمن فريق الناشئين بنادي الضواحي، أما الثانية فتُفيد بأن اللاعب حمادة ممدوح البطل، قد حصل على الاستغناء الخاص به من ناديه، ويحق له الانتقال إلى أي نادٍ في صفقة انتقال حر.

البطل يقول بأن الأوراق المذيَّلة بخاتم اتحاد الكرة، ستجعل الأمر مختلفاً عن السابق. يضحك ويكمل حديثه: الأوراق في بلدنا أهم من المهارات، يخبرني بأنه لا يحلم بأن يلعب حمادة بنادٍ من أندية القمة، يريد فقط أن يحترف في أي نادٍ صغير من أندية الدوري الممتاز، أو حتى أندية مسابقة الدرجة الأولى. بضع سنوات يقضيها الشاب في ركل الكرة هو كل ما يتمناه البطل، بعدها يعود إلى قريته لينشئ مشروع الخوص. يقول البطل: فلوس الكورة حلوة، هما كام سنة يلعبهم الواد، وهيحوش فلوس الأرض والبيت والعربية، وكمان كام ألف جنيه في البنك يقضوه طول العمر.

ودَّعت البطل وابنه الطيب، وتمنيت لهما التوفيق والنجاح، بالرغم من عدم اقتناعي بالكثير مما سمعته. قبل أن أغادر أوصيت حمادة بإزالة شاربه الكث وذقنه النابتة، فهما لا يليقان إطلاقاً بناشئ لم يتجاوز الثماني عشرة عامًا.

(18)

أمير الجيوش هو الفارس المغوار الذي هزم الروم وفتح البلاد، هو القائد الحقيقي الذي تناساه الجميع، وأحلوا محله الجبناء، طمسوا تاريخه واستبدلوه بمن أغدق عليهم العطايا، مقولة تكررت كثيراً على مسامعي، أطلقها الجدود، ولا أعلم أصدقها أم أقتنع بما درسته في الكتب المدرسية، كثيراً ما حكوا لنا في طفولتنا عن قوة الأمير وحكمته، عن عدله وعبقريته الحربية التي لا تُضاهى، روى بأنه لم يحارب أعزل أو شيخاً أو صبياً أو امرأة، أخبرونا بأنه فاز بكل المعارك الذي خاضها، فتح القرى والكفور والنجوع، وأخضع المدن الكبرى لإمرته، ما كان يفصله عن العاصمة هو بضعة كيلومترات سيركضها جواده، ومعركة سيحسمها سيفه البتار، لولا الأيدي الغادرة التي طعنته في ظهره لكان قد جلس على العرش.

يؤكد شيوخ قريتنا بأن إرادة الله أبت أن يحل الرخاء بالبلاد، فأفعال أهلها نجسة. يقسمون بأنه لو عاش الأمير وتولى الحكم، لجعل من بلادنا جنة. في مرة جادلتهم وقلت: لماذا أنتم متأكدون؟ ردوا في ثقة: وهو تحت الأرض يغدق علينا الخيرات، يشفي المريض بإذن الله، ويقضي حاجة المحتاج، ينصر المظلوم ويبطش بالظالم، يجفف دموع الثكلى والمكلوم والعاقر، فما بالك لو عاش ووصل إلى العاصمة!

فُواد الجيش نسوا أميرهم المقتول، أو بالأحرى تناسوه، لم يطمئنوا يوماً على زوجته، ولا على طفله الوليد، ذهبوا ليحققوا حلمه فأغوثهم العاصمة، استقروا فيها وأقاموا مثلهم العضوض، أكثروا العطايا لأهل العلم والدين، فكُتبت في حُسن خصالهم الأشعار ودُعِيَ لهم على المنابر. يقال بأن زوجة الأمير اصطحبت ابنها بعد أن اشتد عوده وقصدا العاصمة، نوت أن تسترد له ما كان لأبيه، هجرا قريتنا وتركنا المريدين والمحبين يذرفون الدمع لفراقهما. عند باب القلعة حاصرهما العسكر، نسيها الجند فبكت، حضر رئيس الحراس فعرّفها، عرضها على الملك، وقبل أن تطالب بالملك لابنها أمر بقطع رأسه؛ استغاثت برفقاء زوجها فأنكروها، قصدت رجال العلم والدين، ليفتوا بجرمانية إسالة دم ابن الأمير البريء، فخذلوها. في حضرة الملك اجتمع العلماء وأفتوا بجواز إعدامه لدرء الفتنة في البلاد، لم يرضوا حتى بأن يُدفن بجوار أبيه، أمروا بإلقاء جثته للجوارح فُنُهشت، عادت المرأة المكلومة وفي يدها خُصلة من شعره، ظلت قابضة عليها حتى فارقت الحياة، فوضعها المريدون هي وخصلة شعر ابنها بجوار الأمير. أوصت بأن تُدفن بجوار أميرها فحققوا أمنيته.

يروون بأن قائد الجيش قد حضر على رأس سارية إلى قريتنا، ليهدم الضريح وينبش القبر، حاول الأجداد أن يقنعوه بأن للموت حرمة فهدد بقتلهم. تراجعوا إلى بيوتهم، وقالوا بأن إرادة الله نافذة،

فأنت الريح. قبل أن تهبط اليد القابضة على المعول لتُهشّم القبر قامت العاصفة، انطلقت الرمال المباركة لئُدافع عن الأمير وعائلته، فألّبت الأعين ووخزت الأبدان. يقولون بأن الله قد أمر الخيل بعصيان أوامر الجنود فنقّدت، كل ما سمعه أهالي قرينتا وسط الغبار الكثيف هو قرقعات وصهيل خيول، بعدها أشرقت الشمس وانقشع الغبار بأمر من القهار، فرأى الجميع المعجزة، الجند المضرجون بالدماء يحيطون بقائدهم المقتول. غادروا قرينتا مشياً على الأقدام بعد أن عصتهم خيولهم وهربت. يقال بأن جثمان قائدهم تحوّل إلى جيفة في ملح البصر، فلم يتحمّلوا رائحتها؛ ألقوا بها قبل أن يصلوا إلى مشارف العاصمة، فالتهمتها الغربان. رحل الجند عن قرينتا ولم يعودوا ثانية، تركوا أمير الجيوش وعائلته في سلام.

لم يُنقش اسم الأمير على قبة أو يدوّن في كتاب، طمس قواده تاريخه ونسبوا بطولاته لأنفسهم، لكنه بقي حيّاً في قلوب مريديه، لم يدخل العاصمة فاتحاً فمُجّي تاريخه ونُسي إلى الأبد. كلما سألتهم لماذا لا يوجد أثر لأمر الجيوش بكتب التاريخ، يقولون بأن التاريخ يكتبه المنتصرون، والأمير اغتيل قبل أن يحقق نصره الأخير.

ضحكتُ في سري عندما قال محمود زوج أختي منى جملته. قالها بجدة لحامد الأونطجي بعد أن أكد بأن حزبه إلى زوال لا محالة، أخبره بأن كتب التاريخ ستظل تلعنهم إلى أبد الأبدين، فالتاريخ يكتبه المنتصرون، وحزب حامد سيُهزَم شر هزيمة، فالجميع

يعاديه. ردت فتنة بثقة، قالت بأن الحزب يسيطر برجاله على جميع مفاصل البلاد، وما يحدث هو مجرد زوبعة في فئان، لكن إعلام الفلول يُضخِّمها طمعاً في تحقيق مصالح شخصية.

عودة منى وزوجها محمود من سفرهما الطويل فاجأتني، فمنذ أن سافرا وأقدامهما لم تتخطَّ حدود الإمارة الخليجية التي يعملان بها، لم يحضرا عُرسى ولا عُرس أخت محمود، ما يربطهما بالقرية هو الاتصالات التلفونية بأبي وبأم ليلى، والحوالات البنكية التي يرسلانها لأختي فتنة لشراء الأراضى. ليلى أخبرتني بأنهما امتلکا حتى الآن ثلاثة فدادين وبيت بأربعة أدوار.

لم أكن أعلم أن أم ليلى غالية على الجميع بهذه الصورة، إلا بعد أن مرضت.

اتصلت بي فتنة وأخبرتني بضرورة الحجىء، قالت بأن عمى مريضة، سألتها عن ما حدث، فاختنق صوتها ولم تستطع الرد، سمعتُ صوت بكائها وحامد يُحدِّثنى، قال بصوت هامس: احضر بسرعة؛ أم ليلى فى النزاع الأخير.

مرضت من لم أتوقع بأنها تمرض مثل بقية البشر، المرأة القوية مثلنا تماماً، من الممكن أن تموت، أصرت ليلى أن نصطحب نور معنا، قالت لا ينبغي أن نترك الولد وحده فى المنزل، والله أعلم كم سيطول غيابنا. وصلنا القرية قرب الظهر، ركضت ليلى ونحن نلاحقها، إلى أن ظهر البيت. شقة أبى بابها مغلق، والأصوات

الكثيرة الآتية من أعلى توحى بأن الجميع بشقة أم ليلي. صعدت ف رأيت الباب مفتوحًا وأبي جالس في ركن الصلاة. أعتقد أنها المرة الأولى التي يصعد فيها إلى شقة عمتي. ليلي توجهت مباشرة إلى غرفة أمها، وأنا ونور جلسنا قرب أبي. أول ما دخلنا لم ينتبه لقدمنا، ألقى السلام، فرفع رأسه وتمتم ثم نكَّسه ثانية. عيناه محمرتان ويده لم تنجح في تخفيف دمعه المنفلتة. كررت إلقاء السلام فرد باقتضاب، أعتقد بأنه لم يلاحظ حتى وجود نور معي. عين أبي الدامعة ورأسه المنكَّس تذكرني بيوم وفاة أمي، نفس الجلسة والدمعة المنفلتة والنظرة الزائغة. ظللنا صامتين حتى حضر حامد الأونطجي، رحَّب بي كعادته، وسأل نور عن أحواله، سألتها عما جري لعمتي فأخبرني أن ما حدث لم يكن متوقعًا:

ذهبت أم ليلي كعادتها إلى السوق، تمشت لساعتين وهي في كامل عافيتها، اختارت وفاصلت، ثم اشترت ما يروقها من خُضر وفاكهة، وبعدها عادت إلى البيت، أول ما دخلت الحوش سقطت فجأة ولم تقوَ على النهوض، نادى على أبيك لينجدها، فأحضر سيارة الإسعاف ونقلها إلى المستشفى. أصرَّت عمك بأن لا نخبركما بالموضوع، قالت إن ليلي لن تحتل الخبر، بعد يومين قضتاهما في المستشفى أخبرنا الأطباء بأنها مصابة بالمرض الخبيث. ظلت تسألنا عن حقيقة مرضها ونحن عاجزون عن الرد، في النهاية أخبرتها فنته بجزء من الحقيقة، قالت لها بأن الله قدَّر ولطف،

فالمرض الخبيث في مراحلہ الأولى ومن السهل علاجه. كذبت عليها، فالأطباء أخبرونا بأن المرض انتشر ومن الصعب إيقافه. عمته قوية يا كمال، تحملت جرعة العلاج الكيماوي بشجاعة، وأصرت بعدها أن تعود إلى البيت، امرأة عنيدة. عندما أحضرنا كرسياً لنحملها، رفضت وأصرت أن تصعد السلم على قدميها، سندت بيدها على الدرايزين، ولم ترضَ حتى أن تتعكر على فتنة.

نحن آخر من علم بمرض أم ليلي، حتى أختي منى حضرت قبلنا، هاتفتها فتنة، فتركت هي وزوجها عملهما في بلاد النفط وعادا على الفور. حامد الأونطجي أخبرني أن منى أول ما عرفت بمرض العمه أجهشت بالبكاء، وقالت لزوجها: لازم أشوف أم ليلي قبل أما تموت، لو ماتت وأنا في الغربة مش هسامح نفسي أبداً.

أختاي تجبان أم ليلي، رغم شدتها وتربيتها الصارمة لهما، ربّت وعلّمت وزوّجت، فلم تنسيا أفضالها، وعندما حان موعد رد الجميل لبنا نداء الواجب. فتنة تخلت عن كل أعمالها، تركت الحزب والمعرض وجلست تحت قدمي أم ليلي، منى أكدت لمحمود أنها لن ترحل قبل أن تسترد أم ليلي عافيتها. أعتقد أنهما لن تتركا منزل عمتي، ستظلان بجانبها إلى أن تُشفى أو تموت.

أبي جالس في الصالة طيلة اليوم، كلما حاولت أختاي إثناؤه عن ذلك وإقناعه بالنزول إلى شقته ليستريح يرفض، أعتقد بأنه قد

حصل على إجازة من عمله، وتخلّى أيضاً عن عاداته في الصلاة بمسجد أمير الجيوش. بالتأكيد انقطع عن الذهاب إلى سهرات الغيط، ففتنة تقول إنه لا يغادر مجلسه إطلاقاً، أبي جالس في الصلاة يوجّه بصره بين الحين والآخر إلى غرفة أم ليلي. أنا متأكد بأنه يريد أن يراها ويطمئن، للأسف لا يمتلك الجراة ليدخل إلى غرفتها، فيلاحق أخي بالأسئلة، طوال النهار والليل يعرض خدماته، يسألهما إن كانتا تريدان علاجاً للعمّة، أو فاكهة تجبها، أو نوعاً من الخضر يفتح شهيتها. يومياً يتغيّب لدقائق بعد صلاة العشاء، ويعود ويده دكتور الوحدة الصحية الشاب. الطبيب ابن صديقه فلا يمانع ولا يتبرّم، يخبرنا همساً بأن حضوره للكشف اليومي على أم ليلي لا معنى له، يقول بأن المرض قد تم تشخيصه من قبل أطباء متخصصين، حددوا العلة وصرفوا الأدوية الموصى بها. يقول لي وأنا أوصله: حضوري لا فائدة منه، آتي فقط لأطمئن الحاج محفوظ؛ أبي قال نفذ كل طلبات الحاج محفوظ ولا ترفض، فالمریضة غالية عليه.

أنا الآخر مثل أبي، لا أمتلك الجراة لأدخل إلى غرفة أم ليلي، لا أتحمّل أن أراها منكسرة، بالأساس لم أتوقع أن يصيبها المرض يوماً، وكأنها من طينة مختلفة عن باقي البشر. كلما أستجمع شجاعتي وأهم بأن أدخل إلى غرفتها أفضل، أشتم رائحة الموت فأتراجع، تَبْرُغ فجأة أمامي صورتا أمي وجدة نور، أرى المقابر

وحقّارها، تزكم أنفي رائحة التراب وهو يوارى جثامين الأحبة،
فأفزع.

ليلي بقيت بجوار أمها، وأنا عدت إلى العاصمة، تركتها هي
ونور في القرية على أن أرجع في الإجازة الأسبوعية. أصبح وضعي
مثل جميع بلدياتي بالمجمع، أقضي أغلب الأسبوع وحدي
بالعاصمة، وأعود إلى أسرتي في القرية أيام الإجازات؛ فكرت في أن
أسكن مع بلدياتي مرة أخرى، بدلاً من المكوث وحدي في منزل
فارغ، تذكرت ما حدث للبطل فتراجعت. بقيت في شقتي حيث
الوحدة والملل والوقت الذي لا يمر، أقضي أغلب يومي في متابعة
الصندوق الأزرق اللعين، أُضَيِّع بيه الوقت حتى يحين موعد عودتي
إلى القرية، بين الحين والآخر أطمئن على ممدوح البطل وابنه حمادة،
أفرح لضحكة الشاب الرنانة وهو يهاتفني ليُشِيرني بانضمامه لأحد
الأندية، يقول لي: يا عم كمال أنا بقيت لعب كورة رسمي. أزورها
فأرى الابتسامة تغمر قسمات وجه البطل، يخبرني بفخر بأن حمادة
انضم إلى أحد أندية دوري الدرجة الأولى، وسيلعب في فريق
الناشئين حتى يثبت جدارته، يقول بزهو: هما شهرين بالكثير، والواد
حمادة يكسّر الدنيا ويصعدوه للفريق الأول للنادي.

يتصل بي المخبر أكثر من مرة ولا أرد، الأخرق هو الآخر يحاول
محدثي لكني أتجاهله، عندما وجدا أن محاولتهما لم تنجح حضرا
للقائي؛ بلدياتي أخبروهما بأنني أقيم بمفردتي، بعد أن سافرت زوجتي

إلى القرية، فأتيا بحجة تسلّيتي. للمرة المائة أحنث بقسمي وتخذلني
ضحكتي، حلفت أن أقاطعهما إلى الأبد، وبمجرد أن طرقا بابي
رَحَّبْتُ بهما، في البداية رسمتُ التكبشيرة على وجهي وصمت، لكن
مع أول نكتة أطلقها المخبر انفلتت ضحكتي. ظل صديقاى يبررا
ما فعلاه، عدّد الأخرق مساوئ ممدوح البطل، قال بأن ما عاناه لا
يتحمّله بشر، وأن تعمّد البطل إذلاله وإهانته أمام الجميع كان
مُرْبِعًا، أخبرني بأنه كثيرًا ما أغلق على نفسه باب الحمام وبكى
بجُرْقَةٍ، أكد أنه لم يكن أمامه حل آخر، وجب أن يرد للبطل إهانته
ليشفي غليله. لم أقتنع بحديث الأخرق، وهو أيضًا لم يهتم بإقناعي
بصواب ما فعل، كل ما أراده هو إيضاح موقفه وتذكيري بضرورة
حضور عُرسه، فأنا سأكون شاهدًا على عقد القران.

(19)

كنت أحسب أن بسقوط عمود الخيمة سينهار البنيان، لكن حمداً لله فقد خاب ظني. فاجعة موت الجدة مرت بسلام، وبقي البنيان صامداً، رغم ما أصابه من تصدُّع وشقوق. عائلتنا بخير، أنا وليلى ونور تجاوزنا مرحلة الدهول، ونكاد نودع الحزن، الحياة ماضية لا تتوقف، والنسيان آتٍ لا مفر، هذا ما عرفته واختبرته، فاطمأن قلبي.

ليلى هي من حدّثت والد نور. صمدت ولم تبكٍ وهي تُخبره بموت الجدة. طمأنته على نور، قالت له: الولد وسط أسرته فلا تحف. الأب لم يعرف بماذا يرد، فشكرها وأغلق الخط، بعد أن تمالك نفسه حدّثنا ثانيًا، قال بأنه سيرسل لنا تكاليف إعادة نور إلى وطنه، أنا من ردّيت هذه المرة، قلت له منفعلًا: ما فائدة عودة طفل إلى بلد أكلها الدمار؟! نور ابننا ولن نتخلى عنه. أوضحت له ليلي بأن وضع نور سيتغير إلى الأفضل، حكمت له عن خططها لمستقبل الولد، لا عمل في المطعم بعد اليوم، سنلحقه بالمدرسة، سيعيش وسطنا كابن وليس ضيفًا، الاتصالات لن تنقطع، وعندما يعود الأمان إلى بلادكم سيعود نور. وافق الأب على مضمم باستمرار نور بالعيش معنا. شكرنا على ما فعلناه مع الجدة، قال

لنور: لا تحف يا حبيبي، هذا وضع مؤقت، وبعدها سترجع إلى الوطن. انفلتت الدموع من أعين الجميع فأهّمينا الاتصال.

كنا على وشك التعافي وتجاوز الأحزان، فجاء خبر مرض أم ليلي ليعيدنا إلى ما كنا فيه. سافر ثلاثتنا إلى القرية وعدت وحدي، كلما اقتربت الطمأنينة من قلبي نزعنت عن عمد. الوحدة تحاصرني من كل جانب ولا أعرف كيف أهرب منها. غياب ليلي ونور جعل منزلنا بلا طعم، تركاه فغادرته الحياة، المجمع أصبح مكاناً مقبضاً، الحسنة التي رأيتها فيه جعلتني أكرهه، نظرات زملائنا أبناء العاصمة الشامتة جعلتني أمقتهم، أحاييل الوقت ليمر، أقضي أغلب نهارني في محادثة ليلي ونور تليفونياً، أحدثهما طمعاً في ونس أفتقده، أعود إلى المنزل فلا أجد إلا الصندوق الأزرق لأضيع فيه ساعات الليل الطويلة.

فكرت في أن أقلد المخبر وأخترع شخصيات وهمية أجري بها المحادثات، أضع صورة شاب وسيم، فتنهال عليّ طلبات الصداقة من الجميلات، أو أضع صورة شيخ بدقن طويلة، فتطاردني إعجابات وتعليقات الأخوة الملتزمين، تراجع عن ذلك بعدما تذكرت ما حدث للمخبر.

نفذت باقة الجوال فاضطرت أن أفتح كمبيوتر ليلي، الذي اعتلاه الغبار من طول غياب صاحبه، للمرة الأولى أستخدمه، فمنذ أن تزوجنا وليلي هي القائدة، هي من تنتقل بين الصفحات

لثُرْبِي عجب العُجاب. في مرة أخذت في الضغط على الأزرار فظهرت قريتنا على الشاشة، قربت الصورة فرأيت بيتنا هناك، انبهرتُ كالعادة فقالت بسرور: الأمر بسيط يا كمال، مجرد برنامج متصل بالقمر الصناعي، فقط نُحدد الموقع الذي تريده، فينقل البرنامج صورة حية للمكان.

ولجُتُ إلى الصندوق الأزرق، فوجدته مختلِّفًا عن ما أراه في جَوَّالي، بعد دقائق فهمت أن ما أمامي هو حساب زوجتي على التطبيق، حاولت أن أمر إلى حسابي ففشلت؛ اتصلت بليلي لتخبرني ما أفعله فلم ترد، الملل لا التلصص هو ما دفعني للاستمرار، تجولت بلا هدف في حسابها، رأيت منشوراتها الكثيرة التي طالما اضطرت إلى الإعجاب بها حتى لا تغضب، شاهدتُ تعليقاتي الخائبة لديها، ففكرت في أن أغلق جهاز الكمبيوتر وأنام، أول ما هبطت إلى أسفل الصفحة ورأيت تلك الرسائل تسمَّرتُ أمام الشاشة، ولم أفارقها إلا صبيحة اليوم التالي.

في مرة سألتُ ليلي عن الاختيارات الموجودة بجانب زر النشر في التطبيق، أخبرتني بأن مؤسس الفيسبوك أراد للجميع حرية الاختيار، من الممكن أن يرى الجميع منشورك، أو أن ترسله إلى أصدقائك فقط، أو حتى تحتفظ به لنفسك، ساعتها ضحكت، وسألتها عن مغزى أن يوجَّه أحد المنشور إلى نفسه، فردت: مجرد تنفيس للصدر يا كمال.

وسط منشورات زوجتي الكثيرة هناك خمس رسائل لم أرها من قبل، وجهتها ليلى إلى نفسها فقط.

الرسالة الأولى

لا أدري كيف تحملت أمي كل تلك الهموم، لا أفهم كيف أصبحت بهذه الصلابة، من يراها يظن أنها وحش كاسر، أمي تخفي ضعفها وقلة حيلتها بالشدّة والصوت العالي. فتنة ومنى وكمال يخافونها، احترامهم الزائد لها ليس بدافع الحب، بل الرهبة، يرتعبون من لسانها الطويل، أما أنا فلا أخافها مطلقاً، فأنا أعرف حقيقتها، تخفي طبيعتها خوفاً من أن يلاحظ أحد ضعفها، فيتجرأ عليها، أتمنى أن يحبها الجميع مثلي لا أن يرهبونها.

أتت أمي إلى قريتنا وهي في مثل عمري، حكّت لي أنها ملأت حقيبتها بالجرائد لتجعلها منتفخة، خجلت من أن تدخل قريتنا بلا متاع، كل ما كانت تملكه، هو جلابب أسود وشبشب بنعل مثقوب وغيار داخلي خلاف ما ترتدي. كلما رفضتُ الزواج وتحججت بصغر سني، قالت أمي: تزوجت وأنا في مثل عمرك، سني كانت عشرين سنة، والناس يقولوا عليّ عانس. هربت من الوحدة والفقر وكلام الناس وتزوجت أبي، لم يتقدم لخطبتها أحد قبله، ولم تتوقع أن يأتي أحد بعده، فوافقت مضطرة.

لم ترَ أباهما ولم تشبع من حضن أمهما، ماتا وتركوا وراءهما أربعة أولاد وبنتين، وُزِّعوا على الأخوال والأعمام. كثيراً ما حكى لي عن أيام اليتيم، دائماً ما تضحك، لتداري الدمعة التي توشك أن تظهر، تقول: لما كان الأب والأم على وش الدنيا كنا فقرا قوي، فتخيلي بقى حالنا بعد أما ماتوا. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها بالرغم من جاهلها، تقول لي: مين الحمار اللي هيتجوز واحدة تزیده فقر؟! وحتى لو كان حد اتقدملي مين اللي كان هيجهزني!؟

عندما جاءت البُشرى بقدوم العريس لم تسع الأرض سعادتها، ظلت ترقص بلا توقف من العشاء إلى الفجر، "الفرحة ساعتها مساعتنيش، قفلت باب أوضة الخبيز عليّ وهاتك يا رقص للصبح"، ثلاثة رجال حضروا إلى بيت خالها، عجوز وكهل وشاب، أدخلوها لتقديم الشاي للزوار، فتأكدت أن الدنيا ابتسمت لها، سألوها عن رأيها، فردت: أقول إيه وأعيد إيه، ده الخالق الناطق حسين فهمي! أخبرها خالها بأن الكهل هو من تقدم لخطبتها، وليس الشاب، فوجمت. فكَّرت لدقائق، ثم أخبرتهم بموافقتها. بعد أسبوع حضر الثلاثة مرة أخرى، ومعهم مأذون قريتهم، عقدوا القران وأخذوا أمي معهم وغادروا في صمت.

الرسالة الثانية

العجوز هو جدي، والشاب هو عمي محفوظ، أما الكهل فأبي، كان جدي هو صاحب قرار الزواج. تعتقد أمي بأن أبي لم يفكر إطلاقاً بالأمر، جدي قال الأخ الكبير يجب أن يتزوج أولاً، فامتثل أبي، لم يكن كهلاً مثلما اعتقدت أمي، فهو يكبر عمي محفوظ بثلاث سنوات فقط، المرض هو ما سرق شبابه وأحنى ظهره مبكراً، ذبل قبل الأوان فكافأه جدي بعروس، علّها تعيد شبابه الضائع، لم يجدوا في قرينتنا عروساً تقبل بحاله، فبحثوا في القرى المجاورة حتى وجدوا من تقبل، قبل أن يأتوا إلى بيتها، كانوا واثقين بأنها ستوافق لا محالة، ففتاة في مثل ظروفها لن ترفض عريساً مهما كان وضعه. تقول أمي: حتى لو كان عضم في قفة كنت هوافق.

أصر جدي بأن يتزوج أبي وعمي في نفس الليلة، لتكون الفرحة فرحتين، في غرفتين متجاورتين أقام الأخوان، تسمي أمي شهر عسلها بشهر الأنين، تقول ضاحكة: كان من العيب أن تغادر العروس غرفتها، فأيام العسل لا تعوّض، الأنين لا يتوقف من غرفتي العروسين، أبي يئن من الألم، وزوجة عمي محفوظ تنن هي الأخرى. تقول أمي: أم كمال كانت تتعمد إغاضتي، فتتمادي في إطلاق الآهات والأنات، كلما قابلتها تقول: أعمل إيه في الراجل ده، مش راضي يسييني في حالي، طول الليل والنهار مش بيرحم، حتى

الصلاة مش عارفة أصليها، كل ما أستحمى وأفرش السجادة
يشدني تاني على السرير.

أمي لم تغضب منها، فهي تعلم أنها امرأة غيّارة، تعرف أن أمي
أجمل منها فتريد إهانتها، تمنّت أن تكسرهما، لكن أفعالها جعلت
من أمي أكثر صلابة؛ ودّعت خجلها وضعفها، وتحولت إلى أم
ليلي القوية التي يهاهما الجميع.

أبي رجل طيب.. هكذا تقول أمي دائماً، عنفه اللفظي
وسلاطة لسانه كانا مُفنعليّن، تصوّر أن خشونة الطباع قد تداري
عجزه الجسدي، أحب أمي ولم يُهنها في يوم، وهي الأخرى تحمّلت
الكثير بسببه، نعتوها بالعاقرة فلم ترد، قالوا بأن أرضها بور فصمتت
وصبرت، ودعت الله حتى كافأها بالذرية، تقول أمي: ثماني سنوات
أدعو الله حتى أتيت وأنرت دنيتي، أبوك هو الآخر كان يتمي
الوليد، مرت السنوات فبدأ الرجال في نصحه بالزواج من أخرى.
أبوك رفض وقال لهم "بجب مراقي ومستحيل أجيبها ضرة"، أبوك
قدّر صمتي، فهو يعرف أن كهفي خصب، لكنه لم يجد من يجيد
حرثه، لعن الله المرض، جعل من الرجل مثل الورقة، كلما لمست
جسدي انثنت، بعد ثماني سنوات عجاف رُويت الأرض ونبتت
الزهرة، انتفخ بطني وجاءت ليلتي إلى الدنيا.

الرسالة الثالثة

منذ أن كنت طفلة وأنا أسمعهم يقولون ليلي لكمال، أحياناً أضحك وأحياناً أخجل، وكثيراً ما زعقت فيهم ليكفوا عن ترديد كلامهم الماسخ. يريدون أن يزوجوني أبو منقار، الفتى النحيل المزهو بنفسه، الذي يمشي مثل الطاووس، ويظن أن إقامته في العاصمة تعطيه الأفضلية في أعين بنات القرية، علمت أنه أول ما عاد من سنته الأولى في الجامعة قبّل فتاة، أخبرني صديقتي بأنه ضحك على أختها الكبرى، أغراها بجلو الكلام حتى أحبته، أقنعها بأن تقابله عند شريط القطار، وأول ما وصلت طوّقها بذراعيه والتهم شفتيها، البنت المسكينة حاولت التملّص، لكن ذراعيه القابضتين على خصرها منعناها من الهروب، فشلت في الرحيل فأكمل فعلته الدنيئة وزاد من لطم خدودها بالقبلات، هددته بالفضيحة، وقالت له سأصرخ، فتركها، قبل أن تمضي صفعته وبصقت على وجهه.

لم يرث كمال حلاوة عمي محفوظ ووسامته، نحول وجهه الزائد عن الحد جعل بروز أنفه واضحاً، لذا سمّيته أبو منقار. فتنة الشريعة تريد أن تزوجني من أخيها، أمي هي الأخرى لا تمنع، وكأن الجميع قد اتفق عليّ، لا أريد أن أرتبط بطمّاع، أعرف أنه يريد إتمام الزواج ليستولى على نصيبي في البيت. أستغرب من مباركة أمي للموضوع، ومحاولاتها المستميتة لإقناعي، بعد كل ما فعلته ليكتب نصف

البيت باسمي توافق أن يستولى كمال عليه! كثيراً ما حكمت لي عن إصرارها على إحضار موظف الشهر العقاري إلى منزلنا، وزناً على أبي حتى يقتنع بالتنازل عن نصيبه في البيت لي. لا أفهم كيف ترضى أن يستولى أبو منقار على ميراثي! سألتها فقالت: عمك لن يرضى أبداً بأن يدخل رجل غريب إلى بيتنا، مستحيل أن يوافق على التقسيم، بزواجك من كمال ستحل المشكلة. الولد ييقش يا ليلي، عاجلاً أم آجلاً سيصبح البيت لك أنتِ وكمال.

أبو منقار خجول وعلى نيافته، أول ما مسك يدي يوم الخطبة ارتعش، ارتجفت يده وألبسني الخاتم بصعوبة، وجهه أصبح مثل حبة القوطة الناضجة، ترك يدي بسرعة وغادر مع عمي محفوظ. عندما يحضر إلى منزلنا يجلس كالصنم، كلما حاول محادثتي تلثم وغرق في عرقه، أظن بأن صديقتي كذابة، فمن المستحيل أن يكون كمال قد قبّل أختها.

الرسالة الرابعة

كمال لا يعرف العاصمة رغم إقامته فيها لسنوات، بمجرد أن تزوجنا أصبحت أنا مرشدته فيها، لم أتوقع أن زوجي طيب إلى هذا الحد، سلّمني مقاليد كل شيء منذ يومنا الأول معًا، عندما حضر أقاربنا وأعطوه النقود، سلّمها لي عن طيب خاطر. أبو منقار لا يهوى كَنز الأموال، بالأحرى النقود، ليست لها قيمة بالنسبة إليه، أول ما حصل على مُرْتَبه سلّمه لي بالكامل، عندما تعجّبت من فعلته، أخبرني بأنه لا يحتاج للمال، فليس له أي مصاريف، يذهب إلى العمل مشيًا على القدمين ولا يدخن ولا يسهر على المقاهي، قال لي ساعتها: اصرفي ما تصرفينه، وما يفيض عن الحاجة ادّخريه. زوجي لا يمتلك أصدقاء هنا، يعود من عمله بعد العصر بقليل، ولا يغادر المنزل إلا صباح اليوم التالي، طول مكوثه في الشقة جعل تأقلمنا سريعًا، أشعر بأننا متزوجان منذ سنوات طويلة، رغم أن سنتنا الأولى معًا انتهت للتو.

أبو منقار ذو وجهين، في النهار هادئ وطيب وخجول، وفي الليل يصبح كما شاب البقر، يتحوّل الحمل الوديع إلى ذئب مفترس، يحملي إلى السرير بلا مقدمات ونظل بالساعات في حركة دؤوبة. حكّت لي أمي ذات مرة، بأن جدي كان يمتلك شاب بقر ضخماً في حظيرتنا، جميع الأبقار تخرج من الفجر إلى الغيط وتظل

تعمل إلى ما بعد المغرب، إلا هو، مهمته الوحيدة هي الأكل والراحة ومعاشرة إناث الأبقار. تضحك أمي لتداري خجلها وتقول: كان جميع فلاحي القرية يأتون ببقراهم الطالبة للعُشر إلى حظيرة جدك، طلبًا لشاب البقر القوي، في مرة ثار أبوك وطلب من جدك أن يذبحه، فرفض، جدك قال له: أجنبي من ورائه أموالاً أكثر من ثمن حليب جميع بقرات الحظيرة مجتمعات، فكيف أنخره؟! أول ما مات جدك نخره أبوك، بسكين ثلم فعل فعلته.

أبو منقار مثل شاب البقر بالضبط، لكنني امرأة واحدة، يدك حُصوني طوال الليل حتى أنهك، يتركني لشعوره بتعي لا لأنه شبع. رغم كل ما يفعله كمال لم ينتفخ بطني بعد. مرت سنة، ولم تنبت بعد بذوره التي يلقبها ببذخ، لا أعلم أرضي بور أم أن بذوره معطوبة. أمي بدأت تُبدي قلقها، أسئلتها عن علاقتي الحميمة بكمال كثرت. في مرة سألتني بخرج عن حالة زوجي، قبل أن أجيبها حلفتني بألا أكذب، أقسمت لها أن كمال مثل شاب البقر لا يهدأ، طلبت مني أن نجري التحاليل، فالوقت طال وكلام الناس لا يرحم.

لا أفهم كيف لا يلاحظ كمال حالي، الوقت يمر وهو حتى لا يسأل، أعتقد أن أي رجل يتمنى أن يأتيه الولد، وحتى لو لم يكن يجب الأطفال، ألا يريد أن يثبت للجميع رجولته؟!

الرسالة الخامسة

هل كان لي يد في وفاة الجدة؟

أأنا السبب في موتها؟

لو ملأت النهر بدموعي فلن تنضب.

ماتت سندي في العاصمة وعُدت وحيدة.

قبل قدومها كانت حياتي جحيماً، لا أصدقاء أو معارف هنا، اليوم طويل وممل، كاد لساني أن ينسى الكلام من قلة استعماله. كمال صامت دائماً، كلما حاولت جرجرته إلى الحديث يرد باقتضاب، ثم يعود إلى سكاته، أبو منقار لا يجيد الحديث مطلقاً، وكأنه يدّخر طاقته لصولاته وجولاته على سريري. فاض بي الكيل فأصريت على العودة إلى قريتنا. أخبرته أن العيش في العاصمة لا يناسبنا، قلت له تقدم بطلب إلى الوزارة لينقلوك إلى أي وظيفة في شبين، مكاننا ليس هنا يا كمال وعلينا العودة إلى قريتنا.

جاءت الجدة وحفيدها فتغيّرت حياتي، أحببت المنزل والعمارة والشارع، حتى ناس المدينة المتعجرفون ساحتهم عن طيب خاطر. الجدة طاقة حنان لا تنضب، وجهها سَمَح ولسانها لا ينطق بالسوء، اعتبرتها أُمي في الغربية، وهي أيضاً عاملتني كما ابنتها، كلما ضاق صدري ارتميت في حضنها وبكيت، حكيت لها عن أُمي وأبي، أخبرتها بظني السيئ في كمال، وتفكيري الخائب قبل الزواج، كلما

أردت أن أضحكها، قُلدت مشية عم محفوظ المهرولة أول ما يرى أُمي.

أحببت الجدة، ولم أخجل قط من أخذ رأيها في أي شيء يخصني، مهما كان. في مرة صارحتها بهواجسي، قلت لها أخاف أن تكون أرضي بور يا عمّة، أخشى من كلام الناس، لا أفهم السر في عدم اهتمام كمال بالأمر. المرأة الطيبة هَوّنت عليّ قلقي، أخذت بيدي وزارت معي المستشفيات، لم تتركني رغم اعتلال قلبها، لَقّت معي العاصمة بحثًا عن أفضل الأطباء، عندما أخبروني أن رحمي معيبة انهرت، لولا وجود الجدة بجوارِي لميت من الخوف، قالت لي: تمالك واصرري فهذا قضاء الله، ادعيه وتيقني بأنه رحيم بعباده. عندما رأت دموعي التي سألت احتضنتني، وقالت: لا تخافي يا ليلي؛ أنا بجانبك، تأكدي يا حبيبتي بأن فرح الله قريب.

تحاملت على نفسها وظلمت قلبها المريض من أجلي، كلماتها حوّلت ياسي إلى تفاعل، قالت: الجراحة سهلة يا ليلي، إزالة الأكياس عن المبايض جراحة مضمونة النجاح، يجريها الأطباء بالمنظار فلا تترك أثرًا. كانت الجدة سندي وعزوتي ورفيقتي في أوقات الشدة، هي التي صحبتني للمستشفى يوم إجراء العملية، وأصرت بعدها بأن أظل في بيتها لثلاثة أيام حتى أبرأ، عندما خفت أن يدرك كمال كذبتني، تولّت هي الأمر، قالت له: ليلي مثل ابنتي، وأنا محتاجة لرعايتها، اتركها تقيم معي أيامًا قليلة.

أول ما استجمعت قوتي وعدت إلى بيتي، غادرت هي، تركت
الدنيا وماتت، أجملت إجراء الجراحة لقلبها العليل من أجلي، ماتت
من أجل أن تنبت زهرتي.

(20)

ظهرت الذقون الطويلة فجأة في قريتنا.

يقول أبي إن بعض أبناء قريتنا قد سافروا منذ زمن إلى بلاد النفط، بحثًا عن الرزق، بعد سنوات عادوا من هناك مُحمَّلين بالمرآوح والبطاطين وأجهزة الكاسيت والأموال، ذهبوا بجلايبهم البلدية وذقونهم الحليقة، ورجعوا بالجلايب البيضاء القصيرة والذقون الطويلة. يروي أهل قريتنا بأن الرئيس المؤمن أوصى بأصحاب الذقون الطويلة خيرًا، فلم يتعرَّض لهم أحد بأذى، الشرطة تراقبهم عن كثب، لكنها لم تُلقِ القبض على أحد منهم أبدًا؛ يُجرِّمون معارضة ولي الأمر، لذا يعيشون في أمان، وينامون قريري الأعين، في طفولتي كنت أستغرب مظهرهم الغريب، وأقول لأبي: لماذا يرتدون ملابس قصيرة؟ هل هم فقراء إلى تلك الدرجة؟! يرد عليّ ضاحكًا ويقول: هم يتبعون سنة رسول الله. أقول له بتعجب: ولماذا نحن ننكر سنة الرسول ولا نفعل مثلهم؟! ينهي أبي الحديث برد مقتضب: إن الله غفور رحيم. يقولها ضاحكًا، ثم يمسك بيدي ويصطحبني إلى مسجد أمير الجيوش لنصلي المغرب.

أول ما عادوا من بلاد النفط أنشؤوا الزوايا ليصلوا فيها، أكدوا بأن الصلاة في مسجد أمير الجيوش حرام شرعًا، وبنوا مساجدهم

الخاصة، دعوا أهالي قريتنا إليها، فلم يرضوا مفارقة الأمير. بقي بيت الأمير عامراً، وهُجرت زواياهم.

صراع أصحاب الذقون الطويلة مع سيدي الأمير أبدئي لا ينتهي، يصرون بوجوب هدم ضريحه، ولا أحد في قريتنا يستمع إليهم، أول ما رجعوا من بلاد النفط حاولوا، اغتروا بجنان الرئيس المؤمن فأمسكوا بالمعاول، قبل أن يهملوا بالهدم ظهر أبناء قريتنا الشجعان وتصدوا لهم، حدّثوهم بالتي هي أحسن، وعندما لم يستجيبوا قالوا لهم: العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم. رأى أصحاب الذقون الطويلة كثرة عدد أبناء الأمير، فحكّموا عقولهم ورحلوا، بعدما فشلوا مارسوا الحيلة واحتموا بظلام الليل، أرسلوا فريقاً منهم ليقوم بالفعلة الخسيصة والناس نيام، مع أول حجر سقط من الضريح انطلق غضب أمير الجيوش ليبطش بهم. من بعيد أتى المنادي باكياً وأنبأهم بوفاة شيخهم، صاحب الذقن الطويلة البيضاء مات حرقاً؛ أمير الجيوش انتقم، زوجة الشيخ وعياله لم تمسهم النار بفضل الواحد القهار، أما رئيسهم فقد نال جزاء فعلته. من يومها والهدنة قائمة بين الأمير وأصحاب الذقون الطويلة.

بعد الثورة ظهروا ثانية، تعاطوا السياسة التي طالما حرّموها وكوّنوا حزباً، نافسوا حزب الأونطجي بضاوة في الانتخابات، هُزِموا لكن قوتهم ظهرت إلى العلن للمرة الأولى، وصوتهم أصبح مسموعاً.

قالت أم ليلي: هروح أوزّع الأكل بنفسني في جامع سيدي الأمير، عشان أكيد صحاب الدقون العيرة دول.

عمتي خالفت توقعات الأطباء وشُفِيَت، لا أعرف كيف تعافت، لكنني أراها وقد عادت كسابق عهدها، أول ما وصلت إلى المنزل سمعتُ زعيقها، صعدت إلى شقتها فرأيت ليلي ونور جالسين وأمامهما الكتب والكراريس، ليلي تشرح الدرس للولد وعمتي تصيح فيه كلما أخطأ. بعد أن انتهيا قالت لي ليلي بسعادة: نور يجب أمي، لا يخاف منها مثل الجميع، يجادلها ويعترض على قراراتها، لكنه يحترمها ويقول لها يا جدتي.

أبي لم يترك صلاة منزل أم ليلي حتى الآن، ما تغير فيه هو ضحكته التي عادت، ورأسه الذي انتصب. تضحك ليلي وتقول: عمي محفوظ أحضر سجادته وفرشها في الصلاة حتى لا يغادر البيت، عندما يحين موعد الصلاة، يتوضأ هو ونور ويصليا معاً على سجادته. أخبرتُ ليلي بعدم جدوى الإقامة في القرية بعد الآن، فأمها شُفِيَت، أبي تدخل في الحديث على غير عادته وقال: اتركوا نور معنا. استغربت من طلبه المباغت، وأخبرته بأن رعاية طفل أمر صعب، فرد: أم ليلي سترعاه وتذاكر له، كما ربّيتكم سُرّيبه.

أم ليلي تحكي لنا بفرح عن معجزتها الخاصة، تؤكد أن شفاعة أمير الجيوش حققت المستحيل، وأنها شُفِيَت من مرضها العضال بفضل كرمه. عمتي حلمت بالأمير، أتى مُحاطاً بهالة من نور ودخل

إلى غرفتها، اقترب منها وابتسم فاطمأنت، مد يده وضغط على
بطنها ففزعت، قال لها: لا تخافي. فجأة اخترقت يده بطنها. تقول
عمتي: لم أشعر بأي ألم واليد المباركة تقبض على أحشائي وتنزع
المرض. أخرج يده وهمس بصوت يُحس لا يُسمع: سُشفين بأمر
الله.

أهالي قريتنا يقولون بأن اتفاقاً قد عُقد بين أصحاب الذقون
الطويلة وحزب حامد الأونطجي، الاتفاق يقضي بهدم ضريح أمير
الجيوش، سيفعلها أصحاب الذقون الطويلة، وسيغض حزب
الأونطجي الطرف. سألت حامد فقال: أنا لست مسؤولاً عن بناء
ضريح أو هدمه، لو صدر أمر قضائي بهدم الضريح فلن نعترض،
أما موضوع الاتفاق هذا فمحض هراء. قلت له: ولو هدموه في
جنح الظلام؟ فرد: بعدما تشرق الشمس سأفاجأ مثلكم.

عدت إلى قريتنا وأنا أنوي معاتبة ليلي على ما فعلت، سألوي
بوزي وأقطب جيبني وأنا أحدثها، لن أرضى بأن يمر الأمر مرور
الكرام، فكذبها أوجعني؛ كيف خدعتني كل تلك الفترة ولم أشعر؟!
لماذا لم تُخرج ما في قلبها وتصارحني؟! سأتغاضى عن نعتي بأبو
منقار، سأتناسى تلقيني بشاب البقر، ظننا بأنني طماع لن أنساه
أبداً. لماذا الكذب وهي أقرب الناس لي؟! لو أخرجت ما في قلبها
وصارحتني لكانت ارتاحت، رسائلها أشعرتني بمدى غبائي، كل

تلك الأحداث تجري من وراء ظهري ولا أشعر! حتى الولد نور كان يعرف كل شيء ولم يخبرني، كيف لطفل صغير أن يستطيع خداعي؟!

لا أعرف كيف لم أُعَيِّفها! عندما رأيت وجهها المبتسم تعثّر لساني، ناديت على نور لأواجههما معًا، وعندما هممت بالنطق انطلق الولد في الكلام فأفشل خطتي، ظل يتحدث لساعة، وكلما حاولت أن أقاطعه زاد من سرعة حديثه، لا أدري أنا بالفعل لم أستطع إيقافه، أم أنني استمتعت بحكاياته فأصغيت! نور يروي بفرح يومياته في القرية، يخبرني بزياراته المتكررة إلى سيدي أمير الجيوش، يصف لي المرديدن والشيخ والمجنوبين وأصحاب الأعلام، يحدثني في سعادة بأن أم ليلي كلّفته بتوزيع أرغفة اللحم بالمقام، يقول: جدي أوكلتني بتنفيذ المهمة الصعبة، وزعت نذور شفائها على المصلين يا عمو، جدي محفوظ لم يشاركني التوزيع، ظل يراقبني من بعيد كما اتفقنا، بعدها كافأني باصطحابي إلى الغيط. أكنتم ضحكتي، فأم ليلي أصبحت جدة، وأي أصبح هو الآخر جدًّا لنور.

- أصدقاء جدي طيبون جدًّا يا عمو، كلما حضرت إلى سهراتهم هادوني بالحلوى، جدي محفوظ يشوي الذرة ويصب لي شاي الركبة، أصبحت مثل الكبار، أشاركهم شرب الشاي وأكل الذرة. تصوّر يا عمو، سيدي الأمير ما

زال جسده يقطر دمًا حتى الآن! من قتله الأشرار يظل جسده نضر كما الأحياء. أخبرني أصدقاء جدي أن الأمير ينتظر قيام الساعة لينهض من ضريحه، يومها سيقتص الله من الأشرار يا عمو، أمير الجيوش فقط سيشير إليهم، سيضعهم الله في الدرك الأسفل من النار، ولن يغادروه أبدًا.

حاولت أن أقاطعه، وجَّهت حديثي إلى ليلي، سألتها عن صحة أمها كتمهيد أبدأ به المكاشفة، قاطعني الولد وانطلق في حديثه مرة أخرى: جدتي طيبة يا عمو، صوتها عالٍ وزعيقها مزعج، لكنها تحبني جدًّا، عندما أنتهي من المذاكرة تعطيني النقود لأشتري الشوكولاتة، وعدتني بشراء دراجة لألعب بها، قالت: لو ذهبت إلى المدرسة يا نور ونجحت، سأخذك معي إلى شبين الكوم، وأحضر لك من هناك أجمل دراجة، أين شبين الكوم يا عمو؟ أهى قرية؟ يرهقني الولد فأعود أدراجي خائبًا.

رجعت وحدي إلى العاصمة، فنور وليلي رفضا أن يعودا معي، زوجتي ألمحت بأنها تود البقاء في قريتنا إلى الأبد، قالت: فاكر طلب النقل بتاعك؟ روح اسأل عليه، وحاول تنتقل في أي وظيفة في شبين. أخبرتني بأن أبي وأم ليلي لن يستطيعا فراق نور، وهي أيضًا لا تطيق العودة إلى العاصمة ثانية، لا أعرف ماذا أفعل، أترك

العاصمة بعد كل تلك السنين؟ أتضيع كل محاولاتي في التأقلم هباء؟ أعود إلى قريتنا بعد أن امتلكت في العاصمة سكنًا وعنوانًا؟ بعد ما حدث للأخرق، أيقنت بأن القاهرة ليست مكانًا صالحًا للعيش، العاصمة لا تناسب الريفيين إطلاقًا، حكى لي بلدياتي عن ما جرى، فاتخذتُ قراري بتقديم طلب النقل والعودة للإقامة الدائمة في قريتنا.

كنت قد حضرت عرس الأخرق، وشهدت على عقد القران مثلما اتفقنا، بعدها ودَّعت العريس ورحلت أنا والمخبر، كما توقعنا لم يحضر العرس أحد من بلدياتي، فبعد فعلة الأخرق تقطعت كل الخيوط التي تربطهم به. عندما حاولت أن أليّن قلوبهم وأقنعهم بالحضور رد البطل بغضب: خليه يشبع بزمايله الشامامين ولاد مصر.

كان عرسًا قاهرًا بامتياز، صوان واسع، ومطرب أجش الصوت، وراقصة سمينة كل ما تفعله هو هز كتل الشحوم المتراكمة حول ثدييها وأردافها، غادرت العرس بعد عقد القران مباشرة، تركت الأخرق يدخن الحشيش مع زملائنا القاهريين، ورحلتُ إلى قريتنا لأطمئن على ليلي ونور. بعد ثلاثة أيام عدت إلى المجمع، أول ما اجتزت البوابة قابلني البطل، أخبرني بأن حمادة قد انضم إلى الفريق الأول لناديه وأحرز هدفين في مباراتين متتاليتين، باركت له فأكمل حديثه ضاحكًا: كده يبقى البقاء لله في المرحوم محمد،

والبركة بقى في الكابتن حمادة. بادلتها الضحكات، وقبل أن أهم بالمغادرة أردف قائلاً: الموكوس بَلَفْتَه حُرْمَة وجَرَسْتَه، اطلع اَطْمَن عليه، البيه مرمي فوق في الشقة، وقافل على نفسه الأوضة بقاله يومين. قبل أن أستفسر عن ما جرى للأخرق تركني ممدوح البطل وهروا إلى عمله.

حكى لي بلدياتي عن ما حدث. قُرب الفجر جاءت المكاملة التليفونية، المتحدث هو والد الأخرق، أخبرهم بأن المستشفى اتصل به، وأخبره بأن ابنه قد وصل إليه، أحضرته عربة الإسعاف، وعندما سألوا سائقها عن أهل المريض، أخبرهم بأن امرأة كانت معه ولكنها اختفت بعد أن وصلوا. رجاهم أبو الأخرق، قال لهم باكيًا: الحقوا الواد وأنا هحصلكم. دقائق مرت وبلدياتي لا يعرفون كيف يتصرفون، مترددين في الذهاب، فهم لم ينسوا بعد ما فعله الأخرق مع ممدوح البطل، انتهى ترددهم بعد كلمة الكبراء، قالوا لهم: لازم نروح إكرامًا لأبوه اللي اتصل بينا، وأول ما الحاج يوصل نمشي. بلدياتي أولاد أصول؛ لم يتركوا الأخرق حتى بعد أن حضر أبوه، ظلوا بجانبه إلى أن تعافى، وبعدها أوصلوه هو وأباه إلى منزله بالمطرية.

أول ما وصل بلدياتي إلى الحارة التي يقطن بها الأخرق تكشفت لهم الحكاية، سمعوا من صاحب محل الجوار ولم يهتموا، فالأمر لا يخصهم، أتموا مهمتهم وودعوا الأخرق وأباه، قبل أن يغادروا الحارة، فوجئوا بنداء أبو الأخرق: المرة اللبوة غَيَّرت كالون الباب ومش راضية

تفتح، والواد عامل فوق زي المجنون ومُصِر يكسّر الباب عليها، اطلعوا الحقوه، أحسن بنت الوسخة تلبّسه تهمّة. صراخ الأخرق وصوت ركلات قدميه على الباب، أوحيا للجيران وأصحاب المحال بأن هناك معركة بالأعلى، فصعدوا، صعد بلدياتي جرياً وأمسكوا بالأخرق، جرحوه بصعوبة حتى أنزلوه إلى الشارع، أول ما رآه أبوه صفعه، ألقى على مسامعه وابلأً من الشتائم وبعدها رحل إلى قريتهم. أحضر بلدياتي الأخرق معهم إلى شقة المنايفة، ومن يومها وهو قابع داخل غرفته المغلقة ولا يرضى بأن يتحدث مع أحد.

الموضوع بدأ بتدخين سيجارتي حشيش وزجاجة بيّرة، أعقبها بحبة زرقاء وكوب من الشاي، تبعهما حبة حمراء وفنجان قهوة. زملاؤنا القاهريون هم السبب فيما حدث له، قالوا له عشان تبقى أسد قدام عروستك، فصدقهم الحمار، دحّن وشرب وابتلع وبعدها صعد لعروسه. الأخرق أخبرني باكياً بأنه لم يتوقع أن تأتيه الخيانة من أقرب أصدقائه، تناول الحبة الحمراء باطمئنان، فمن أعطاهها له هو زميلنا القاهري قريب العروس، ساعده في تأجير الشقة وتأثيرها، وذهب معه لخطبة العروس، فكيف لا يأمن له؟! الأخرق كان يهاب من لحظة اختلائه بعروسه، قال لي هامساً: العروس كانت متزوجة من قبل، وأخاف أن تقارن بيني وبين زوجها السابق. بليع البراشيم ليصبح ثوراً فأصبح بعدها كما السلحفاة، فشلت غزواته في اختراق قلاعها فارتعب، البراشيم جعلته رخوًا باردًا، جسده كما الثلج وعرقه

ينهمر بغزارة، حاول كثيراً أن يغالب ضعف قوته لكنه فشل في النهاية، ابتسامتها الخبيثة قضت على ما بقي في جسده من طاقة، فاتحار. قال لي بخجل: أغمى عليّ يا كمال، ولم أفق إلا في المستشفى.

بلدياتي خذلوا الأخرق عندما طلب معاونتهم، أراد أن يأتوا معه ويكسروا باب الشقة ليؤدب زوجته، قالوا له من زوّجوك قريبتهم هم المنوطون بالحل. كالمتوقع أنكّر زميلنا القاهري قرابته للعروس، أقسم بأنها مجرد جارة. حلف كذباً وأجبرنا على تصديقه، فما باليد حيلة. البطل قال بتهكم واضح: البيه ملوش وش يروح لوحده ويحيب حقه بدراعه، المرة فضحته في الشارع، قالت للكل عايزة أطلق، قالوها اصبري وارجعي لجوزك، فردت وقالنهم بوش مكشوف، أنا ست اتجوزت مرة واتنين وعارفة يعني إيه راجل. بدام هو مش قد الجواز، يبهدل بنات الناس معاه ليه؟!!

لا يمكن أن يذهب الأخرق إلى هناك ثانية، فالمرأة نَقَّذت لعبتها ببراعة، انتشرت قصتها كالنار في الهشيم، عرفها كل سكان الحارة والشارع والحي بأكمله، قصة الرجل العاجز والفتاة الفاتنة تروق للجميع، ومن المستحيل أن ينسوها. المخبر صديق شهم بحق، أخذ على عاتقه مسؤولية حل المشكلة، ظل لأسبوع لا يبارح الحي الذي تسكنه العروس، استغل مهاراته في التنصت وجمع المعلومات حتى

حل الأزمة بأقل الخسائر، بعدها حضر إلى شقة المنايفة وحكى لنا القصة الحقيقية التي يجهلها الأخرق.

المرأة لم تحب الأخرق يوماً، حتى لم تلاحظ نظراته إليها، كل ما كانت تريده هو رجل عبيط يقوم بمهمة محددة ويرحل، طُلِّقت من زوجها طلاقات ثلاث فاحتاجت إلى محلل، بدأت في رحلة البحث فأشار عليها قريبها بالأخرق؛ ريفي على نيائه يسهل التعامل معه، وربما تستطيع الاستفادة من ورائه ببعض الأموال. وَعَدت زميلنا القاهري بمكافأة سخية فأقنع الأخرق، أوهمه بأن قريبته تختلس النظرات لتراه، تقف في البلكونة بالساعات حتى تظفر بنظرة إلى عينيه، أقنعه بأنها تحبه ولا تقوى على فراقه، رتَّب بينهما اللقاءات حتى وقع المغفل في المصيدة.

يقول المخبر: المرة الوسخة أول ما الواد وقع خرجت من البلكونة وصوَّتت بأعلى صوتها، عشان تسبِّك الحدوتة. صعد الجيران وحملوا الأخرق العاري إلا من ملاءة تداري عورته، وضعوه في سيارة الإسعاف وركبت في المقدمة زوجته، على باب المستشفى هربت وتركته، فالحمار دوره انتهى. المخبر يتكلم بحرقه ويخبرنا بأن المرأة كانت تريد المؤخر وقائمة المنقولات بالكامل. يتعجب من عدم استشارة الأخرق لأحد قبل أن يوقِّع على الأوراق، "مؤخر خمسين ألف وقائمة بستين ألف! ليه؟ هو هيتجوز السفيرة عزيزة؟!".

المخبر استغل علاقة جيرة تجمععه بأمين شرطة يعمل في القسم القريب من سكن المرأة، أعطاه ما فيه النصيب وأخذه معه، علَّه يُرهبها، أفهمها أن اللعبة انكشفت، ولا فائدة من المهاترات. بعد طول مجادلة رضيت بأن تحصل على خمسة آلاف جنيهه خلاف ورقة الطلاق. والد الأخرق أرسل الأموال في اليوم التالي فحلت المشكلة، لكن للأسف لم يُعد الأخرق كما كان.

(21)

تحققت نبؤة المخبر واندلعت ثورة جديدة في البلاد، احتشد القاهريون في الشوارع والميادين، مطالبين برحيل الرئيس الملتحي، أهالي المحافظات هم الآخرون خرجوا تضامناً مع أهل العاصمة، وهتفوا بسقوط حزب الأونطجي، حتى قريتنا الهادئة تحوّلت ساحتها الكبرى إلى فوهة بركان.

من الواضح أن تحذيرات محمود زوج أختي منى للأونطجي كانت صائبة، بالفعل اتحدت كل القوى السياسية لتزيح حزبه من السلطة. جميع الإعلاميين والمحللين السياسيين، يؤكّدون بأن الجيش لن يقف هذه المرة موقف المتفرج، يلمحون بأن الجنرال ذا البذلة الكاكي والنظارة الشمسية، مقتنع تماماً بمطالب الشعب المشروعة. منذ أسبوع أو أكثر توقع محمود ذلك وصدق توقعه، يومها قال لحامد الأونطجي: انفذ بجلدك. لكن الأخير لم يصدقه.

أول ما بدأت المظاهرات عدت إلى قريتنا، فلن أترك أهلي يواجهون المجهول وحدهم، وضعنا الترايبس والجنازير على باب البيت تحسباً لأي طارئ. فتنة وحامد اقتنعا أخيراً بحكمة محمود ورجاحة عقله، فرفضاً أن ينفذا أوامر الحزب بالتحرك إلى العاصمة، يقول الأونطجي إن الحزب قد أمر جميع كوادره بالمحافظات بالانتقال فوراً إلى العاصمة، والانضمام إلى زملائهم المعتصمين في

الميدان الكبير القريب من ضريح الرئيس المؤمن. خاف نسبي فعصى الأوامر. اتحاد الشرطة والجيش على قلب رجل واحد أربعه. المدرعات الممتلئة بالجنود الملتمين والدبابات كالحة اللون التي تجوب البلاد أخافته، وجعلت وجهه كما قطعة البفتة البيضاء.

عندما بدأ أهالي قريتنا بالتجمع في الساحة الكبيرة، تحركنا تنفيذاً لتعليمات محمود. قال ساعتها حامد: الاحتراس واجب. في جُح الليل سرنا متخفين حتى وصلنا، عربتان كبيرتان كانتا بانتظارنا هناك، أول ما رأهما محمود أشار لسائقيهما بأن يطفئا الأنوار، عندما عبرنا المدخل ودخلنا إلى المعرض، أخبرنا حامد بتوتر بضرورة السرعة في نقل البضائع، قال لنا: سييوا الحاجات الثقيلة وركزوا على الموبيلات والكمبيوترات. حملنا كل ما خفَّ وزنه وغلى ثمنه، أفرغنا المعرض من البضائع غالية السعر ونقلناها إلى العربات، ثم تحركنا إلى منزل أبي.

تحول بيت أبي إلى مخزن مؤقت لبضائع الأونطجي. قال محمود بحماس: لو حدث مكروه -لا قدر الله- واقتحم الأهالي بيت حامد، فالخسائر ستكون بسيطة. سألت حامد: لماذا جعلت مقر الحزب في عمارتك وأعلى معرضك؟ فرد بحسرة: نصيب!

كنا نتابع الحرائق التي ينقلها التلفزيون على الهواء مباشرة، ونرى مقار حزب الأونطجي التي اقتحمها الغاضبون وأحرقوها. لم أتصور للحظة بأن أهل قريتنا يمتلكون جرأة القاهريين وسلوكهم

الإجرامي، عشت وسطهم أغلب عمري، وأعرف أنهم أناس مسالمون، لذا تفاجأت عندما بدأت الحرائق تجتاح قريتنا، أول ما التهمته النيران كان بيت حامد، تحوّل في دقائق إلى ركام، بعدها أضرمت النيران في جميع محال أعضاء الحزب في قريتنا.

تقول أم ليلي بأن أمير الجيوش قد ضرب ضربته وانتقم، أرادوا أن يهدموا ضريحه فأشعل النيران في بيوتهم، أرد وأقول لها: أصحاب الذقون الطويلة هم من أرادوا هدم المقام يا عمتي وليس حزب حامد. تُوجّه نظرها إلى فتنة وتقول: من غض طرفه وعقد اتفاقاً في الخفاء نال عقابه الذي يستحقه.

لا أعرف أهالي قريتنا انتفضوا وثاروا اعتراضاً على سياسات حزب الأونطجي، أم غضبةً لسيدي الأمير. يقول نور ضاحكاً: أمير الجيوش أذل الأشرار، حرق محالهم وبيوتهم، وضعهم في السجون يا عمو. أضحك على سذاجة الولد وأنصرف.

المدينة تعج بمظاهر الفرحة، الأعلام ترفرف من الشبايك والبلكونات، الكمبوندات أزال الحواجز الموضوعية على بواباتها، وزينت أسوارها بألوان العلم، لافتات التهاني بنجاح الثورة والقضاء على الخونة تملأ الشوارع. صور الرئيس الملتحي أزيحت إلى الأبد، وحل محلها صور جديدة للجنرال الذي ودّع بذته العسكرية وارتدى ملابس مدنية أنيقة. صور الفخمة تغطي أغلب شوارع المدينة، بعد

أن أعلن استجابته لمطالب الشعب وترشحه للانتخابات الرئاسية،
تلبية لنداء الواجب.

أحوال بلدياتي في المجمع لم تتغير، المخبر على وشك الحصول
على ترقية جديدة، وحمادة ابن ممدوح البطل أحرز أربعة أهداف
تثبت بها قدميه في عالم كرة القدم. عم بيشوي أحيل إلى المعاش
وسيمتتع بتقاعدته وسط أحفاده بالقرية، وعم الشيخ أحمد ما زال
يحاول إقناع زملائي بفضل الالتزام بصلاة الفجر في المسجد.

الأخرق عاد إلى طباعه السيئة مرة أخرى، مشكلاته ومشاحناته
التي يفتعلها في المجمع لا تنتهي، تحوّل من عراك بلدياتي إلى معاركة
زملائنا القاهريين؛ شعوره بالخيانة جعله غير متوازن، لولا المخبر
لكان قد رُفد من العمل. في مرة سب أحد القاهريين بلا سبب،
ومرة عاجل زميل آخر بلكمة وعشر ركلات بحجة نظراته الشامتة
فيه. كادت أن تحدث أزمة، فوالد الزميل موظف بالوزارة، لولا
استسماح المخبر لأبيه وقسمه بأنه سيعاقب الأخرق بنفسه لحدث
ما لا يُحمد عقباه. علمت من بلدياتي أن والد الأخرق يسعى لنقله
إلى وظيفة بإحدى الهيئات الحكومية بشبين الكوم. رجا المهندس
نبيل بأن ينقذ ابنه ويبعده عن المجمع والعاصمة كلها، فوعده بإجراء
اتصالاته بالمسؤولين. فكرت في أن أطلب من أبي الاتصال
بالمهندس نبيل، لينقلني أنا الآخر إلى شبين، لكن قبل أن أتصل به
بادر هو بالاتصال ليخبرني بالفاجعة.. ماتت أم ليلي!

توفيت بعد أن استردت كامل عافيتها! وزعت النذور احتفالاً بانتصار الأمير على أصحاب الذقون الطويلة. في رحاب المقام دعت للجميع. يقول نور باكياً: جدتي ظلت لساعة تُردد أدعيتها، دعت ليلي بالذرية الصالحة، ولجدي محفوظ بالعمر المديد، ولحامد وفتنة بفك كركهما، دعت لي يا عمو مثلما طلبتُ منها، قلت لها ادعي على الأشرار يا جدتي، ادعي بزوال الدمار من بلادي، ادعي لي برؤية أبي وأخي ثانية.

تقول ليلي: كنا في شقة عمي محفوظ نُرتّب بضائع حامد، العربات كانت ستحضر ليلاً لتنقلها إلى مشتريها الجديد، جميعنا كنا بالأسفل وتركناها هي وأباك بالأعلى، سمعنا صراخ عمي محفوظ فصعدنا جرياً.

فَرَشَ أَبِي سَجَادَتَهُ، وَصَلَى الْفَرَضَ وَالسَّنَةَ، وَهُوَ يُسَبِّحُ وَيُحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ، سَمِعَ أَنْفَاسَ أُمِّ لَيْلَى الَّتِي عَلَتْ، اقْتَرَبَ مِنْ بَابِ غُرْفَتِهَا لِيَسْتَطْلِعَ، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ بِالْدُخُولِ، وَقَفَ بِجَانِبِ سَرِيرِهَا، فَمَدَّتْ يَدَهَا إِلَيْهِ لِيَسَاعِدَهَا عَلَى النَّهْوِضِ، أَمَسَّكَ بِيَدِهَا وَظَلَّ يَرُدُّ الْأَدْعِيَةَ، ثَقَلَتْ أَنْفَاسُهَا وَزَادَتْ مِنْ تَشْبِثِهَا بِيَدِهِ، تَمَتَّتْ فَلَمْ يَفْهَمْ مَا تَوَدُّ قَوْلَهُ، اقْتَرَبَ أَكْثَرَ، حَرَكَتْ شَفْتَيْهَا، وَقَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ الْكَلَامَ انْطَلَقَتْ رُوحَهَا إِلَى بَارئِهَا.

مقبرتنا المغلقة منذ زمن فُتِحَتْ مِنْ جَدِيدٍ لِتَسْتَقْبَلَ أُمَّ لَيْلَى، وَضَعُوا الْمَرْأَةَ الْقَوِيَّةَ بِجَوَارِ أُمِّي وَأَهَالُوا التُّرَابَ، الْجَمِيعَ يَنْتَحِبُ وَجَسَدَ

المرأة القوية يواريه الثرى، نور يبكي بحُرقة ويقول لي: لماذا ماتت بعد أن شُفيت يا عمو؟! أمير الجيوش استأصل بيده مرضها فكيف تموت؟!

ليلي أصرت أن نعود إلى العاصمة، قالت: لا أطيق البيت ولا القرية بدون أمي. ساعدتُ حامد ومحمود في إنزال البضائع، ولم أرحل إلا بعد أن اطمأنت على عودتهما سالمين، بعدها ودّعنا الجميع وغادرنا.

اكتشفتُ بأن محمود وحامد شريكان في التجارة، محمود يرسل الأموال وحامد يتوسع في النشاطات. كنت أستغرب من احتداد محمود على حامد، وأتعجب من استكانة حامد الغربية على غير عاداته، ونحن منتظرون عودتهما أخبرتني منى بموضوع الشراكة، قالت بأن محمود حذر حامد كثيراً من مغبة الانضمام إلى الحزب. تحدثت بزهو بأنه لولا فطنة محمود ودكاؤه لحرق البضائع، وضاعت أغلب الأموال التي جنيها في غربتهما.

لا أعلم أترك إماره النفط وحضرا للاطمئنان على أم ليلي، أم لحماية ممتلكاتهما؛ لا أفهم ما يحدث إلا متأخراً، هذه عادتي التي لا أخالفها.

(22)

بدأ أسبوع الآلام بموت أم ليلي، وانتهى بعودة عم بيشوي إلى
المجمع. بدلاً من أن يصنعوا للقديس أيقونة تُخلد ذكرى كراماته
أهانوه، خذلته الحكومة وظلمه القانون الجائر.

كنا قد نظمنا حفلاً منذ شهر احتفالاً بخروجه من الخدمة،
وإحالته إلى المعاش. وليمة معتبرة أعقبتها كلمات مؤثرة وهدايا،
بعدها ودّعناه وعاد إلى قريته. بعد أن تأخرت إجراءات صرف
المعاش، كثرت زيارته إلى مكاتب الوزارة المختلفة بحثاً عن حقوقه،
ملف يُقدّف من موظف إلى آخر لمدة شهر، وبعدها أخبروه بأن
الموضوع خارج نطاق سلطاتهم. قالوا له: خدمتك في الوظيفة
الحكومية لم تتجاوز العام يا حاج، للأسف لا تستحق أي
مكافآت. تجاهل نعتة بالحاج وسألهم عن الحل، فردوا بأن من في
يده الحل هو وزارة التأمينات الاجتماعية. تحرك الملف إلى هناك
ووراء عم بيشوي، من قسم المعاشات إلى قسم الاشتراكات، ومن
إدارة الفتوى إلى إدارة الاستحقاقات، في الأخير أخبروه بأن حظه
سيء. حدّثه وكيل الوزارة شخصياً: "للأسف لو توفيت قبل الخروج
من الخدمة لكان الأمر بسيطاً، مكافأة نهاية الخدمة والمعاش كانا
سيُصرفان على الفور للورثة، لكن ما دمت تتمتع بالصحة والعافية
فلا حقوق لك".

أحضر عم بيشوي محامياً لكن بلا جدوى، فالقانون واضح وصريح، لا معاش لمن لم تتجاوز مدة خدمته في العمل عشر سنوات، عرض الرجل الطيب على المسؤولين بأن يستمر في العمل لتسع سنوات أخرى، ليتوافق وضعه مع صحيح القانون، فضحكوا حتى دمعت أعينهم.

"راجل طيب وعلى نياته"، قالها ممدوح البطل الذي حضر خصوصاً إلى شقة المنايفة لبحث الأزمة مع الكبراء، اقترح أحد بلدياتي بأن يُصَرَّف معاش شهري لعم بيشوي من صندوق اليتامي، اعترض أغلب الكبراء ورفضوا مخالفة اللوائح، قالوا: الصندوق مخصص للموت فقط، ولا مجال لأي استثناءات. قرروا في نهاية الاجتماع صرف منحة لمرة واحدة فقط للقديس. تهامس بعض بلدياتي فيما بينهم بأن الصندوق في طريقه إلى الانهيار، فبعد ضرب الضخم وغلق الكانتين بدأ رأس المال في التآكل. الأخرق قال بأنها مسألة وقت لا أكثر ويُفلس الصندوق. بعد أن وضع الكبراء خططهم اجتمعوا بجميع سكان العمارتين، ولقنونا أدوارنا حتى حفظناها، يومها بثُّ في شقة المنايفة، وكذلك البطل والأخرق، قلت في نفسي عادت الأيام الخوالي مرة أخرى، بعدما رأيت صديقي يتصافحان. الحدث الجلل أجبر الجميع على تناسي الخلافات ولو مؤقتاً.

دوري كان ثانويًا كالعادة، عضو في الكورس الميكلف بالنباح خلف الأخرق، ممدوح البطل مسؤول عن التفاوض، والضخم هو من يصنع الرهبة، أما الأخرق فهو قائد المهتفة المحمول على الأعناق، والمسؤول عن الاتصال بالإعلام. البطل حذر الأخرق من إخبار المخبر بما سنفعله، قال له دعه يُفاجأ، فلو عرف قبلها فلا نضمن رد فعله. حضرنا اللافتات وحفظنا الهتافات. في الصباح تجمعنا حول المبنى الرئيسي للمجمع. الأخرق بعث بالرسائل والصور إلى وسائل الإعلام، والبطل اتصل بالمدراء. الإعلام هو من حضر أولاً، التقط الصور وأجرى الحوارات وبعدها غادر، بعد ساعة حضر المسؤولون إلى المجمع، لم يسألونا عن مطالبنا، فقط نظروا إلينا، ثم توجهوا إلى قاعة الاجتماعات، حماستنا لم تحب وظللنا نردد الهتافات، لم يحضر العربان ولا قوات الجيش كالمرة الفائتة، وإنما أتت عربات الأمن المركزي تنهادى إلى داخل المجمع، تحدث قائد القوة مع المخبر، وبعدها أمر بنصب دائرة حولنا، دائرة واسعة من أجساد عساكر الأمن المركزي النحفاء تحاوطنا من بعيد، اخترق المخبر الدائرة ونادى على الكبراء، أخبرهم بأن وضع البلاد دقيق ولا يحتمل الفوضى، أكد بأن رجال الشرطة البواسل لن يتوانوا للحظة في تنفيذ دورهم، سيحمون أمن البلاد حتى لو اضطروا إلى القبض على جميع العاملين بالمجمع. الكبراء لم يقتنعوا بكلام المخبر، وأصروا بأن اعتصامنا السلمي لن ينتهي إلا بتحقيق المطالب العادلة

لعم بيشوي. البطل قال له: يدونا بس موافقة على صرف معاش بيشوي، وبعدها كل واحد فينا هيروح لشغله. انسحب المخبر وتوجّه إلى الضابط قائد القوة، تحدثا لدقائق، ثم انطلقا للاجتماع بالمسؤولين الجالسين في الغرف المكيفة.

إحقاقًا للحق، جميع وسائل الإعلام المسموع والمقروء والمرئي اهتمت باعتصامنا، تمامًا كالمرّة السابقة، لكن الفارق بين اليوم والبارحة هو محتوى ما نُشر، في المرة الأولى كان العنوان الرئيسي "الثورة تحتاج مجمع الخدمات.. العمال تنتفض ضد الظلم".

أما الآن فالوضع مختلف، هبط الأخرق عن الأكتاف، وأخذ في متابعة المواقع الإلكترونية على هاتفه، وجهه المتعكّر وسبابه المتواصل دفعانا إلى سؤاله عن ما حدث، أشار إلى شاشة هاتفه فدهلنا، أخرجنا هواتفنا، وأخذنا في متابعة الجرائد والمواقع الإلكترونية للقنوات التلفزيونية، العناوين متشابهة إلى حد كبير وكذلك المتن، جميعها تتحدث عن الإضرابات الفتوية التي تُعطل الإنتاج، الكل يطالب الحكومة بأن تكون صارمة في مواجهة محاولات المخربين لكيّ ذراع الدولة، الجميع يؤكد بأن القانون فوق الجميع، ويجب أن يُطبّق بحذافيره، حتى لا تعم الفوضى البلاد.

أخذ الكبراء في تهدئتنا وشحذ حماسنا مره أخرى، هم من بدؤوا في الهتاف فتجاوبنا مترددين، أصواتنا مخنوقة، وقلوبنا وجلة، وأعيننا زائغة تجاه الدائرة التي أخذت في الانكماش. المسافة بيننا وبين

الجنود أصحاب الهراوات الضخمة أصبحت لا تتجاوز السنتيمترات، نظرات الضباط لا توحى بالخير، فجأة فتحت الدائرة من أسفلها، قال الضابط في مُكَبِّر الصوت الذي يمسكه بيده: كل واحد يرجع لشغله، الاعتصامات ممنوعة، الطريق مفتوح قدامكم.. اتحركوا.

نظرنا إلى الكبراء فوجدنا الهلع يطل من أعينهم، صحننا فيهم ليقولوا لنا ما نفع، فاكتشفنا أنهم مثلنا تائهون. تحركت عربات الأمن المركزي وتوقفت عند حافة الدائرة، اقترب الجنود أكثر، ففهمنا ما ينوون فعله. في لحظة واحدة وبدون اتفاق مسبق جرينا، هربنا من الجزء المفتوح من الدائرة، نسينا المظاهرة والاعتصام وحق عم بيشوي المشروع، كل ما كان في ذهننا ساعتها، هو الفرار من المصير المظلم الذي ينتظرنا لو أدخلونا إلى العربات، حتى عم بيشوي جرى معنا، لكنه لم يصعد إلى السكن مثلنا، بل توجه إلى بوابة الخروج من المجمع، عاد إلى قريته ولم يتصل بنا بعدها أبداً.

(23)

فشل المظاهرة وعودة عم بيشوي إلى قريته خالي الوفاض، عَجَلًا بانْهيار دولة الكبراء، دائِمًا ما كنا نعتقد بأنهم أصحاب العقد والربط، لكن بعد توالي الهزائم أدركنا بأنهم مثلنا تمامًا، يصيبون ويخطئون، يفوزون ويُهزَمون، تتناهم الرهبة والفرع في اللحظات العصبية، يرتجفون مثلنا أمام الجنود ذوي الخوذات اللامعة.

من الواضح بأنهم أدركوا ما يدور في عقولنا وتعجز ألسنتنا عن النطق به، فمن يومها ورؤوسهم منكسة وأعينهم تتحاشى النظر إلينا. للمرة الأولى يجتمعون بنا بحثًا عن حل لا لتلقيننا الأوامر، طلبوا منا المشورة فعجزنا، فنحن معنادون على تنفيذ الأوامر لا اقتراح الحلول. حاولنا جميعًا أن نتناسى ما حدث، لكن نظرات زملائنا القاهريين الشامتة أبت أن تجعلنا ننسى، انتظرنا العقاب من قيادات الوزارة على ما اقترفناه، كلما يمر الوقت ولا يصل قرارهم تزداد رهبتنا، قال ممدوح البطل: كده بيقوا هيبهدلونا وبيطبخوا الطبخة على نار هادية.

لم أتوقع بأن قيادات الوزارة بارعون إلى هذه الدرجة في استخدام الحيل، كنت أحسب أن استخدامها حكر على كبار الريفيين فقط، لكن اتضح لي أن القاهريين أيضًا يجيدون استخدامها. جاء قرار إخلاء مساكن المجمع، فصدِمَ الجميع،

أمهلونا أسبوعًا واحدًا لإخلاء العمارتين، حتى أكثرنا تشاؤمًا لم يتوقع بأن يكون العقاب بهذه القسوة. القرار الآتي من الوزارة، نصّ على وجوب إخلاء السكن الإداري فورًا، لعدم قانونية إقامتنا فيه؛ اللائحة واضحة وبنودها صريحة، استراحة المجمع مخصصة فقط للعاملين الذين يبعد محل سكنهم عن العاصمة بأكثر من أربعين كيلومترًا، ويتطلب عملهم بالمجمع وجودهم على مدار أربع وعشرين ساعة. يقول مندوب الوزارة إنه بالبحث في الملفات تبين أن جميع المقيمين في المجمع من سكان القاهرة الكبرى، لذا لا يتوفر فيهم شرط أساسي من شروط الحصول على سكن إداري. همّ الأخرق بمهاجمته وهو يصرخ: يا عالم يا ظلمة كلنا مغتربين وملناش سكن في القاهرة. مسكنا بالأخرق وأرجعناه قبل أن يفعل فعلته، فضرب موظف حكومي أثناء تأدية عمله مصيبة لا نقدر على تحمّل توابعها، تحدّثنا بهدوء مع المندوب وأخبرناه بأننا جميعًا من الأرياف، ومحافظتنا تبعد بأكثر من أربعين كيلومترًا عن المجمع كما تنص اللائحة، رد بثقة: الورق يقول غير كده، بعدها أخرج من حقيبته صورًا ضوئية لبطاقات الرقم القومي خاصتنا، والمدون بها عناويننا القاهرية. أخبرناه بأنها عناوين غير حقيقية وضعناها في بطاقاتنا قبل أن نُعيّن في الوزارة، أكّدنا له بأننا قد غيرنا العناوين، حتى نتوافق مع شروط العمل السابقة. قال له الكبراء: لما كنا شغالين مع المقاول كان من شروط جهاز المدينة إن كل العمال يبقوا من

سكان القاهرة، فغيّرنا البطايق عشان أكل عيشنا. المندوب وودن من طين وودن من عجين، جاء لئيلغنا لا ليسمعنا. قبل أن يرحل قال له البطل بتذاك: طب يا باشا الأسبوع الجاي تبقى عندك بطايق جديدة بعناوين خارج القاهرة والأزمة تتحل. رد الرجل بحزم: مينفعش، المعترف بيه عنوانك يوم تعيينك بالوزارة، بعد كده تسكن في أي حطة ميهمناش.

أُخليت العمارتان كما أرادوا، فما باليد حيلة، وأجّرت كل مجموعة من بلدياتي شقة قرب المجمع.

بعد فترة قصيرة حضر السكان الجدد، استلموا الشقق بعدما أكدت لجنة الإسكان بالوزارة، بأنهم مستوفون لجميع الشروط، يقولون بأن لجنة الفتوى بالوزارة أصدرت تفسيراً لبعض نصوص لائحة إسكان العاملين، وأوصت بإضافة بند جديد بها، فُسِّرَ البند الخاص باحتياج المجمع إلى العامل على مدار أربع وعشرين ساعة، بأن لفظ "العامل" يُقصد به في هذه الحالة طاقم المديرين، فهم المسؤولون عن إدارة الأزمات وإصدار الأوامر لمجابهتها وابتكار الحلول، أما دور باقي العاملين فينحصر في تنفيذ الأوامر المكلفين بها من قِبَل طاقم المديرين، وبالتالي فالحاجة إلى الوجود على مدار اليوم، تنحصر في طاقم المديرين وقيادات الإدارة العليا بالوزارة فقط، كما أوصت إدارة الفتوى بإضافة بند جديد في اللائحة، ينص على استثناء قيادات الإدارة العليا من البند الأول، الذي ينص على

أن يكون السكن الإداري مخصصًا للعاملين الذين يبعد محل سكنهم عن العاصمة بأكثر من أربعين كيلومترًا.

المديرون بعكسنا يعيشون الخصوصية ويقدمون الاستقرار، لذا فقد حُصص لكل واحد منهم شقة، ليحضروا عائلاتهم للإقامة معهم. خصصت إدارة المجمع عربيّ ميكروباص للسكان الجدد، واحدة لإيصال أطفالهم إلى المدارس، والثانية لتوصيل زوجاتهم إلى الأسواق. يقول المخبر بأن الموضوع قانوني، وأن مدير المجمع قبل أن يُخصّص العربتان قد رفع مذكرة إلى قيادات الوزارة، أوضح فيها بأن استراحة العاملين تقع في مكان ناءٍ، لا تصل إليه المواصلات العامة، وبالتالي يجب توفير سيارات لنقل سكانه حتى أقرب وسيلة مواصلات. المذكرة عُرضت على أكثر من لجنة بالوزارة، وانتهوا جميعًا إلى الموافقة عليها، وذلك لصالح العمل وحسن سيره وانتظامه.

(24)

رحلت أم ليلي فانفرط عقد عائلتنا إلى الأبد، أصبح بيتنا مهجوراً بعد أن كان يعج بالحياة. زاد صمت أبي بعد أن رحل الجميع وتركوه وحده، استبدل سهرات الغيط بالجلوس وسط الأموات بالساعات، لا أعرف أيناجي أمي أم أم ليلي. حاول أصدقائه أن يخرجونه من تلك الحالة لكن بلا جدوى، قال لهم: أجلس وسط الأحباب عليّ أطمئن.

قالت لي فتنة باكية: خسائرننا فادحة يا كمال، بيت حرق وبضائع بيعت بثمن بخس ومستقبل دُمر. علمت أن حامد باع البيت والأراضي التي يمتلكها، وحوّل كل أمواله إلى حساب محمود البنكي؛ الملاحقات الأمنية لأعضاء الحزب وإيداع قاداته بالسجون أزعجهما. بمجرد أن أرسل لهما محمود الدعوة سافرا على الفور. بكت فتنة بجمارة أول ما تجاوزت رجل أمن المطار؛ الخوف من أن يمنعوها من السفر كان يؤرقها، الكابوس ظل يطاردها لأيام، تحلم بضابط المطار وهو يتمنّ في جواز سفرها، ينظر إليها مجزم ثم يجري اتصالاً، فتحضر قوة من الشرطة، يضعون الكلابشات في يدها، ويدفعونها بالقوة إلى عربة الترحيلات. يحكي لي حامد بأن صراخ فتنة كان مفرغاً، تستيقظ من حلمها المخيف صارخة، وتظل تبكي حتى الصباح.

استقرت أختاي في بلاد النفط وقد لا تعودا ثانية.

الجمع أصبح بلا طعم، لم يعد لي أصدقاء هناك، المخبر ترقي إلى وظيفة بالمقر الرئيسي بالوزارة، والأحرق هو الآخر نقل إلى إحدى الهيئات الحكومية بشبين الكوم. ممدوح البطل قدم استقالته وسافر مع حمادة الذي احترف الكرة في نادٍ خليجي.

البيت أصبح مكاناً مُقبضاً. ليلى لم ينته جِدادها بعد، ونور بات عصيباً للغاية. الولد يريد العودة إلى سوريا، كلما حاولت إقناعه بالبقاء يزيد من إصراره على المغادرة. قلت له: بلادك دُمِّرت يا نور، لا يوجد في سوريا مطار أو طائرات، الصواريخ لا تتوقف عن إصابة البيوت وتدميرها. يرد بإصرار: أريد العودة إلى وطني يا عمو. أقول له: من الممكن أن تموت لو عدت إلى هناك يا حبيبي. يرد باكياً: جدي ماتت هنا، لم تصبها طلقة مسدس أو سقط على بيتها صاروخ، ماتت بلا حرب يا عمو.

انتفخت بطن ليلى واستدارت ففرحت، قلت في نفسي سنتجاوز الحزن من أجل الوليد، للأسف لم ينه الحمل أحزان ليلى، بل زادها، تجلس بالساعات صامتة، وكلما حاولت أن أبادها أطراف الحديث تبكي، تقول منتحبة ظلت أُمي قلقة على حالي، وأول ما ماتت جاءت البُشرى، لم تفرح أُمي يوماً في حياتها، ولدت وتعذبت ثم ماتت.

لا أدري ماذا أفعل، نور مُصِر على السفر، والده يُجَدِّثني يوميًا، ويشرح لي ترتيبات عودة ابنه إلى سوريا. في البداية قابل محاولاتي لإقناعه بترك نور معنا بصدر رحب، لكن عندما لاحظت ممانتي في الأمر خشت لهجته، تحوّل حديثه من الرجاء إلى الأمر، أرسل لي بعضًا من السوريين، ليخبروني بأن القرار لا رجعة فيه. الأب يريد ابنه وهذا حقه الشرعي والقانوني، عندما رأوا دموع ليلى طمأنوها، أخبرونا بأن وصول نور سالمًا أمر مضمون، الولد سيسافر بالطائرة إلى لبنان وهناك سيقابله خاله ويُدخِله إلى سوريا بأمان.

انطلق موكبنا الصغير باتجاه المطار. ودّعنا نور، احتضناه واستحلفناه أن لا ينسانا، أخبرته ليلى بأن ما في بطنها ستسميه نور، سواء كان ذكرًا أم أنثى، قالت له: ستُحدِّثني يا نور أول ما تصل، لا تنس، أول ما يأتي نور الصغير إلى الدنيا سأرسل لك بصوره.

انطلق الولد وليلى تلاحقه بحديثها: لو تأزمت الأمور اتصل بنا، بيتنا مفتوح لك دائمًا يا نور.

بكت زوجتي بعدما غاب الولد عن نظرها. مسكتُ بيدها وجررنا أقدامنا حتى غادرنا المطار، عاد نور إلى وطنه، وتركنا وحيدين نبحت عن وطن.

تمت

faridabdelazim@gmail.com.